أحسن ما كتب

علم . فن . فلسفة . اجتماع

باقلام

طائفة من خيرة العلماء والادباء

في الشرق العربي

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

١٩٣٤

مقدمة

« أحسن ما كتبت » . . .

هذا هو الموضوع الذى اخترناه لهذا الكتاب لنجمع فيه طائفة من أنفس ما أنتجته قرائح الادباء فى الشرق العربى شعراً ونثراً ، ثم نهديه الى القراء كذخيرة قيمة وتحفة سمينة يقتبس منها كل قارىء مايلذه ويفيده

وقد يبدو وضع هذا الكتاب من أسهل الأمور وأقرب الأعمال . والواقع أن العناية التى بذلت فيه فاقت كثيراً من المجهود الذى يبذل فى غيره . ذلك لأن الموضوع دقيق ، يدعو الى الحيرة . وهذه الحيرة هى التى اعترتنا واعترت بعض الأدباء الذين اقترحنا عليهم أن يمدونا بأحسن ما كتبوا أو نظموا . فنهم من عارضنا بقوله : إن أفعل التفضيل هذا مستحيل بين الآثار القلمية للكاتب الواحد ، لأنه يعتبر مقالاته ومؤلفاته كأولاده لايفضل أحدهم الآخر . ومنهم من رأى ان أحسن ما كتبه لم يكتبه بعد ، لأنه لم يرض حتى الآن عما كتبه ، وليس لديه أحسن ولاحسن . ومنهم من اعترض على كلمة «أحسن» ورأى أن تغير بكلمة « أصدق » فهو يقترح علينا أن يكون الموضوع « أصدق ما كتبت» لأن الكلام لايكون حسنا إلا اذا كان صادراً عن شعور صادق . ومن بين هؤلاء جميعاً طائفة ـ هى الكثرة ـ اجابتنا الى اختيار أحسن ما كتبته فى رأيها

ومن هنا انقسمت مقالات هذا الكتاب الى قسمين : قسم اختار اصحابه مقالاتهم باعتبار انها أحسن ما كتبوا فى الماضى ، وقسم فوض أصحابه الأمر لاختيارنا فاخترنا لهم ـ وقد نوهنا بذلك فى خلال الكتاب ـ وهناك أدباء لم نستطع الاتصال بهم ، وهم قليلون لايزيدون عن ثلاثة أو أربعة اخترنا لهم شعراً ونثراً مما رأيناه ينسجم مع روح الكتاب

فاكتمل لنا من ذلك كله نحو (٧٣) كلمة فى موضوعات شتى لنحو (٦٧) كاتباً وشاعراً من خيرة الكتاب والشعراء فى البلاد العربية . ولعل ماحواه هذا الكتاب لم يتح لكتاب آخر من نوعه . وهو أشبه بالروضة المونقة التى انتظمت بألوان مختلفة من الازهار . وما الأدب فى العلوم إلا بمثابة الزهر من الأغصان . فهو يعبر مثله عن الجمال الفنى فى الطبيعة . ولذلك كانت كل النفوس تهواه ، وكلها ترتاح اليه وتطرب به

واذا كنا قد جهدنا فى جمع هذه الآثار النفيسة على هذا النحو الذى يراه القراء ، فان مما يسرى عنا ويخفف العناء مانعهده من حسن قبولهم ، وصادق تقديرهم لهذا الجهد الذى نبذله فى غذائهم الروحى مخلصين

فى حضرة الرئيس

بقلم الاستاذ عبد العزيز البشرى

ملء السمع ، ملء القلب ، ملء البصر . لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلا عظيما ما استطاع ، وهيهات لامرىء أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله ! وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه ، فكان طالباً عظيما ، وكان مدرهاً عظيما ، وكان قاضياً عظيما ، ثم تناهت اليه زعامة أمة فهو فيها ملء السهل والجبل

بحسبك أن تراه لتعرف أنه سعد ولو لم يومىء اليك أحد بأنه سعد ، وكيف يختلط عليك أمره وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بأنه ، وان كان من الناس ، إلا أنه أعظم الناس

بسطة فى العلم والجسم ، بسطة فى العقل والحلم ، وعزم تتزايل الحال دون أن يتزلزل ، ويقين تتحول الارض عن مدارها ولا يتحول ، ومنطق يصول فى الحلى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت سيوفها وعواليها ، ويلطف فى السمر حتى لتتمثل أسراب الكواعب وسوست حليها وتضوعت منها عواليها . . وما إن رأيت ولا سمعت برجل فسح الله تعالى له فى البيان وأمكنه من نواصى الحجة كما فسح لسعد ومكن لسعد . ولقد تتقدم لمباراته فى الامر تظن أنك قد بلغت منه الغاية ووقعت على الصميم وتمنعت منه بالحصن القوى ، فاهو إلا أن يرسل عليك الحجة حتى ترى أنه ملك الرأى عليك من جميع أقطارك ، وأنك سرعان ماوقعت أسيراً فى يديه تتقلب فيهما تقلباً ، وهيهات لك الخلاص الا بأن تنزل فى أمرك على الاذعان والتسليم !

وان أنس لا أنس ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشاراً كان فى محكمة الاستئناف ، معروفا بشدة الجدل ، فى مسألة فقهية . وكلما انحط الرجل فيها على رأى أزعجه سعد فطار الى غيره ، حتى اذا ظن أنه تمكن فى أفحوصه (١) ثار عليه بالحجة فوثب الى سواه ، وما زال به صدراً من الليل ينشره ويطويه ، وينقله من رأى الى رأى ، ويحوله من قول الى قول ، حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل لحوار ولا جدل !

ولا أدرى أ كان ذلك من سعد مجرد تهد للرأى وتعقب لموطن الصواب ، أم أنه انما كان يتلعب بالرجل تلعباً لينزله على معرفة قدره ، ففى نفس ذلك المستشار غرور وفى أنفه ورم أم هى المخيلة (٢) تبعثها فى النفس شدة التمكن من النفس . وانه ليلذ لها أحياناً ألا تمتعك بذلك الواقع

---

(١) الافحوص مجثم القطاة وهو الموضع الذي تفحص التراب عنه لتبيض فيه (٢) المخيلة : الكبر

الذى اطمأننت به والحق الذى استرحت اليه . فما هو الا أن تصول بالحجة عليك حتى ترى أنك انما كنت تقبض على الهواء ، وأن صرحك الذى أقمته تفرق عنك تفرق الهباء . فتتولى منخذلا عن يقينك وقد ضربك الشك : أكنت مخدوعا عن الواقع ؟ أم ان هذا الواقع دون قوة سعد فهو يصرفه بحجته كيف يشاء ؟ . . . لا أدرى يومها ماذا كانت اربة الجبار . والله أعلم !

وسعد قد علت به السن وشاب رأسه . على انه ، بسط الله فى عمره ، ما زال يمرح من فطنته القوية فى أفتى الفتوة وأمرع الشباب . ولو كتب لك الظفر ساعة بمجلس هذا الذى دوت الدنيا كلها بمجده لنعمت بما لا يلحقه الوصف من عذوبة طبع فى عذوبة مجلس . وحديث كأنه قطع الروض رف آسه ونسرينه . وتضوع ورده وياسمينه ، وبديهة كأنه يقرأ منها فى كتاب ، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب . ونادرة تشيع فيك الطرب ، وتهزك من اعجاب ومن عجب . إذ هو فيما يرسل من القول — فى جده ومزاحه — لا يعدو ما ينبغى له من تحشم ووقار

وانه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يفرح روعك ، ويفسح لك فى جوانب القول لتقول . وانه ليباريك فى منزعك ، ويدارجك فى حديثك الى أن يرسلك على سجيتك ويسترسل معك ، حتى اذا اطمأننت اليه وظننت أنك فى مساجلة رجل مثلك ، خانته عبقريته ، فوثب به ذهنه الى ما لا يتعلق به ذهنك ، فاذا أنت قد طرت كل مطير ، واذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه الا أن تشعرك انك فى حضرة سعد زغلول !

يا لله من هذا الرجل ! وانه ليعرض فى الامر فيقول فيه مقالا ، وانك لتقدر له بادىء الرأى غاية ما تعاهد الناس من حجة ، واقصى ما تعارفوا من دليل ، فاذا هو قد وقع فى تدليله على ما لم تقع عليه ظنون الناس ، وارتفع الى ما لم تتعلق به اذهانهم ، ففتح فى المنطق فتحاً جديداً وأتى بما يبهر ويروع . وكيف لسعد ألا يرتفع على مذهب حجة الناس وقد رفعه الله على الناس ؟

وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بانه انما يتحدث على آمال أمة ، فهو مهما مارى المجلس فى فنون أحاديثه ، ومهما تدلى به السمر إلى تلك الاسباب الدائرة بين الناس ، يرفه بذاك عن نفسه وعن صحبه . يطفر الفينة بعد الفينة الى حديث الوطن فيشاك فيه معنى جليلا ، ثم يعود فيصيب ما شاء الله من حديث القوم . أعلمت ان سعداً لا يصلح الا للوطن ، وأن الوطن لا يصلح الا بسعد ؟

أريد ان أكتب عن سعد . ومن الغرور ان أظن بقلمى الوفاء بوصف سعد مهما تمرج له فى جوانب البيان . فان البيان انما يجرى فى غايته الى ما تعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك النفحات الالهية التى يرسلها الله تعالى فى العصور الطوال ثنياً بعد ثنى ليقيل أهل الارض الزلة ويهديهم من الضلة فذلك ما تعجز عنه اللغى ويقصر من دونه البيان

وبعد فاذا أردت ان تصف للناس سعداً فلن تستطيع أن تصفه بأروع من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعانى ما لا يبلغه الكلام وان قدرته العقول وتعلقت به الافهام

الرحالة في الصحراء[1]

بقلم احمد محمد حسنين بك

ان شق الصحراء شيء صعب وكشف مجاهلها شيء أصعب ، يعلم الرحالة هذا كله . فلنر اذن ما هو صانع ؟

ها هو ذا فى شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل ، يفكر فى النواحي الكثيرة التى تستلزم احتياجاته العدة فى رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدنى الذى نعيش فيـه ، ويدون كل ماينتهى اليه من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء ثم يأخذ فى جمع ما يعوزه من زاد وشراب ومتاع ، وهو حاضر الذهن يقدر لكل شيء سببه . فهو يحرص على أن تكون عدته جميعاً فى نحو بسيط كثير النفع هين الحمل يجمع طعامه الضرورى منه والكمالى لا يفوته أن يختزن حتى بضعة صناديق من الحلوى ، فتلك الكماليات الشهية لا يستطيع أن يجدها فى الصحراء ، فاذا توافرت له كانت سبباً من أسباب رغده ، يجمع عناصر فنه أدوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب ، تلكم العناصر العلمية التى يعتمد فى نجاحه على متانة بنائها ودقة أدائها لوظائفها ، بعد الماء الكثير ينتقى الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولا سيما الدليل فهو مصباح القافلة . يمتحن الخيام المريحة . ما أشد زهوه بخيمته الطريفة ، هي بيت العلم والقوة والفن ، يهيء أدوات الدفاع عن النفس وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى ومسدسات دقيقة الصنع ، وهـذا رصاص يأكل الاحشاء ، وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تخرق الصخر ، يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التى يسهل استعمالها ويصدق أثرها ، ولا سيما ما يختص منها بأمراض المناطق الحارة وما يشكو منه أهل الصحراء

ثم مضى المحاضر يصف حالة الرحالة النفسية واعتداده بنفسه وافتخاره بعدته وتخيله ماستكون عليه رحلته من الابهة وقافلته من القوة ، وكيف أنه قد ملأ يده من كل ما يهيء النجاح لرحلته فتزود من المادة بخير زاد واصلحه واستعان برائد بدوى أمين يقظ كالصقر خبير بالبيد كالحمامة لاتخطيء الى صاحبها السبيل . أما الابل والرجال والخيام والطعام والشراب والآلات العلمية فهو قد أعـد من ذلك كله أحسنه وأصلحه ثم حرص على ألا يفوته شيء من المظاهر حتى إنه أعد لنفسه لباساً بدوياً أنيقاً فتان المظهر خلاب المنظر ليطالع به رؤساء القبائل فيأتوا اليه ساجدين

---

(١) اخترناها من محاضرة القيت في المجمع المصري للثقافة العلمية

ثم قال : تلاحظون إذن فى رحالتكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبته وتمكنت منه :
أولا ــ إيمانه المطلق بقوة المادة . ثانياً ــ حرصه على أن يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع.
ثالثاً ــ ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون أن صاحبكم يحاول أن يفنى فى سلطان المادة ، أو ان يفنى سلطان المادة فيه . فالمادة شغله وهمه . مازج أثرها تفكيره . هفا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شىء فيه . تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدا مظهر هذا الاثر جلياً فى كل خطوة من خطواته وشارة من شاراته وكلمة من كلماته . هيمنت المادة على ذاته المعنوية جميعا . ما الصحراء سوى شىء مادى ، فلن يكون غزوها بغير سلاح مادى .ولقد اختار لهذا الغزو سلاحا ماضيا ، يغرى شكله بالوثوب ومقبضه بالطعن وحده بوجوب النصر المبين .ماأروع أن يكون اذن فوق بسيط الرمل ! تم كل شىء . لقد أصبح رب البيد وسيد الصحراء

ومضى المحاضر يشرح زهو الرحالة بنفسه وعدته ويسخر من فشل الذين سبقوه ويصف بداية الرحلة وكيف أخذ بجمال القافلة وهى تسير وفق المنهج الذى رسمه والسير هين والرمل لين والصحراء مهاد والابل تخب آمنة واحمالها فى حرز أمين

ثم يصف الصحراء بأنها صبية طيعة . ظبية ألوف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جبينها من نور . النظرة اليها تسبى العينين . المشى عليها يأخذ بالالباب . حياتها موسيقى وشعر . سماؤها أغان وأحلام . الاقامة فيها كالاقامة فى روضة غناء . راضية قنوع . لاترد قاصداً . لا تخيب ظنا . ان صددت أقبلت . وان أقبلت لانت . ضعيفة ذات خفر . فى صوتها حنان . فى رقتها لذة . فى ملاحتها فتنة . فى اغرائها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هى الصحراء . فلئن لم يجئه النجاح يسعى فلينتزعه من مخبئه انتزاعا

وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ويشتد شعوره بنفسه . وينمو يقينه فى الصحراء . انه ليسير كل يوم بضع ساعات فى جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتم رحالتنا مرحلته الاولى . وقد بدأ الآن يغشى « السريرة » والسريرة هى ذلك الشىء المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر . وقدره غالبا من خمسة الى ستة أيام الى اثنى عشر يوما أو تزيد . فقد يأخذ الرحالة فى ورود هذه المنطقة الموحشة يأخذ فى اجتياز مرحلته الثانية . يقضى صاحبنا أول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو فى صحى هذا اليوم أشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت صلته بالعالم الخارجى . واستهل الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذى لم يسبقه اليه أحد . القافلة تسير هانئة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بسر الصحراء . فبين يديه مادة قوية علاة

وتحت قدميه موكب مهين ذلول . اترون الآن أليه وهو يسخر ؟ أهذى هى اليد التي وصفوها بأنها طاغية ؟ أهذى هى الرمال التى زعموا انها آبار الموت ؟ أهذى هى الصحراء التى قالوا إنها شائكة السبل ؟ ما أفكه طوافها انها مغان ومراقص ورياض أنس ولهو وجمال

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . مازال يجد نفسه حتى كأن هذا الفضاء على رحبه لا يكاد يسعه ، وكأن الارض لا تحمل سواه . وقد اعتزم أن يسير اليوم كله على قدميه ليلقى بذلك على رجاله درسا مجيداً فى الصبر والجلد . وما الى ذلك من صفات البطولة . غير أن مفاجأة لم يكن ليحسب لها حسابا قد حولته من طريق الى طريق ، فعبثاً حاول أن يمضى فى السير على قدميه فقد أوجعتهما النعل البدوية تلك النعل الخشنة التى لم يألفها من قبل . تسرب الى نفسه شيء من الضيق فقد أدمت النعل قدميه أو اصابتهما منها ثغور . ليمتط إذن جمله . بدأ يتأفف . لا يلبث بعد حين حتى يمل ظهر الجمل . ما أقبح المطى ! أحب اليه أن يسير على قدميه الداميتين من أن يظل فوق جمل بطيء يمشى بسرعة أربعة كيلو مترات فى الساعة . يجيء وقت الغداء فيكون غداؤه البلح الجاف كالحشف البالى . لا طهى اذن ولا شواء اذ لا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم إنه من تقاليد القافلة أن ناسها جميعا يأكلون صنفا واحداً لا فرق بين سيد ومسود وكبير وصغير . البلح الجاف اذن هو طعامه السائغ الشهى ! يند جمل فيختل نظام القافلة وتصعب إعادتها الى سيرتها الاولى . تند جمال أخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فمن صناديق تتهشم الى زاد يتلف الى جهد كبير ينفق فى لم الشعث

ولكن صاحبنا لا ييأس ويعتبر ذلك مناوشة بسيطة من الصحراء ثم نفجأ ، ولكن ما خطبها ؟ أليست تفكك وحدة الركب وتعوق السير وتعطل أدوات الفن ؟ وهذا كله محتمل فى سبيل العلى . . .

يلقى الرحالة عصاه فتزأر به عاصفة من جديد ، عاصفة تملأ الفضاء ، زاحفة كأنما تريد أن تنسف الارض ومن عليها . صوتها يشيب الولدان كأنه صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة فى هذه المرة . تقوض خيامه ، تهشم بعض أدواته العزيزة التى يعرف بها أسرار السماء والارض . أما الابل فقد نفق أقواها وهو لا يدرى لهـذا سبيل . أما ماؤه فقد ذهب أكثره لامور لم تكن فى الحسبان . أما دليله ، وليد البيد ابن الصحراء العليم بأسرارها الخبير بمسالكها مصباح القافلة ذراع الرحالة الايمن ، أما دليله هذا فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع . ليس أمامه سوى الفسيح الموحش الرملى . ليس أمامه علم يهديه ولاصوى يسترشد بها فى طريقه . اذا قيل له : « أين نحن ؟ » هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس : « الله أعلم » واذا قيل له : « الى أين ؟ » أشاح بوجهه وقال فى لهجة حيرى : « الله اعلم » فكاهة فى الحق غير مناسبة . . . رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة تسقط على رأسه خيمته الظريفة فتحطمها وتكاد تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهى به أى دجعة أثيمة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليه ويأتمرون به فيسوء المصير

ثم وصف الخطيب موقف الرحالة وكيف تمثل له الموت باسطا يده ، واطل الفشل فحطم مطامعه وكيف هاب الموت وقد كان يحلو له أن يهب حياته للصحراء ، ثم كيف أصبح ذلك الدليل الذى تنتزع منه حياته عنوة وقسراً ثم قال : ويجيل الرحالة بصره ليرى كيف وقع هذا وعدته كاملة ورجاله حاضرون فلا يرى سبباً . بل يرى أن هذه العدد قد انقلبت ضده ، وكذب ظنه وخاب تقديره ، فيجلس كاسف البال حسيراً معتقداً ان الصحراء قد بيتت له الغدر . ويتساءل أهذه هى الصحراء التى كان يشغف بها حباً ويفنى فيها غراما ! أين الفوز والنصر وأين المطامع وأقواس النصر لقد انعكست آية المادة وهوى الرحالة من سمائه الى مستوى عبيده مكرها لا بطلا . . . لقد تغير شعوره وأخذ يحقد على الصحراء ويلعن اليوم الذى وطئتها فيه قدماه . ذلك ان زاده المادى قد أخلى به فجمد ذهنه وتعطل تمكيره

وهنا تنتهى المرحلة الثانية بعد أن يكون رحالتنا قد ذاق من العذاب أمره . غير ان للصحراء أدباً تأخذ به روادها فتصقل نفوسهم وتجلو عقولهم وترتفع بارواحهم يوما بعد يوم . وهذا الادب أشبه بأدب الام الرءوم بابنها العاق . وشدما أدت الصحراء رحالتنا وأحسنت تأديبه فبدأت تنطهه من دنس المجتمع وتطهره من ادران الحياة وتنزع من صدره وسوسة الشيطان ، بدأت تغسل عنه قذارة الجسم ودنسه ، بدأت تلهم نفسه فلسفة صوفية وتفيض عليها بهذه الفاسفة العالية

وأخذ يمكر فى أدب الصحراء بعد أن كان لا يفكر الا فى المادة وقوتها . فكأنما خلق اليوم خلقا جديداً . ولا غرو فقد أعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت وتلك الارادة الصادقة ، وعلم علم اليقين بأن ما تكنه الصحراء من أهوال وأخطار ، ويصمره العيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر الناس من ضر ومكروه ، انما هذا كله رهن مشيئة الله . وها هو ذا يصدر فى عمله عن طبيعة هذا الايمان الراسخ الشديد فهو ينفق اقصى ما يملك من جهد ، ويبذل غاية ما يستطيع من حيلة فى سبيل المطلب الذى اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرهما فى يده ، ولكن امرهما جميعا فى يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، واوحى اليه بوحيها الصادق . فأخذ من جديد يجمع شتات قوته المعوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلته على المضى ، ويملأ نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفى ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضا

وهكذا رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوى . وهكذا رويداً رويداً تفنى المادة ، ويفنى الجسم ، ولا تبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا المسيح اللانهائى الرملى. وثم تبدو له الصحراء فى صورة صبية وديعة فى سذاجتها رحمة ، فى ادوتها طهر ، فى ظرفها نسك يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكا صالحا ، مداعبة بقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها . وما أجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات !

الملك فيصل

بقلم الدكتور عبد الرحمن شهبندر
وزير خارجيته السابق في سورية

أترك للهاشميين أن يندبوا الابن النبيل ، وللثورة فى الحجاز أن تبكى المجاهد الجليل ، وللجيش المنقذ أن يجزع لفقد القائد المحنك ، ولديار الشام أن تخشع لموت الثائر المدرب ، وللبلاط فى بغداد أن يستكين لسيده الحلاحل ، وللعراق أن يهلع لمليكه الراحل . وأندب باسم العروبة خادماً أميناً من خدمة العروبة ، وبطلا كريماً من أبطالها

يكون الرجل وطنيا ولا يكون مجاهداً ، ويكون وطنيا ومجاهداً ولا يكون حكيما . ولكن فيصل ابن الحسين جمع الثلاثة فكان وطنيا ومجاهداً وحكيما

المرء عظيم بقدر الغاية السامية التى يضعها نصب عينيه ، وعالم بقدر ما يستكشف لها من قوى يدفع بها أهل تلك الغاية الى الامام ، وعامل بقدر مايضع النظر موضع العمل والخيال على محز التطبيق . وكان المليك الراحل عظيما لانه وضع نصب عينيه انقاذ شعوب بحذافيرها ، وعالما لانه استكشف ما فيها من قوة معنوية وثيقة تربط بعضها ببعض ، وعاملا لانه عرف كيف يضع تصوراته موضع التنفيذ

✡✡✡

ثم ما هي الزعامة يا ترى ؟

الزعامة سلطة شخصية تجمع العدد الوافر من الخلق تحت لواء واحد لتأييد حق من الحقوق مادية كانت أم معنوية

فالزعيم فى العلم هو الذى يقود العقول ليحررها من الجهل ويعطيها مكانها من بحبوحة البحث والزعيم فى الدين هو الذى يقود النفوس لينقذها من السخافات ويطهرها فى الاخلاق والاعراق

والزعيم فى الوطنية هو الذى يقود الشعب ليحميه من براثن العبودية ولعنة الذل والصغار فهل كان فيصل زعيما ؟

لقد كنا قبل هذه اليقظة القومية الحديثة متفرقين مشتتين ، حتى أصبحنا غرضا ترمى بالقذائف

في بلادنا وتشن علينا غارات الاضطهاد فى عقر دارنا ، فلما لعلع صوت فيصل قالت له الأمة لبيك وسعديك ، ثم أتته من كل فج عميق لتجتمع تحت اللواء الهاشمى الذى ارتفع هذه المرة لغاية قومية شاملة كما ارتفع منذ أربعة عشر قرنا لغاية إنسانية عالمية ، فسار وسار الخلق وراءه تحقيقا لما لا ينازعهم فيه منازع من حق فى الحياة الحرة المستقلة

ومضت هذه الجموع حتى قطعت شوطا بعيداً تارة بالعنف والشدة ، وأخرى باللين والهوادة إلى أن بلغت بعض الاقطار العربية مكانا محموداً . ففيصل كان زعيما لانه قاد حركة برمتها فى سبيل النجاة وعمل عمل الجبابرة لانقاذ شعب كامل من الاسر ووصمة الاستعمار . وما أغمض عينيه حتى كان لصوته هزة ترددت فى العالم العربى الشاسع من المحيط الى المحيط . أفلا يستحق الرجل الذى يرفع عن قومه ذل العبودية أن يدعى فى سجل أقدارها زعيمها الجبار ؟

٭٭٭

ان اسلوب فيصل فى الحياة هو الاسلوب الذى يطلق عليه فى الأدب كلمة « السهل الممتنع » فمن يتتبع سيرته فى بيته وفى عشيرته وفى بلاطه ومع وزرائه وفى رحلاته وفى مقابلاته الداخلية والخارجية وأعماله الخاصة والعامة — لا يجد تقعراً ولا تعقداً ، وهو بعيد عن الحوشى والمهجور ، ولا محل فى سيرته للمعاظلة ، بل يسيل فى طرق الحياة كما يسيل المـاء الزلال فى الساقية خاليا من الكدرات والشوائب ليسقى الزرع ويستدر الضرع . وقد يبدو العمل الواحد من أعمـاله بمفرده هينا لينا ليس فيـه مثار للدهشة أو الاستغراب ، ولكن متى انضمت أعماله بعضها الى بعض فهنالك الاعجاز والسحر الحلال !

قال فيصل وهو يجود بنفسه على فراش الموت : « انى أموت مرتاحا » وقد صدق ، لان القائد الكبير المثخن بالجراح فى ساحة الوغى لا يشعر بغصص الموت ، فالغاية العظيمة التى يزجى القيالق لبلوغها هى أ كبر من أن تدع للالم الى فؤاده سبيلا

وقد مات فيصل وهو هائم بتحقيق خطة عالمية عرضها انقاذ ثمانين مليونا من البشر يتكلمون لغة تدعى العربية ويعانون مرضا يدعى الاستعمار . فاضطراب قلبه وضغط صدره وحشرجة الموت — كل ذلك كان أصغر من أن يلفت نظره عما وضع نصب عينيه من الهدف الاسمى

٭٭٭

الموت مصيبة تعظم فى عين الصغير الذى لا هم له الا التمتع بملاذ الحياة البهيمية . ولكنه حادث طبيعى عند المشغول بالشؤون الكبرى . فكما تكون الولادة ظاهرة طبيعية لكل مولود كذلك الموت ظاهرة طبيعية للرجل الكبير

ليس حقا أن كل من حمل على النعش وسـار الى المقبرة على أعناق الرجال وتوارى فى ظلمة

اللحد انقطع عمله . أن الذى ينقطع عمله هو الصعلوك فى نفسه الفقير فى عقله الذى آمضى حياته على سطح الارض أنانيا بالمعنى الاعتيادى الحقير ، هو الذى يسمن على هزال اخوانه ، ويثرى على فقر بلاده ، ويرتقى على جماجم أبناء وطنه

ولكن فيصلا كان قويا فى نفسه غنيا فى عقله ، عاش لغيره لانه هزل جسمه لسمن اخوانه وافتقر ماله لثروة بلاده وارتقى فى سلم المجد ولكن على جماجم أعداء العروبة . لذلك ما توارى فى ظلمة اللحد حتى هبت روحه من جديد تبعث الحياة فى المبدأ الذى مات فى سبيله . وما هذه المآتم التى تقام له فى المشارق والمغارب الا شهادة الشعوب العربية لخادم العربية الامين . هذا هو الميت الحى وهذه هي أعمال الخالدين

وفى الصفحات الاولى من علم الطبيعيات أن القوة خالدة لا تتلاشى ، وانما تتحول الى شكل آخر من الحركة والاهتزاز ، تتحول الى صوت أو حرارة أو نور أو كهرباء أو غير ذلك ولكنها لا تندثر . وكذلك القوة الروحية — فهى تغيب عن الابصار ولكنها لا تتوارى عن البصائر ، وهي تموت بالمعنى العامى ولكنها تتحول بالمعنى العلمى

ولئن انقطعت حياة فيصل المادية ولم تعد قائمة على الهواء والماء والغذاء فحياته المعنوية يقظى لن تموت ، لانها تحولت الى اهتزازات روحية تتغلغل فى صدور الملايين وعشرات الملايين من البشر . أنها لقوة هائلة لانها استطاعت أن تقرب شعوباً متناكرة بعضها من بعض . وأنها لجذابة ساحرة لانها جمعت بلدانا متنائية حول مركز واحد هو الحياة العربية المستقلة . انها لشمس من تلك الشموس الساطعة التى تسبح فى فضاء اللانهاية وتتغلغل فى أركان الازل

هذا هو الخلود العلمى الذى يقيم لصاحبه تذكاراً من الانسانية وينحت له تمثالا من الدهر

أسرُّ إن كنت محموداً على خلق
ولا أسر بأني الملك محمود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها
وإنما هو بعد الموت جلمود

أبو العلاء المعرى

شلالات نياغرا

بقلم الاستاذ امير بقطر

كنت شدهدتها صيفاً والسياح يفدون اليها من أطراف المعمورة والفنادق تموج بعشاق الطبيعة من أرباب المال وربات الجمال . فلم يبق فى نزل غرفة إلا وا كتظت . ولم يبق فى حديقة زهرة تباع إلا وقطفت . ولم يشاهد الزائرون مقعداً تحت الافياء الظليلة إلاوتبوءوه ولاشبرا من الارض على ضفة نهر نياغرا إلا وتزاحموا عليه

هنا شيخ رحل مع زوجته وأولاده من ولايات أمريكا الغربية الجنوبية ليقضى فصل الصيف بين الخمائل وأرائك الاشجار ، حيث يجد فى خرير الشلالات موسيقى تذكره بأيام الصبى ، وفى نسمات الصباح حلاوة ينتعش بها جسمه ، ويجرى لها دم الشباب فى عروقه . وهناك على الضفة الاخرى فى فندق يطل على الشلالات ، ويدخل فى حدود كندا ، سيد فى مقتبل العمر ، يداعب شعر عروسه المتهدل على كتفيها ، كأنه خيوط الشمس ، وقد جاء بها هربا من الاصدقاء والاقارب والاحباب ، فى نيويورك أو شيكاغو أو باريس اولندره أو برلين ، ليقضيا شهر العسل فى نياغرا صيفاً بعد أن كانا قضيا شهراً آخر فى ميناهوس على مقربة من أهرام الجيزة شتاء

وقد خيل لى فى ذلك الحين أن تلك المنطقة وما يحيط بها ، من مدينة سيرا كيوز الى بلدة نياغرا فى الولايات المتحدة الى بلدة اوترنتو فى كندا ، ما غرست اشجارها ولا زرعت أزهارها ولا رسمت حدائقها ومتنزهاتها العمومية ، الا خدمة للعاشقين ووقفا عليهم . وكأن الطبيعة ماتفجرت ينابيعها فى تلك البقعة الا لتكون ملتقى الاحباب وملجأ العشاق . فما كانت أستار الظلام تسبل على ضوء النهار حتى تنتشر تلك الخلائق على الأرض السندسية أزواجاً ، وقد لبثوا صامتين ساكنين . وشفاههم تتهامس وقلوبهم تتناجى . فالنسيم عليل ، والهواء بليل جاف ، وموسيقى الشلالات تزيد نار الحب إشتعالا ، وتقع بلسما على الافئدة الكثيرة والقلوب الكليمة الخفاقة

رأيت كل ذلك ، ورأيت الريال الأمريكى لايكاد يظهر من حقيبة النقود حتى يتبخر كالأثير وسمعت الكثيرين يقولون إن الشلالات أجمل شتاء منها صيفاً فقلت لأقفل راجعاً الى نيويورك ولى الى نياغرا عودة . تركتها صباحا وقد هبت الشمس من مرقدها وأرسلت من أشعتها الذهبية على صفيح الماء المتدفق ما تحول الى ألوف المجموعات من الالوان القزحية . ففارقتها وفى القلب حسرة وشيعتها بنظرات من نافذة القطار ولسان حالى يقول : الى الملتقى . وقد تحققت الاحلام . . . .

ولما اقتربنا من الشلالات كان لدويها روعة فى قلوبنا وقد خفتت أصوات الطبيعة وخيم السكون وهدأت العاصفة الثلجية فحملت الرياح رشاشا خفيفاً من ماء نياغرا فطافت على وجهه السكك الثقيلة . وما كادت تلفحها نسمة باردة حتى وقف الماء فى مكانه واستحال جليداً . فاخذ زملائى يتزلقون بأحذيتهم المعتادة على أرض يخالها الناظر لوحاً من البلور النقى

وصلنا الآن الربوة العالية التى تطل على الشلال نفسه وهى ضالتنا المنشودة . وقفنا صفاً واحداً نستند إلى حاجز من الصخور والاخشاب ونظرنا الى أسفل الى هوة مخيفة سحيقة تكدست فى فى قاعها أحجار ذات أحجام ومرتفعات مختلفة . وعلى تلك الاحجار يتدفق ماء النهر بقوته الهائلة واتساعه العظيم فيسمع له زمجرة تصم الآذان وتولد فى النفس رهبة وتنبىء بضآلة الانسان وحقارته أمام قوى الطبيعة

اذ كر اننا وقفنا جميعاً جامدين كالصخر لانبدى حرا كا ، ننظر تارة الى الانهار العظيمة المتدفقة من ذاك العلو الشاهق الى الهوة العميقة ، وتارة إلى الضفة الاخرى حيث امتدت تلال اخرى بمحاذاة التلال التى كنا عليها واقفين ، وثالثة الى أسفل حيث المياه فوق الاحجار تتقاتل وتغور وتتلاطم ثم تنحدر الى القاع وتتباطأ فى السير شيئاً فشيئاً الى أن تنتهى بين التلين كالانهار فى الوديان

زادت الطبيعة سكونا وهدوءاً وزاد الماء زمجرة وزئيراً غير ان الشلالات لايظهر جمالها الحقيقى الا فى نور الكهرباء البديع . انتشرت الوف المصابيح على الجانبين ، بعضها على حدود كندا والآخر فى حدود الولايات المتحدة ، وأضيئت كلها فى وقت واحد فكانت تلك المفاجأة ابدع منظر رأيته فى حياتى

انتحينا جهة أخرى بعيدة عن المكان الذى كنا فيه وأخذنا نمتع الطرف بالشلالات وقد تكسرت فيها أشعة الاضواء الجميلة المتعددة الالوان فظهر وسط الماء خيوط ذهبية متقدة وأخرى صفراء فاقعة وغيرها بنفسجية أو زرقاء مائلة الى السواد . وكان يتخلل تلك الخيوط المتذبذبة المدلاة من المرتفعات الشاهقة ماء زلال رقراق يتلألأ فى الفضاء كانه ذوب بلور فى شفوفه ولمعانه . وأننا كذلك واذا بفتاة تهمس فى اذن جارها : إن شلالات نياغرا من ناحية كندا اجمل منها من ناحية الولايات المتحدة . وما كادت تأتى على آخر عبارتها حتى صحنا جميعاً : هلموا الى كندا

هناك تغتسل الطبيعة ليلا ونهاراً فلا تشوبها اتربة ولا رمال ولاغبار. فتارة تسقى ارضها ديمة المطر وطوراً يحمل اليها النسيم رذاذاً من الماء المتطاير من الشلالات ، تارة تجد الارض جافة ناعمة مصقولة وأخرى تلقاها كتلة واحدة من البلور النقى، وفى لمح البصر يذوب البلور كالشمس وقت الاصيل فينحدر ماؤه الى وسط التل ويترك تحته طريقاً مرصوفا شديد اللمعان

هناك عند مدخل الفندق وقفنا نشاهد فعل الضوء الكهربائى فى مياه الشلالات وقد انعكس منها الى الجهة المقابلة الوان اخرى قزحية تفوق ما رأينا فى الجهة الاخرى جمالا ولمعانا ، وانتشر من حولها نقط تترقرق على الاشجار ترقرق الطل على ورقات الورد

طفقت اخترق كومات الثلج الجميلة حتى اقتربت من الشلال لالقى النظر الاخير . وليقف معى القارىء قليلا فأنا خارج المدينة والطبيعة ساكتة وقد وقفت ندف الثلج من السقوط ، والاشجار قد تناثرت اوراقها واكتست اعوادها وأغصانها وجذوعها بثوب ابيض قشيب ، وخرير الماء يتعالى شيئاً فشيئاً . كلما اقتربت منه أنظر يمينا ويساراً وأماماً وخلفاً فلا أرى انساً ولا جناً ولا أشاهد سوى بياض ناصع فوق بياض

جميل ان نشاهد الشمس تبعث بأشعتها الذهبية فتبسم الاشجار وترقص الازهار وتغرد الاطيار ، ولـكن اجمل منه ان تصمت الطبيعة فهى صامتة اجمل منها ناطقة

هناك اتخذت الحاجز المطل على هوة الشلال السحيقة لى مقعداً ، فطوراً اشاهد ورائى الثلوج تذوب فتتدفق مياهها وتملأ الاودية والسهول ، وطوراً اطيل النظر الى الشلال فيزداد فى نظرى جمالا فوق جماله ! وما اسرع التقلبات الجوية فى هذه الأرجاء . سرعان ما اختفت ملـكة النهار وهبت ريح شرقية باردة فتحول ماء الثلج الذائب جليداً

وبعث الشلال برشاش من مياهه الى الاشجار التى بجانبه فبللها . وكان الماء لا يكاد يستقر على الشجرة حتى تعصف الريح الباردة بها فتحوله جليداً ، وأخذت هذه العملية فى الاستمرار حتى استحالت تلك الاشجار الى منظر من أجمل المناظر الطبيعية ان لم تكن اجملها . يخيل اليك ان جذع الشجرة شمعة كبيرة بلورية وان غصونها المتفرعة شموع صغيرة شفافة وقد ظهرت اعوادها فى بطونها كالفتيل فى باطن الشمعة . كنت اكسر الاغصان وأضعها بين يدى فاذا هى كالبلور لونا وكالشموع شكلا ولا تمكث فى يدى طويلا حتى تكسب من حرارة الجسم ما يذيبها فتزول الشمعة ويبقى الفتيل

فى بركة . . .

تنصب فيها وفود الماء معجلة　　　كالخيل خارجة فى حبل مجريها
كأنمـا الفضة البيضاء سائلة　　　من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها　　　ليـلا حسبت سماء ركبت فيها

البحترى

وقفة في ظل تمثال

لرعمسيس الكبير

بقلم الاستاذ خليل مطران

يا صورةً شبَّهَتْ صخرًا بإنسانِ ملأتِ من رَوْعَةَ قلبي وإنساني
لاوجهَ أبهى ولا أزهى برونقه من وجهك النَّضْرِ في مَنحوت صوان
مَن المليكُ الذى تَمْنَى جلالتهُ عنه ويَمضى فما يَثنيه من ثان
هذا فتى النيل، ذو التاجين من قدم، هذا فتى مصر، « راعمسيسها الثاني »
« سيزوستريس » الذي دانَ العتاةُ له من قوم رحث ومن فرس ويونان
إن قصر الجيشُ أغزى الرأيَ أمكنةً ما فاز خاتلُها منها بامكان
«ممنون» مردِى الاعادي غيرَ محتشم بطشاً ومُسْدِى الأيادى غير منان
مستقبل الشمس عبْرَ الشمس ماطلعت صُبحاً برأسٍ من الجلمود رنَّان
أناظرٌ أنتَ لمَّا هَمَّ كيف خطا من الصفا غير معتاقٍ ولا عان
هو المضاء تراءى فاستوى رجلاً هو الاباء رأى ضعفى فحياني
قاربتُ سُدَّته العليا على وجل ولم أخله يناجيني فناجاني
تراه عيناي مغضوضاً لهيبته طَرْفاهما وتراني منه عينان
أرابني أنى قبلاً بَصُرْتُ به محنطاً مدرجاً في سود أكفان
أكْبِر برمسيس ميتاً لن يُلِمَّ به موتٌ وأكبر به حياً إلى الآن
تقوض الصرح فيما حوله ومحا على التقادم لم يمسَسْ بحدثان
لولا تماثيله الأخرى محطمةً ما جال في ظن فنٍ أنه فان
في مصر كم عزَّ فرعونٌ فما خلدوا خلودَه بين نصر وأذهان

ولم يتم لها في غير مدته ... ما تم من فضل إثراء وعمران
ولم يسر ببنيها مثل سيرته ... ساع إلى النصر لا ساه ولا وان
من منتهي النيل فى أيامه اتسعت ... إلى أعاليه في نوب وسودان
ومن عتيّ الذرى في الطور عن كثب ... إلى قصيّ الربى في أرض كنعان

* * *

في أرض كنعان . . . إلاّ أن عسكره ... أحس ما بأس شعب غير مذعان
أعاد كرّاته فيها وعاد على ... أعقابه بعد إيغال وإمعان
فما يرى نقعه وهو الضباب علا ... تلك الربى فدحاها دحو قيعان
حتى تهبّ به ريح مترجحة ... عنها عثوراً بأذيال وأردان
وتبرز القمم الشماء ذاهبة ... في الأوج تحسبها أجزاء أعنان
مغسولة بدماء الفجر طالعها ... من أدمع القطر درّ فوق مرجان
سفوحها حرة والهام مطلقه ... وكل عان بها بعد الأسى هاني
وموقع الذل ناء عن أعزتها ... كموقع الطل عن هامات لبنان
لكنما الخلف في الجارين صار إلى ... حلف وأدنى إلى الصلح الأشدان
وإن خيرا حليفاً من تروض به ... صعباً وتوليه وداً بعد عدوان
تصافيا قصما حو العلى لهما ... وطوعا ما عصى مما يرومان
وطالما كان ذاك الالف بينهما ... على صروف الليالى خير معوان
في مبدإ الدهر والأقوام جاهلة ... رها بمبتكرات العقل عصران
عصر بما ابتدع الفينيق واخترعوا ... فيه له فضل سباق ومحسان
وعصر مصر الذي فاقت روائعه ... آى الحديثين من نخم ومردان
مما توالت على الوادى به حقب ... زينت حواشي الصما منه بأفنان
حضارتان سما شأو النهى بهما ... أفادتا كل تثقيف وعرفان
ما زال نعتهما يرجى إذا رجعت ... إلى حلائقها الأولى البلادان

وباتحادهما في الشأن من قِدَم ما زالَ يرتبط الاسى من الشان

* * *

يا مجد رمسيس كم أبقيتَ من عجب فيه ومسئلة عنه لحيران
أبْعِض به فى العدى من هادم حَنِقٍ وحبذا هو للتاريخ من بان
عالى الصروح كما والى الفتوحَ بلا رفقٍ بقاص ولا عطف على دان
أكان مَنْزِلُه في المجد منزله لو رق قلباً لشيب أو لشبان
أم كان ما أدركت مصرٌ على يده ذاك المقام الذي أزرى بكيوان
تخير الخطة المثلى له ولها يعلو فتعلو به والخفض للشاني
ما زال بالقوم حتى صار بينهمُ إلهَ جُنْدٍ تُحابيه وكُهّان
وَرُبَّ سائغةٍ بلهاء هائمةٍ تشتق ونهواه في سر وإعلان
يسومُها كلَّ خسف وهي صابرة لاصبرَ عقلٍ ولكن صَبْرَ إيمان
إلا . . وقد بلغت في الخافقين به مكانة لم تكن منها بحسبان
إن بات في حُجُبٍ نأت إلى نصب يلوحُ منه لها معبودُها الحاني
فبحلّت تحت تاج الملك مدميها وقبّلت دمَها فى المرمر القاني
واليوم لو بعثت من قبرها لبدا لها كما خَبَرَتْهُ مذ أزمان
ما زال صخرًا على العهد الذى عهدت بلا فؤاد وإن دَاجَى بجثمان
مسخرًا قومه طُراً لخدمته وما بغى . ربَّ سُوءٍ مَحْض إحسان
مُخَلَّدَ المجد دون القائمين به من سُوسِ حربٍ وصناع وأعوان
مخالساً دمهَ العلياء مصطجعاً من مَهْدِ عِصْمَتِهَا في مصجع الراني
بحيث آبَ وكلُّ الفخر حصته ولم يئب غيره إلاَّ بحرمان
كم راح جَمْعٌ فدًى فرد وكم بذلت في مشترى سيّد أرواح عبدان
أموقِعِ الأمرِ فيهم كلُّ تكرمة ومعبدِ الامر فيهم كل اسيان

* * *

كلاَّ وعزَّتهِ فيما طغى وبغى ... وذلٌّ من قبلَ الضِيزَى بإذعان
هُمُ الذين على عُسرٍ بمطلبهِ ... قد أسعفوه بأموالٍ وفتيان
وهم على سفه دانوا بمن نضبوا ... نخولوهُ مَديناً حَقَّ ديان
فيمَ الالى صنعوا أنصابهُ دَرَسَتْ ... رسومُهم منذُ باتوا رَهنَ أكفان
وما لأسمائهم دونَ اسمهِ دُفنت ... شُعثاً منكَّرةً في رَمس كتمان
إن يجهلِ الشعبُ فالحكم الخليقُ به ... حَقَّ العزيزين من والٍ وسلطان
أو يرشدِ الشعبُ يُمسِ الامرُ في يده ... ولا اعتدادَ بأملاك وأعيان
ليت البلادَ التي أخلاقُها رَسبَتْ ... يعلو بأخلاقها تيَّارُ طُغيان
النار أسوغُ وِرْداً في مجال عُلًى ... من بارد العيش في أفياءِ فَيْنان
أكرِمْ بذي مطمع في جنب مطمعه ... ينجو الأذلاَّء من خَسفٍ وخُسران
يهب فيهم كإعصارٍ فينقلهم ... من خفضٍ عيشٍ إلى هَيْجاءِ مَيدان
بعضُ الطغاة إذا جلَّت إساءتُهُ ... فقد يكون به نفعٌ لاوطان
في كل مفخرةٍ تسمو الشعوب بها ... تفنى جموعٌ مُفاداةً لإحدَان
كم في سَنى الكوكب الوهاجِ مهلكة ... في كل لمحٍ لأضواء وألوان

* * *

إن ترقَ في حقبة مصر كما رقيت ... في عصره بين أمصار وبلدان
لما رمت كل نائي الشوط ممتنع ... بسابقين الى الغايات شجعان
ألا ترى في بقايا الصرح كيف مضوا ... بأوجهٍ باديات البشر غرَّان
وكيف عادوا ورمسيس مقدمهم ... إلى الربوع بأوساق وغلمان
فبعد أن صال بين المالكين بهم ... صار الكبير المُعلَّى بين أوثان
بالامس يدنيه قربانٌ لآلهةٍ ... واليوم يأتيه أرباب بقربان
إن يغدُ ربهمُ الأعلى فلا عجب ... هل من نظام بلا شمس لاكوان
جهالةٌ ولدت فيها قرائحهم ... ضروب نحتٍ وتصويرٍ وبنيان

مما لو استطلع الرّائي بدائعه … لما انقضى عجَبُ المستطلع الرائي
في كل منكشفٍ كَنْزٌ ومستَتِرٍ … مَظِنَّةٌ لخبايا ذات أثمان
آياتُ مقدرةٍ جلَّتْ دقائقها … تخالها صُنْعَ مَرَّادٍ من الجان
تقادم العصر الخالى بها ولها … تمٌّ الجديدين من حذْقٍ وإتقان
لم يعْتَورْ مجدها مهدوم أروقةٍ … ولم يُذِلْ فَنَّها مهدود أركان
وراض كلَّ أبى هَوْلٍ بها حَرِدٍ … دمىً تهاويلها آيات إحسان
وزاد رَوْعَتَها أنقاض آلهةٍ … فيها حوانٍ على أنقاض تيجان
سجودُ ما كان مسجوداً له ، عظَةٌ … في نفس كل لبيب ذات أشجان
وَربَّ رزءٍ بآثارٍ أشدُّ أسىً … منه ملِمًّا بأشخاصٍ وأعيان
والتاج أشجى إذا ما انقضّ عن صَنَمٍ … منه إذا ما هوى عن رأس إنسان

* * *

بيتٌ عتيقٌ يرَى فيه الكمال على … ماشابَهَ اليوم من أعراض نقصان
حجته وبه من طول مدته … وفضل جدَّته للطرف حسنان
ما زال والدهر يطويه وينشره … يزْهى جلالا رِواقاه المديدان
في النقش منه لأهل الذكر قد كتبت … آيات ذكرٍ بإحكام وتبيان
تنزلت صوراً واستكملت سوراً … في مصحفٍ من دعامات وجدران
شاقت بفتنتها الاقوام فاقتبسوا … منها أصول حكومات وأديان
ومن حلاها استمدُّوا كلَّ تحلية … بلا محاشاة إغريق ورومان

* * *

هذا هو المجد نفنى والبقاء له … على تعاقب أجيال وأزمان
تاريخ مصر ، ورمسيسُ فريدته … عقد من الدر منظوم بعقيان
ما مثله في طروس الفخر من قدم … طرس من الفخر أوعى كل عنوان

(٢)

العهد الجديد

في حياة الانسان العقلية

بقلم الاستاذ فريد وجدي

أخذته من الصفحة ١٠ وما بعدها من الجزء الاول من كتابي « على أطلال المذهب المادي » الذي فرغت من تأليفه في سنة ١٩٢١

قلت عقب ما ذكرته من اقرار العلماء بعجزهم عن تعليل الظواهر الكونية :

كل هذه النظرات الصادقة ، المبنية على العلوم المحققة ، أيقظت العقل من غفلاته ، وكبحت من رعوناته ، وكسرت من شرة ادعائه ، وفلت من حدة خيلائه ، وأرته رأى العين ان ما علمه من أسرار هذا الوجود ذرة لا تدرك في بحر لجى ، أو هباءة لا قدر لها فى هذا الاطلاق العالمى ، وان وراء ما أدركه منه من هذا الجانب المادى عوالم لا تنتهى الى مدى تقف عنده ، وكائنات لا تصادف فى ترقيها تخماً تلتزم حده

أدب عقلى بعيد الغور لم يتحل به الانسان فى عهد من عهوده قبل هذا الدور الاخير . فقد كان فى كل طور من أطواره شديد الاعتداد بمدركاته ، عظيم الثقة بمحسوساته ، الى حد أنكر معه ما وراء حسه وهو غافل عن انخداعه لقصوره ، واستهزأ بكل مالا يتفق وعلمه وهو جاهل بمبلغ غروره ، حتى من صرح من الناس بجهله فعل ذلك اما تواضعاً أو تصنعاً . أما اليوم فقد أدرك الانسان جهله بعلم حسى ، وفهم قصوره بدليل مادى . وهذا الادب كان من أعظم آثاره عليه أن غير وجهة نظره الى الوجود . فقد كان ينظر اليه من وجهة انه مجال مادى بحت . تكفى فى سبر غوره حواسه الخمس ، فكان الوجود فى نظره محدوداً على لانهائيته ، مفهوماً فى جملته . ولكنه اليوم ينظر اليه من وجهة أنه مجال غير محدود تعمل فيه قوى لا يحيط بها عقل . المادة وجه من وجوهها ، وليست أصلا لوجودها . والقوانين التى تؤثر عليها مظهر من مظاهر تلك القوى الكلية تعمل فى الكائنات على نظام يناسبها ، لا ان تلك القوانين هي كل ما فى الوجود من العوامل المؤثرة

هذه الوجهة الجديدة من النظر باحالتها المادة الى قيمتها الحقيقية . حقرت فى عينه هذا الوجه المحسوس للوجود ، ونبهته لما وراءه من الكون غير المشهود . فد بحثه الى ذلك العالم ، ولكن لا على الاسلوب القديم من تسليم الخيال قيادة العلم ، بل على الاسلوب الجديد من المشاهدة والتجربة .

فبعد ان كان يقصر علمه الطبيعي على هذا المجال الضيق من عالم المادة الظاهرة ، ويعنى بالطبيعة هذه الباحة الحرجة من مدركات حواسه القاصرة ، أخذ يمد علمه الى ما بعد هذا العالم المحسوس ، ويوسع من مدى ادراكه للطبيعة نفسها ، فلم يحصرها فى هذه الدائرة الضيقة

هذا تطور بعيد المدى أحدث من النتائج فى كل فرع من فروع العلم ما غير وجه الفلسفة ، وقضى على قصر النظر قضاء لا قيام بعده . وقد عولنا فى هذا الكتاب على ان نقف الناطقين بالضاد على حقيقة هذا التطور العظيم الذى يعتبر بحق اكبر تطور سجله التاريخ لارتقاء الانسان من الوجهة الادبية ، دفعه لادراك ما وراء هذه الحجب المادية من العوالم العلوية

وانى باعلانى لهذا العهد الجديد فى حياة الانسان العقلية ، أرمى لان أحدث فى أرواح الشرقيين وعقولهم نفس الاثر الذى أحدثه فى أرواح الغربيين وعقولهم

ولست أقصد من قولى العهد الجديد للعقل البشرى ان هذا الترقى الواسع النطاق وصل الى كل درجات العقول . فان فى الناس بل وفى العلماء أنفسهم من لا يبالون بغير ما ألفوه ولو سقطت السماء على الارض . ولهؤلاء أشباه ونظائر فى كل بلد من بلاد العالم

ولقد تحطمت نظرية الانتخاب الطبيعي الذى بنى دارون عليها مذهبه، وما يزال فى الناس من يظنون انهم حلوا بها أسرار التطورات الحيوية ، الى درجة لم يبق معها ظل من شك . بل فى الناس من لا يزالون يقولون بالجوهر الفرد الذى لا يقبل الانقسام . وهى النظرية التى وضعها ديموكريت ولوسيب منذ اكثر من الفى سنة . ويخيل اليهم انهم أدركوا سر الوجود ادراكا لا يسمح لهم بالاطلاع على ما ينفيه من المباحث الحديثة

هذه الطائفة تقمصت من روح الجمود ما لا يتفق وروح كل باحث متثبت . وصبغت العلم بصبغة الجبار المتمرد . مع انه فى الواقع معترف بنقصه ومتواضع فى حكمه . واتخذت من بضعة الافتراضات التى اضطر اليها العلم للتعليل المؤقت ، ومن بضعة الوجوه العاملة فى الكائنات ، ذريعة الى بناء فلسفة عرجاء خرقاء عمياء لحمتها وسداها قصر النظر والدعوى الباطلة والكلمات المقعرة

ادعوا انهم تحرروا من ربقة الايمان بالغيب . وما دروا أنهم وضعوا فى أعناقهم أغلالا من الايمان بالطبيعة ينوءون بحملها ، وفى أرجلهم قيوداً يرسفون فى سلاسلها . وزعموا انهم ترفعوا عن العامة فى القول بالله خلق العالم بقدرته وارادته . وما علموا انهم تسفلوا الى القول بالهية المادة ، ونحلوها بخيالاتهم من القوى والقدر ما لا يمكن تحقيقه بحجة ناهضة ، ولا يتأتى شهوده بتجربة حاسمة

وخيل اليهم انهم بلغوا من بعد النظر وسعة العقل الى ما يسمح لهم بأن يهزأوا بأصحاب العقائد الجامدة . وما فهموا انهم بوقوفهم فى دائرة ما حصلوه من هذا القدر الناقص من العلم قد وضعوا على أعينهم حجباً من الغشاوات ، وعلى عقولهم كسفاً من الغباوات ، لا تسمح لهم برؤية شيء غير ما تخيلوه وجمدوا عليه

عبقرية جيتي (١)

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

من العبقريين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة ، لأنه يرتقى الى اوجه فى بعض أعماله فيأتى بخير ما عنده أو بكل ما عنده ، وتعرفه حق عرفانه فلا تحتاج الى تجربة له بعدها ولا تصيب فى التجربة الجديدة إلا تكراراً لاجديد فيه

ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقريته فى كل جزء من كتاباته ، فبعضها لايدل على مداها كلها ، وتكرار القراءة فيها ينتهى بك كل يوم الى جديد ، فلا غنى لك عن التجربة بعد التجربة لسبر غورها والاحاطة بمداها والحكم عليها فى جميع احوالها

وجيتى من هؤلاء العبقريين الذين لاينبيء قليلهم عن كثيرهم ، لانه لم يجمع نفسه فى قطعة واحدة ولا موضوع واحد ، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة : الموضوع الواحد عنده لايدل على كل موضوعاته والجزء الصغير لايدل على جملة الموضوع . فكل فكرة له هى أصغر من الرجل فى جميع أفكاره كما أن اليوم الواحد فى غمار ايامه هو أصغر لامحالة من سنيه الثمانين

تلك احدى الصعوبات التى تعوق عن التعريف بهذا العبقرى الكبير ، وصعوبة أخرى مثلها هي بساطته وقلة احتياله فى تعبيره وتجافيه عن التزويق والتفخيم فى سياقه ، فلا اصطناع ولا ايهام ولا زخرفة، وانما هي أفكار يلقيها اليك على هينة كما جاءته على هينة . وكلها سواء عنده فى الحفاوة والخطر ، فلا الكبير عنده مستهول ولا الصغير مزدرى ! وانما هو المارد الجبار يحمل الصخرة كما يحمل الحصاة ويمشى بأثقل أحماله وأخفها فى خطو وئيد وقوام قويم

واذا كان بعض الكتاب يمشى الى غرضه كما يمشى البهلوان على الحبل ، أو كما يمشى اللاعب على يديه ، أو كما يمشى الراقص المترنح ، أو كما يمشى الكاهن الوقور لا ينظر الى يمنة ولا الى يسرة ، فجيتى ليس يعرف هذه المشى وليس يركب الى غرضه حبلا ولا يترنح ولا يتكلف ، بل يخيل اليك أحيانا من قلة النصب فى حركته أنه يمشى الى غير غرض كما يمشى المتريض فى ساعة فراغه . فاذا أفضيت معه الى غايته فقد تتعب وقد تنكر المسعى ، ولكنك تشعر أنك كنت تمشى مع دليل أمين ولم تكن تتبختر مع رقاص أو تقفز مع بهلوان ! وأنت بعد ومذهبك فى حركات الاقدام : فالجارى على الحبل ابرع ولا ريب فى فنون هذه الحركات من السالك فى الطريق كما يسلك سائر الخلق ، ولكنه

---

(١) عن كتاب « تذكار جيتى »

بهلوان وليس كل انسان ببهلوان : ويلعب والناس لا يتعلمون المشى ليلعبوا على الحبال !

وكلمة واحدة — مع هذا — تسمعها من جيتى تنبئك أنه قد وصل الى مدى لا يصل اليا الكثيرون . ولا يلزم أن تكون هذه الكلمة رنانة ولا موشاة ولا صاخبة ولا أنيقة ، فقد تنبئك نبأها الصحيح ولا حظ لها من رنين أو وشى أو صخب أو اناقة

يحدثك رجل عن القاهرة ساعات ، فيسبق الى وهمك أنه سكنها وجاس خلالها وأطال المقام فيها ، ثم ما هى إلا كلمة يزل بها لسانه حتى تعلم أن ما سمعت بحذافيره إن هو الا وصف ناقل لا وصف شاهد ، وان حديث صاحبنا عن القاهرة إن هو إلا حديث قارىء أو متلقف من الأفواه

ويقول لك غيره كلمة واحدة عن القاهرة لاتستغرق الثوانى فضلا عن الساعات المتواليات ! فتجزم جزم اليقين أنها كلمة العارف الذى زار وأقام وأطال المقام . فهل يلزم أن تكون فى هذه الكلمة بلاغة خارقة أو نبرة متكلفة أو كناية ملفوفة ؟ كلا بل لا يلزم حتى أن تكون صحيحة كل الصحة فى معناها . إذ هناك الخطأ الذى لايخطئه إلا من شهد واختبر ، وهناك الخطأ الذى يقع فيه الانسان لقلة الرؤية والاختبار . بل هناك الخطأ الذى هو أدل على المشاهدة من الصواب . فالشرط الوحيد اذن فى تلك الكلمة أن يقولها القائل بعد رؤية ومعرفة ، وفى هذا الشرط وحده قيمتها التى تربى على قيمة الاخبار المسهبة يرويها لك من لم ير ولم يعرف . فأنت حين تنوى أن تذهب الى القاهرة لا تذهب اليها مع من تلا عليك تلك الاخبار وبسط لك تلك المرويات ، وانما تذهب اليها مع من نبس بالكلمة الموجزة ذات الدلالة وان لم يكن على صواب

إن كلمات جيتى عن عالم الحقيقة هى من طراز هذه الكلمة التى لاطنين فيها ولا كلفة . فاذا سمعتها قلت : « أجل ! » هذه كلمة ناظر وعارف ، هذه كلمة السر التى يصطلحون عليها فى ذلك المكان ، هذه « هي الاسرار المكشوفة لكل انسان ولا يكاد يراها انسان » كما قال

فمن شاء أن يستدل على عبقرى كهذا بكلامه فليتريث كثيراً ولا يقنع بالنموذج اليسير . فكل فكرة هنا أصغر من المفكر ، وكل ثمرة هنا وراءها شجرة كبيرة ووراء الشجرة حديقة أكبر ! وقد تدل الثمرة على شجرة واحدة حملتها . أما الحديقة فلا تدل عليها إلا ثمرات من عدة أشجار

نعم نحن حيال حديقة عامرة لا شجرة واحدة : نحن حيال شاعر وحكيم ومصور وعارف بالموسيقى ووزير وباحث فى النبات والتشريح وطبقات الارض والنور

وفى كل علم من هذه العلوم كان لبحثه أثر ولرأيه قيمة . ففى النبات اهتدى الى نظرية « التحور » ورد اجزاء الشجرة المختلفة الى جزئين فى أساس التكوين . وراقب النمو المطرد والنمو المعكوس وغيرهما من ضروب الطوارىء على حياة النبات . والتفت الى أثر العصير الغذائى الكثيف والعصير الغذائى الملطف فى اختلاف الجذوع والاوراق والازهار

وفى التشريح اهتدى الى العظمة الوسطى فى الفك الاعلى التى تنبت فيها القواطع . وكان المظنون

أنهـا لا توجد إلا فى الحيوان . ورجع بتركيب الدماغ الى الفقار فى الحيوان والانسان ، فكان فى تقريراته هذه فى علمى النبات والتشريح رائداً لمذهب التطور وطليعة من طلائع العلم الحديث

أما فى طبقات الارض فقد كان له رأى محترم فى تركيب الحجارة المحية والمعادن . وكان مصراً على مناقضة نيوتن فى تعليل الالوان يأبى كل الاباء أن يرتاب فى بساطة النور ، أو يقبل التعليل القائل بتركيبه من عدة ألوان ، وإنما اللون عنـده مزيج من النور والظلام : يكثر فيه قسط النور ويقل قسط الظلام فهو اللون الاصفر . ويكثر فيه قسط الظلام ويقل قسط النور فهو اللون الأزرق . ومن الاصفر والازرق يتولد الاخضر . ومن هذه الالوان تتولد سائر الالوان . وكلما قارب اللون الظلام كان أثره فى النفس الى الحزن ، وكلما قارب النور كان أثره الى البهجة والانشراح

وقد أعرض علماء الطبيعة عن هذا الرأى ولم يأخذ به إلا نفر من غير الاخصائيين . ولكنه على كل حال رأى لا يستحق الازدراء . . وقد عرف له فضله علماء عصره وما بعده فيما عدا هذا فقال كاروس : « اننا إذا رجعنا الى اقصى ما نستطيع فى تاريخ الجهود التى قام بها الباحثون لادراك فلسفة ما لتركيب الدماغ وجدنا أن الفكرة الاولى عن تحور أشكال العظم وردها جميعاً الى شكل واحد ، انما هى فكرة يرجع فصلها الى جيتى » . وقال سانت هلير : « لعله لم يصدر من عشر سنوات كتاب واحد فى علم وصف الاعضاء أو علم النبات خلو من وسم هذا الكاتب المشهور »

وقال هلمهولتز : « ان جهود علماء النبات وعلماء الحيوان لم تزد على أن تجمع المواد والمشاهدات حتى تعلموا كيف يرتبونها على أنماط يتبين منها التسلسل ووحدة النسق . وهنا وجد عقل شاعرنا الـكبير مجالا يوائمه وكان الوقت مؤاتيا له والمواد المجتمعة فى علم النبات وعلم التحليل المقارن كافيـة للاستعراض الواضح . فادخل فى العلم فكرتين هاديتين تحفلان بالثمار حيث كان معاصروه يهيمون على غير هدى أو يقنعون بتسجيل الوقائع اليابسة »

ونحن لو قصرنا النظر على كتبه فى الادب لاتسع أمام أعيننا أفق يترامى فى كل جانب . فما من خاطرة جالت فى عقل انسان إلا كان لها مجال فى عقله ، وكان له فيها رأى العارف المختبر إن لم يكن له فيها رأى المصيب المعصوم

ومعظم اخطائه هى أخطاء النظر المستريح الى جزء واحد ، لا أخطاء العاجز عن التأمل والاستبانة . أو هى اخطاء السائر الذى لم يبلغ أمده ولا يزال فى طريقه ، لا اخطاء المحجوب عن الحقيقة بعيدها وقريبها . وما شئت بعد هذا من رأى نافذ فى الأخلاق والعقائد والاجتماع وسرائر النفس والتاريخ والفن والامم والرجال : يهمه ما حوله ويشعر به ويستمرئه كأنه يتحفز لعمل له أوقاته ومحاولاته . ثم يلقى بالرأى كأنه يتنفس أو يؤدى وظيفة من وظائف حياته له بأدائها غبطة وارتياح ، لا كأنه ينهض بعبء أو يعالج مشقة مفروضة عليه ، وهذه هى الآراء التى تفيض بها كتبه وأحاديثه ويحتويها هو كلها ولا يتأتى لرأى منها أن يحتويه كل الاحتواء

خزانة الذكريات

بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقى

فى قرارة قلبي خزانة حافلة ، أحتفظ فيها بكل لحظة من تلك اللحظات المليئة الشائقة التى هي وحدها كل ما يحبينا نحن الفانين فى هذه الحياة

وأنا بهذه الخزانة غنى قانع . اذا صوحت من حوالى جنة الدنيا ، وتساقطت أوراق المنى مثل أوراق الخريف المصفرة ، فزويت عنها الطرف آســفاً وانطويت على نفسى مستوحشاً ، تفتحت مغاليق خزانتى وانفرج بابها رويداً رويداً من غير نأمة ولا صرير ، وتحركت دفائنها لعين خيالى كأنى فى حلم . فيتمثل لى ، بل يخامر حواسى منها ، طيف من أطياف الماضى الدفين ، طيف لحظة سعيدة أحالها القدم نورانية روحانية خالصة من كل كدر ، صافية من أدنى شائبة . كما يحيل تقادم العهد عصارة الـكرم فى الدنان والرواقيد خمراً شعشعانية ، تلطف روحها وتلطف فكأنما لم يبق منها غير اللون والعطر ، فأنعم — من جديد — بما نعمت به جوارحى من قبل ، ولـكنه فى هذه المرة نعيم كنعيم الخلد ، هو نعيم الخلد ، وهل يبقى من احساساتنا الماضية الدفينة غير عنصرها الباقى الخالد؟ اليوم يا خزانتى وقعت على كنز سينتهى حظه اليك . فافسحى له مكاناً بين أنفس كنوزك وذخائرك !

كنا الغداة فى ضيعة من قرى الريف ، وقد مد لنا مضيفنا الـكريم سماطا يكاد ينبخ بما فوقه من صنوف الطعام والشراب . فـكنا نقصف قصف المستهترين المترفين فى ولائم الرومان وقد علا صخبنا وضحكنا . وشغلنا الا لماماً عن تحف الطبيعة الرائعة يشرف عليها مقصفنا الصــاخب : ساحة من رمال ذهبية تناثرت عليها مضارب خيام للعرب الرحل ، فى خارج هذه الخيمة جمــل ضارب بجرانه ، وفى جانب تلك عنزة مشدودة بحبلها المتراخي الى وتد ، وفى داخل الخباء اعرابية مبرقعة وفى أذنيها حلق من فضة وفى أنفها شنف من مرجان ، وهي تدق البن أو تدير الرحى . ثم تحيط بساحة الرمل الدهبى حقول زمردية من المزارع الشاسعة النامية تتخللها بقاع عارية مخططة أخاديد أخاديد لم تخرج شطأها بعد ، ويخيم فوق الجميع أفق لازوردى ساطع لا تعكر صفوه غيمة واحدة عابرة

ولــكن كنا فى شغل عن المجالى الشعرية والمدركات النفسانية . كـنا نقصف قصف المستهترين المترفين فى ولائم الرومان

وانا بفتاة أعرابية أقبلت علينا في ازارها الاسود الضافي ، فما هو الا ان رفعت الينا طرفها الغضيض الكحيل حتى أحسسنا اننا انتشلنا من حياة دارجة عادية الى حياة أعلى ، الى حياة فوق مستوى حياتنا ، لا تسمع لنا لاغية . وفاضت الاحساسات الشعرية من داخل أنفسنا على الطبيعة التي كانت منذ هنيهة تبرج لنا سدى . أما الفتاة فجمالها فن فريد عجيب . وجهها تافه كاسف وشفتها السفلى متقلصة ممدودة ، مطرقة العينين مسبلة الاهداب دون ان يشفع فى ذلك حياء يضرج وجنتيها أو يثير الحياة فى أساريرها . ولكن . . آه تماسك يا قلبي ! رفعت الينا عينيها فانفتحت عوالم سحر وضياء ، سحر عميق لا يدرك كنهه ولا يحل عن المسحور طلسمه ، وضياء غريب يهتك الشغاف بارقه ويضل العقول هديه . وسطع وجه الفتاة بمعان تتجدد وتتولد وبمور مائرها وتتكاثر كالكتائب على فؤاد الناظر فتأخذه عنوة واقتحاماً فى هجمة واحدة ، وزها لون خديها فاذا حمرة خفيفة ترف عليهما كحواشى الاصيل مترقرقة هافية تخبو وتسطع وتطفو وترسب . وقد غمر جسدها من الفرع الى القدم حياء عذرى لمجرد اشتباك لحاظها بلحاظنا ، فجسدها العذرى يهتز من انتعاش ورى كالغصن المترعرع يستقبل الندى والنسيم

شجعنا حياء الفتاة على مكالمتها فى أدب ولطف ، فهى تختلج وتتعثر من الخجل ، وتبتسم فتستدير وجنتاها كالكمثرى الشهية ، وتبدو ثناياها كاللؤلؤ المنضود ، وتكاد شفتها الممدودة المفترة تقطر شهداً . ولكنها بعد كالهرة البرية تنفر من الملاطفة فتنتفش اساريرها وتكاد تخدش

والآن . . أزف الرحيل وانفرطت آخر الساعات الهنية التى حييتها فى هذه البرية المصغرة الى قرب فتاة نفور من أوابد ظبائه . فوداعا ! وداعاً يا ظبية الرمل التى ابتعثت فى جوارحى احساسات عداد حباته ، ونفثت فى روحى حرارة كحرارة رمضائه ، ولئن ودعتنى مشافهة واستحييت ان تودعينى مصافحة فان نظرتك ، آه نظرتك وابتسامتك كانتا أشجى وقعاً فى قلبى من المصافحة ، بل من القبلات والعناق

خزانة قلبى اليوم ما اغناك وما أسعدنى بك ! فافتحى لى مغاليقك كل مساء اسرح عين خيالى فى كنزك الجديد فيحيا فى نفسى شجوها الجديد القديم . وان شعارك هذا المنقوش من قديم بعمق على شغافك وفى قرارتك هو نفسه شعار (جوته) الحكيم مدى حياته المديدة :

لا تغيضى من عيونى أبداً   يا دموع الحب وابقى سرمدا
إن عيناً غاض منها دمعها   تبصر العالم جدباً فدفدا
لا تغيضى من عيونى أبداً   يا دموع الحب وابقى سرمدا

الفروسة

تاريخها، ومبادئها، ورسومها

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

إذا كان الاقطاع أساسا جوهريا لصرح النظم الاجتماعية والسياسية فى العصور الوسطى فان الفروسة أهم حجر فى صرح الاقطاع، بل لقد كانت دعامة الاقطاع تحكم بناءه وتربط أطرافه المتباينة، وتصل بين طبقاته الرفيعة والوضيعة. وكانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر فى بدء العصور الوسطى قبل أن تنتظم الفروسة وتزدهر، الحرية والرق، فكان من الناس أحرار وأرقاء. فلما اضمحل نظام الرق، ونما شأن الفروسة، كان أهم ظاهرة للتفريق بين البشر، النبل والمنبت العام، فكان من الناس فرسان أو نبلاء أو سادة، وكافة أو عامة. هذه الفروسة التى لبثت قرونا زهرة المجتمعات النصرانية والتى لعبت دورا عظيما فى الحروب الصليبية ترجع مبادئها ورسومها وتقاليدها الأولى الى أواخر القرن الثامن، أو أوائل القرن التاسع، ثم إلى نظم الاقطاع فى عهد النورمان، فنراها فى عصر شارلمان تتخذ صورة احتفال يزود فيه الفارس الفتى بالسلاح. والظاهر أنها كنظام حربى ترجع الى أقدم من ذلك، إذ يذكرها المؤرخ تاسيتوس فى حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ويصف رسومها. ولكن الفروسة كشرف عسكرى رفيع يمنح فى نوع من الرسوم الدينية، ترجع الى القرن الحادى عشر فقط. بيد أن الفروسة الاسلامية أقدم وأعرق، فهى ترجع إلى عصر الاسلام الاول فى القرن الأول للهجرة (القرن السابع الميلادى) ولكنها لم تكن نظاما دينيا أو سياسيا، بل كانت خلة وموهبة وكفاية، وكان لها أيضا نوع من الرسوم والتقاليد. ويفرد ابن قتيبة فى كتابه «عيون الاخبار» بابا للتحدث عن الفروسة وآدابها، ويورد عن أصولها ورسومها بعض الاقوال المأثورة. أما الفروسة النصرانية فلم تزدهر وتستكمل عناصر الاستقرار، وتغدو فوق صفتها الحربية نظاما سياسياً اجتماعياً يرجع إلى اصول ورسوم مقررة أدمجت فيها الحقوق والواجبات معاً، قبل القرن الحادى عشر

وقد كان النبل كما رأينا قاعدة الفروسة وخاصتها الأولى. وكان التفريق بين النبلاء والكافة فى مراحل الاقطاع الاولى غامضاً فى الغالب. ولكنه تقدم منذ أصبحت وراثة الضياع المقطوعة حقاً مقرراً. ثم غدا فى النهاية قاعدة لانتظام الناس فى طوائف قوية كانت أظهر عنصر فى مجتمع

العصور الوسطى . والنبل يتكون من عنصرين مختلفين : الاول وراثة الضيعة بما تحمل من تعهدات في أداء الوجبات الكبرى ، والثاني أهلية القتال على ظهر الجواد ، أو بعبارة أخرى الفروسة (Chevalerie) والصفة الثانية تحمل في ثنيتها فكرة الملك أيضاً ، فهي تتضمن القدرة على اقتناء العدد الغالية اللازمة لأداء واجبات الفارس . وقد كان امتزاج هذه الفكرة بفكرة الملكية العقارية وفكرة المنبت الحسن ، يمد الامير الاقطاعي بخدمات صفوة من المقاتلة . وكانت هذه الصفوة وأسرها أرقى عناصر الاشراف (الارستوقراطية) وأقوى الطوائف في مجتمع بربرى كمجتمع العصور الوسطى

وقد أفضى شرف المنبت الى تحول هذه الارستوقراطية الى طبقة بكل معاني الكلمة ، يتعذر على الكافة اقتحامها والاندماج في سلكها دون مصاعب ورسوم جمة . وكان من وسائل هذا الالتحاق أن يشترى الفرد العادى ضيعة تلحق بها صفة النبل (Terra Nobilis) أو يسبغ الملك أو أحد كبار النبلاء عليه صفة النبل هبة منه لخدمات أداها أو كفايات معينة عرف بها ، فتلحق عندئذ صفة النبل هذه بالارض التي يملكها وتنتقل الى عقبه بالارث . وواضح أن خلق النبلاء على هذا النحو كان وسيلة حسنة لاحاطة العرش بأشخاص يؤيدونه ويرعون مصالحه . وهذا العصر هو في الواقع فاتحة لنهوض الملكية وبروزها من اغلال الاقطاع ، وتبوء نظمها مركز الغلبة والسيادة على ما عداها من نظم السلطان والحكم . وكانت وراثة النبل تنحصر بادىء بدء في صف الذكور ، ولكن ميل العروش الى اتباع السياسة المتقدمة أفضى قبل بعيد الى منحها للاناث أيضاً ، وغدا ممكنا أن تهب الانثى صفة النبل لعقبها فيصبحوا فرساناً وسادة ونبلاء

ولما استقر النظام الاقطاعي وتحسنت موارد الارستوقراطية بتحسن الزراعة ، غدا الواجب الذى يقضى على الفارس باتباع الامير على نفقته الخاصة ، بالنسبة للسادة الاقطاعيين ، أرفع ضروب الشرف والكرامة . وكان الفارس اذا ارتدى عدده المنيعة الشاملة وتقلد سلاحه الذى يدججه من الرأس الى القدم ، وامتطى صهوة جواده الذى يغطيه الحديد والصلب مثله ، أضحى أهلا للقاء عشرات من العامة غير المسلحين ، فاذا اجتمع من هؤلاء الفرسان عدة استطاعوا أن يرهبوا المئات والالوف من أتباعهم ويلجئوهم الى الخضوع والطاعة . وواضح أن استفحال مثل هذه الخصومة بل وجودها كان يؤدى في كثير من الاحيان الى معارك دموية لا يعدم العامة فيها وسيلة للانتصاف لانفسهم من عسف الفرسان وجورهم . على أن ارتباط الحقوق بالواجبات بالنسبة للفريقين ، كان في ظروف الحياة العادية يدعم نظاما اجتماعياً كنظام الفروسة تنقصه جميع عناصر الاستقرار السياسى

وقد ندهش حينما نتأمل رسوم الفروسة وتقاليدها ، ويخيل لنا أنها رسوم إحدى الهيئات الدينية أو الجمعيات السرية الكبرى . والواقع أن هذه الرسوم التي يجب حوزها لنيل شرف الفروسة قديمة جداً ، وقد أشار اليها تاسيتوس كما قدمنا في حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ، وقد اتخذت منذ نشأة الفروسة صبغة من الروعة والجلال تكاد تدنو من القدسية . وخلاصة هذه الرسوم

هى أن المرشح للفروسة قبل أن يزود بالسيف والمهماز يجوز بعض التجارب والاختبارات، ويقضى أياما فى الصوم، ثم يمضى ليلة فى كنيسة عتيقة مظلمة يستسلم فيها الى التفكير والتأمل، وبعد ذلك يعطى السيف والمهماز، ويلطم على خده أو كتفه لطمة خفيفة اشارة الى آخر إساءة يسوغ له أن يغضى عنها . هذا ومع أن الفروسة نظام اجتماعى سياسى فانها لم تخل من الصبغة الدينية، بل كانت هذه الصبغة قوية فيها الى حد أن نظام الفروسة ذاته كان يشبه فيما يختص بالحقوق والواجبات بالهيئات الكهنوتية المقدسة . فالفارس المبتدىء يلزم بالاستحمام وارتداء السترة القصيرة، على نحو ما يقع فى إحياء التنصير . ويتسلم الفارس سيفه على هيكل الكنيسة من يد احد رجال الدين، ويسبق الاحتفال بقبوله كما قلنا صوم وابتهال، ثم ينادى فارساً باسم الله والقديس جورج والقديس ميخائيل . ويقسم الفارس بعد ذلك أن يؤدى واجبات مهنته — فقد كانت الفروسة مهنة كما رأيت — وليس من ضمان بوفائه سوى التربية والقدوة الحسنة وحكم الرأى العام . وخلاصة قسمه أن يقول الصدق وأن يؤيد الحق وأن يحمى المنكوب وأن يستعمل الرقة والمجاملة فى معاملاته وان يطارد اعداء الدين وان يحتقر مغريات الرفاهة والامن وان يتصف لشرفه فى اية مغامرة خطرة . وقد بلغت هذه الرسوم فى القرن الحادى عشر مكانة علية من الجلال والتقديس حتى كان واجباً على الملك ذاته لكى ينتظم فى سلك الفروسة ان يخدم البلاط وصيفا ثم سيداً مرشحا للفروسة ثم يمنح بعد ذلك المهماز الذهبى او رمز الفروسة

وكما كان للفروسة رسوم وعهود خاصة بها فكذلك كان للفروسة رياضات والعاب خاصة بها . وللفروسة فضل فى تطور هذه الرياضات والالعاب الارستوقراطية، فقد عدلت عن الالعاب الاولمبية القديمة حيث كانت تعرض المناظر العارية فتبعد العذارى والنسوة عن ارتيادها وتبعث الفساد والتهتك الى أخلاق الشبيبة، وآثرت عليها الالعاب الرزينة المحتشمة . وكانت المبارزة احب هذه الالعاب الى الفرسان والسادة، فكانت تعقد لها حفلات شائقة يهرع اليها الفرسان من كل صوب ويشهدها اشرف الكواعب والعقائل واجملهن . وقد تستغرق الحفلة يومين او اكثر وتجرى فيها المبارزات الفردية بين فارسين يتقاتلان بالرمح، وللظافر أن يغنم سلاح خصمه وجواده، وله فوق ذلك ان يسمى سيدة من الحاضرات تشرف على بقية المبارزات والالعاب وتسمى ملكة الحب والجمال، ومن ثم كانت فكرة الحب تقترن بكلمة الفروسة فى العصور الوسطى، وكان حب امراة يعنى فى نظر الفارس المتيم اجلال الجنس اللطيف كله . واحياناً كان الفارس يؤثر بتأمله عادة معينة وتكون علائقهما نقية افلاطونية فقط . وقد كان دور الفروسة فى هذا الشأن مستقى خصبا لآداب مستفيضة من قصص جميلة رائعة ونظم رقيق حماسى واناشيد وروايات شائقة لا حصر لها . هذا ولم تكن الفروسة تقف فى رياضاتها عند النزهة واللهو، بل كانت ايضاً تنظم معارك صغيرة وتقيم تمارين جدية من مهاجمة حصن والدفاع عنه الى غير ذلك

المهاجر

بقلم الاستاذ حليم دموس

هى القصيدة التى ربحت جائزة مستشفى ريز السنوية عام ١٩٢٧

هجر الروض وعاف الثمرَه ... وليالى أنسهِ المزدهره
ومضى يضرب فى آفاقها ... ولسان الدهر يروي خبره
ركب الأهوال سيراً وسرًى ... نادباً تلك الربوع النضره
وهو لا يدري أيقضي لهفاً ... أم من الدرهم يقضى وَطَرَه
يلتقيهِ بين أشواق الردى ... والردى يُنشب فيهِ ظفره

***

بحياتي هاجرٌ مغتربٌ ... غالب الدهرَ ولاقى عِبرَه
كان فى موطنهِ معرفةً ... وهو فى المهجر أمسى نكره
ألف الأسفار حتى راضها ... واستذلَّ البحْرَ حتى حيَّره
وهو في الفجر يناجى شمسهُ ... وهو في الليل يُناجي قمره
يحطم اليأس جناحيه كما ... تحطم الريح أصولاً نخره

***

قف على الشاطيءِ واشهد ساعةً ... موقف التوديع وارسم صوره

وانظر البحر فكم سارت بِهِ   سفنٌ في عرْضِهِ منتشره

تحمل القوم جموعاً وعلى   موجها أدمعهم منهمره

هجروا الأوطان في محنتها   لينجوا أمةً محتضره

بينما عقدهم منتظمٌ   إذ تراه درراً منتثره

* * *

ما انتفاع الأمِّ من أبنائها   إنْ تناءوا وهيَ عند المقبره

يرجع الليث إلى غابته   بعد أن يطوي الفيافي المقفره

وتغيب الطير عن أفراخها   لتوافيها بأشهى ثمره

ويصان الدرُّ في أصدافه   ثم يجلى كالدراري النيره

هكذا النازح عن أوطانه   يذكر الربع ويهوى أثره

* * *

رب أرضٍ حسبت حنظلةً   وهي لو تسقى لكانت سكَّرَه

وركازٍ تحت أطباق الثرى   بات في صدر الغواني جوهره

وبلادٍ لو حماها أهلها   لاستحالت أمةً مقتدرَه

* * *

أدر الدفَّة يا ربانها   فالحمى حنَّ إلى من هجره

قل لمن أثروا : أعينوا وطناً   يتعزى ببنيه البرره

أنتم الروح لجسم ناحلٍ   أنتم الماء لتلك الشجره

الطغاة وحرية القلم [1]

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

فى عصور الظلمة التى تمر بالامم آناً بعـد آن يعمد الباطشون البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة . وفى سبيل هذا التقييد يصلون أرباب الاقلام حربا لا رحمة ولا هوادة فيها ، فمن إرهاق إلى سجن ، إلى نفي وتشريد . وهم فى حربهم هذه يندفعون ضـد الكتاب كاشرة أنيابهم محمارة عيونهم مفتحة خياشيمهم ــ أشبه الاشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية . ولا يهدأ لهم من بعـد ذلك بال ولا يطمئن لهم خاطر إلا اذا اطمأنوا إلى انهم حطموا هاته الاقلام الى غير عوة لان تكتب وأذلوا نفوس حملتها إذلالا لاقومة لهم من بعده

هذه الغرائز المفترسة التى تهيج فى نفوس البغاة لحرب القلم وحملته ، لاتهيج فيهم لمحاربة أيةقوة أخرى من القوى بالغاً ما بلغ أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر بها صاحبها مايجول بخاطره وما يمليه عليه خياله أو يتسق لمنطقه . وكل ما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس من شاء فيتلو ما فيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها الى حيث شاء . والامر كذلك سواء كانت هذه الورقة جريدة أو مجلة أو كتاباً من أى صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه الورقة حولها من القوة التى يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذى يحشد ويسخر فى سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشانق وما هو أ كبر من ذلك من الوان الارهاب والارهاق ؟ وهل انتصر الظالمون يوما على القلم وأربابه ؟ أم كان للقلم النصر أبداً آخر الامر وباء مطاردوه بالخيبة والخذلان وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكرى واتعس الاثر ؟

اما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم فى ذلك كل العذر ، فحرية القلم هي المظهر الاسمى لحرية الانسان فى أسمى صورها ومظاهرها . وحرية القلم انما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لاعامل من عماله ، رب تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والانشاء مالا سبيل اليه إلا فى جو الحرية المطلقة ، وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقاولو وضع هو فى غيابات السجون ، بل تدفع ذكراه لخلق هذه الحرية اذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن مانزال نرى ثمرات الاقلام منذ آلاف السنين

(١) اخترناها من كتاب « ثورة الادب »

الماضية هي التى تهز العالم حتى اليوم هزاً وتنشئ فيه الى اليوم والى الابد ألواناً من الخلق جديدة . ذلك بأن القلم هو الاداة لتصوير النفس الانسانية فى التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الانسانية التى تلتمس هذه النواحي المضيئة من حياة الكون هي أبداً نفس قوية لا تقف فى وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها . نفس تحلق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذى تريد ايضاحه او الحرية التى تريد نشرها أو الجمال الذى تعالج تصويره ، أو الخير الذى تعمل لبثه وإذاعته . فاذا اهتدت الى ما ابتغت نفثت منه على القلم ما يسطره على الورق . وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محجوباً عنهم ضياؤه . ويرون أن هذا الضياء هو الذى يبعث لهم فى الحياة نوراً يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم . واذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه ، فان لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً

هذه القوة التى تنبعث من القلم على صحف الورق تنقلها الى الانسان هى أقوى وأبقى ما على الحياة من سلطان . هى قوة الايمان القائم بالنفس القوية متى امتلأت ايمانا فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هى هذه القوة الانسانية تصل بين الانسان وقوى الكون العليا وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكمن القوى المادية المضطربة التى يستند اليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى تكون هذه القوة المادية وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل ما فى الحديد والنار من بأس وهول الى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ أزل الكون الى أبده ! هذه القوة الروحية الكبيرة التى يصدر القلم عنها وتوحى هى اليه هى مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شيء فى الوجود . بل هى التى تشكل تلك القوة المادية التى تناوىء الروح وسلطانها لكى لايحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأى ضيا وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعاً إذا تجردت مما يحول دون انبعاثها فى العالم ولم يقف عائق فى سبيلها فلم تبطىء فى سيرها !

وكما أن حرية القلم هى وحى هذه القوى العليا فان الطغيان منشؤه أخس غرائز الانسان وأكثرها أنانية وانحطاطاً . فتش عن الطغاة فى التاريخ واستمع الى كل مايتشدقون به من الاقاويل والدعاوى وما يزعمونه من حبهم الخير لبنى الانسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ، تجدهم دائماً ينتهون الى هذه النتيجة : انما نطغى ببنى الانسان لانهم من غير طغياننا يضلون . هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هى الكمينة أبداً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره . وهي عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التى يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا ، والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا ، والطاغية يرى المزيد فى انتشار العلم ضراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم أو يضلوا ، والطاغية يعلم الناس كيف يمكرون وكيف يتكامون فان هم خالفوا تعاليمه ضلوا ، والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فان لم يصدرها ضلوا . والطاغية

يستمد الوحي في هذا كله من أحقر شهوات الأنانية التي يفرضها على الناس ويريد منهم أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فان لم يؤمنوا ولم يصدقوا حقت عليهم كلمة العذاب ولهم سوء الدار

هذا الضلال الذي يزعم الطاغية أنه يريد أنقاذ الانسانية منه، وهو أنما يرديهافيه لشهواته وأنانيته، قد تنوء به الانسانية زمناً يجثم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام ، فيمد للباغي في أسباب بغيه وهو ناشب في قلب الانسانية أظافره ما كثف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرق هذا الظلام شعاع من نور الحق . وللطغاة في تكثيف الظلام الذي ينشرون حولهم أساليب عجب . فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء اضدادها ليسخروا من الناس وليزيدوهم ظلماً . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء ، وكل الغاية التي تكلف هاته الطائفة بها إنما هي نشر الترهات وترويج الاباطيل ومحاربة العلم الصحيح بدعوى أنه السحر أو الكفر أو ماشاء لهم خيالهم المجرم . ويطلقون على طائفة اسم الكتاب ، وما هم بكتاب وانما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافا لسادتهم وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة الى الحق والى الحرية . هؤلاء ليسوا كتاباوانما هم كالكلاب تبصبص بذنبها لمن يلقى اليها بطعام أوبعظمة من العظام ، وتنبح من يطلقها عليه صاحبها لنبحه . وهؤلاء لن يكونوا كتابا ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أي اسم يتصل به ، لأن الكاتب تصدر عباراته عن قلبه وعن إيمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتابا يخلقون ما شاءوا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء اضدادها ، وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام الذي يعيشون ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة . فاذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعا من النور يبدد منه فله الويل وله النكال وله عذاب السعير

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التي يخلقها الطاغية ليعيش فيها، أنك ترى كل الوان التكريم والاعزاز في عهده تذهب الى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء والكتاب ومن اليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن ينالهم إكرام الجماعة في حياتهم أن تمتد كرامتهم الى ما بعد موتهم . أما هؤلاء فآخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم . في ذلك اليوم ينهال التراب على صحيفتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لذويهم من بعدهم ألا يذكرهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس لهذه الحجة ماينقض حرفا منها

واذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فان المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون في عصور الطغيان هم على الانسانية بلاء دائم وشر مستطير ، يفسدون الآداب والاخلاق ويعلمون الناس الكذب والنفاق وينزلون بأدب الكتابة الى أحط درجاته . وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه وان شاب الاعزاز احتقار ، ثم هم لن ينزل بهم حيف أو ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والادب واللغة أي

اذى . بل انك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الا كبار من بطانة الطاغية لأنهم يعتقدون فى الزلفى اليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق

على أن الظلم وان تكاثفت ، والمظالم وإن اشتدت ، والطاغية وإن استبد ، كل ذلك كان دائماً من أثره أن أثار شرارة الحرية والحق فهتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما ترى كم السحب حتى تحجب الشمس وتبعث على الارض من الظلمة ما تنقبض له النفس ثم اذا المطر يستنفد السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ماتلبث هذه الظلم المتكاثفة فى جو الطغيان حتى تبعث الى نفس ملهمة كلمة الحق ترتفع فى صيحة قوية خالصة . فاذا الظلم تضطرب قوائمه واذا الطاغية يكفهر وجهه وإذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقا على صاحب الصوت وعلى أنفسهم . ثم اذا الصوت يعلو ويعلو ويرتفع ويرتفع . واذا القلوب التى وجلت من قبل رعباً وخشية تتفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستشرة . ثم اذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة . ثم اذا النور نور الحرية والحق يعم الارجاء . واذا الظلم والظالمون والطغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحى القيوم

فى العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم . ليكن نصير الحرية والحق خطيباً أو كاتباً أو محدثاً . وليكن عالماً أو أديباً أو داعية دينياً . فهو يرسل بصيحته الضياء الى النفوس المشتاقة الى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة تنبعث حتى يتنبه الطغاة الى مصدرها ويقدرون خطرها . وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كى يخمد صوته ولا يمتد الى ظلماتهم التى خلقوا ضياؤه . لكنهم لم يستطيعوا فى حقب التاريخ جميعاً أن يخفتوا هـذا الصوت وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى فى روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والارهاب التى كان ينشرها حكام ذلك العصر ، ويعلى فى الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق . وكان الحكم فى روسيا قائماً على الاستبداد المطلق . مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد الى تولستوى ولا اجترأت على أن تغض منه . لان ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى من سلطان كل سلطان ، ولان الظلم الذى يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعانى يزيدها فى النفوس قوة وللظالمين مقتاً واحتقاراً

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الامثال . وأرباب الاقلام الذين اضطهدوا فى عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الاسباب فى ارتفاع كلمتهم وذيوع صوتهم ومحبتهم وحسن استماع الناس لهم وشديد ايمانهم بآرائهم . وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عذبوا فى سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم ، فاذا جاءت الى الاذهان أسماء الآخرين يوماً جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة . ذلك بأن الذين جاهدوا حب الانسانية قد نسوا أنفسهم فى الانسانية فأحلتهم الانسانية مكان الكرامة والاعزاز من قلبها

التسامح

بقلم الاستاذ أنطون بك الجميل

أي كتاباتك أحب اليك ؟

لا أجيب بما قاله الشاعر الفرنسي : « إن خير اشعاري ما تزال في خاطري لم أنظمها الى الآن »

ولا أقول ما قالته فاطمة بنت الخرشب ـ وهي احدى منجبات العرب ـ حينما سئلت : « أي بنيك أفضل ؟ » فاجابت : « الربيع . بل عمارة . بل انس . » ثم عادت فقالت : « ثكلتهم جميعاً ان كنت أدري أيهم أفضل ! »

لا أجيب بشيء من ذلك ، فان في ذلك بعض الادعاء ، وان كان فيه نصيب كبير من الحقيقة . ولكني لا أكتم أني في حيرة من أمري لتعيين ما أعده أحسن ما كتبت . وقد أعرب لي كثيرون من الزملاء ـ الذين القى اليهم محرر « الهلال » بمثل هذا السؤال الذي القى به الي ـ عن مثل هذه الحيرة . فانه يصعب على الكاتب أن يتخير أحب كتاباته الى نفسه وهي كلها من بنات افكاره . وتزداد هذه الصعوبة اذا كان الكاتب قد قضى مدة غير يسيرة في التحبير ، وكانت كتابته مشتتة في الصحف والمجلات . فليس في مكنته أن يجمعها ويراجعها في عرض عام لبفاضل بينها فيعلن أيها أحب الى قلبه

لذلك رأيت أن أخرج من حيرتي هذه باعتمادي على التوفيق والصدفة . فعمدت الى خزانة حوت الكثير من كتاباتي القديمة وأخذت بعض أوراق منها بلا فرز ولا تخير . فكانت نسخة من خطاب عن « التسامح » ألقيته منذ عدة سنوات في الاسكندرية ، وتفضلت يومئذ مجلة « الهلال » بنشره وبطبع مائة نسخة منه على حدة . فقلت : « هذا الذي أفضل ! » ولا أدري اهو الربيع ، أم عمارة ، أم انس ؟ وعلى كل فالتسامح فضيلة نحتاج اليها في كل زمان ومكان

وهذا هو الخطاب ملخصا ليتسق والنطاق المسموح به في هذه المجموعة :

☆☆☆

. . . . للتسامح أسماء شتى ومترادفات عديدة في نمس لفظها بيان واف لحقيقة مدلولها وتعريف لما تنطوي عليه من المعاني : فهو التساهل من السهل ضد الوعر أو الصعب ، وهو الملاينة من اللين

ضد الصلابة. وهو المياسرة من اليسر ضد العسر. وهو التسامح من السماحة. وهو المصانعة والهوادة والرفق والاناة والاغضاء. ففى جميع هذه الالفاظ بالنسبة الى الغير معنى عدم التشديد فى المعاملة والحكم. وبالنسبة الى المرء نفسه — على ماذكر علماء النفس عند العرب — معنى كظم الغيظ والاحتمال لما لا يراد. أو بعبارة أخرى التسامح هوتلك الفضيلة الاجتماعية التى تجعلنا نحتمل ونحترم عقائد الغير وآراءهم

ومن المعروف أن الناس ليسوا على رأى واحد ولا على عقيدة واحدة: فلكل منهم طريقة خاصة به فى النظر الى الامور وتصور الاشياء والحكم عليها، بل إن ما يرضى الواحد قد يسوء الآخر وما يستقبح اليوم قد يستملح غداً، وما يحب هنا قد يكره هناك. قال الامام على: «إن معروف زماننا هذا منكر زمان مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت». وقال لابروبير La Bruyére الكاتب الاخلاقى الشهير: «ما يعد حقيقة أمام جبال البيرينه يعد خطأ وراءها» فلا يحق اذاً لاحد فى معظم الاحوال أن يدعى احتكار الحقيقة وادراك كنه الامور دون سواه

فما دامت الحال كذلك أصبح التساهل أمراً واجباً. فقد يكون للواحد منا آراء دينية او فلسفية أو سياسية أعز على قلبه من كل عزيز بل قد يضحى فى سبيلها بماله وحياته. فله أن يطالب بحرية الدفاع عنها والاحتجاج على كل من يمتهنها. وما دام له التمتع بهذا الحق فليس له أن يأباه على الغير

فاذا ماطلبنا من الغير تسامحاً تحتم علينا أن نكون متسامحين: سنة العدل والانصاف بين الناس. ولا يحق لنا أن نلاقى غير الشدة اذا كنا متشددين

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

ولا يقضى التسامح باحترام آراء الغير فقط، بل يوجب غض الطرف عن هفواتهم والاغضاء عن سيئاتهم وعيوبهم

ذلك ان الانسان مجبول من طينة النقص والضعف. فأنى له أن يدرك الكمال المطلق أو يبلغ المثال الاعلى من السجايا والطباع «من ذا الذى ترضى سجاياه كلها؟» مهما كبح من جماح شهواته وشدد فى القبض على عنان أهوائه؟ فلو رجع كل منا الى نفسه وناقشها الحساب الدقيق لوجد ذاته أحوج الناس الى التساهل

ومع ذلك ومع وفرة ما رأينا للتساهل من الاسماء فما أقل المتساهلين! ومع كثرة الادعاء بالتسامح، ما أندر المتسامحين الحقيقيين! كل ينادى بالتساهل، وكل ينشد التسامح فيكلف الغير هذا الخلق ولا يكلف نفسه التحلى به

أتطلب صاحباً لاعيب فيـه وأنت لكل ما تهوى ركوب

واذا أنعمنا النظر فى حالة البشر من حيث وجدوا يعيشوا مجتمعين متآلفين، لا منفردين متقاطعين، نرى أن التسامح أشد الفضائل لزوماً وأوفرها فائدة، بل هو شرط الاجتماع وأس الاتحاد

وقوام التضامن ودعامة الوفاق والسلام بين الافراد وبين الجماعات : فلا تحيا جمعية بلا تساهل ، ولا تعيش أسرة بلا تساهل ، ولا تدوم علاقة بين فردين اثنين فقط — ولو كانا أخوين — بلا تساهل . واذا نظر كل منا الى علاقته بجمعيته أو بأسرته أو بصديقه أو اخيه ، يرى ان هذه العلاقة ما نشأت ولا ثبتت إلا بالتسامح المتبادل . ولو زالت روح التسامح من بين الناس تقوض ركن الاجتماع وعفت معالم العمران وضاع معنى التضامن والائتلاف ، فعاش البشر أفراداً متقاربين جسما متباعدين نفسا لا تقوم لهم مصلحة مشتركة كانت او مستقلة . فبالتساهل قيام المصالح الفردية كالمصالح العامة . فكلما نمت روح التسامح فى صدر الانسان زاد هناؤه وصفاؤه « فالرفق يمن والاناة سعادة » وكلما سادت هـذه الروح فى بلاد أو طائفة او جمعية او اسرة ، توافرت فيها اسباب الرقى والفلاح واتسعت خطاها الى ادراك غاياتها سياسية كانت أو اجتماعية ، ادبية او مادية

بل يا بعد ما يكون ادراك هذه الغايات بغير تسامح ! واذا ادرك الانسان ما يريد بالتشديد فانما ذلك الى اجل وسرعان ما يبوء بالفشل

كان الاضطهاد نصيب من يخالف المجموع فى عقيدته . وأى عقيدة لاقت ما لاقته النصرانية من المقاومة فلم يزدها ذلك الا نمواً ورسوخاً ! حتى كان الشيوخ والعذارى يسيرون الى العذاب مؤثرين الموت على جحد عقيدتهم . بل ربما كان الاضطهاد من أعظم عوامل انتشار الاديان والافكار . وعدم الفائدة من الاضطهاد ولد التساهل الدينى الذى لخصه أمير الشعراء بقوله :

الدين لله ما شاء الاله هـدى لكل نفس هوى فى الدين يعنيها

وفى حقيقة الامر ليس من إله أو انسان عاقل يرضى بانقياد أحد له انقياداً قهرياً قائماً على الاكراه

كان السيد المسيح إمام المتساهلين ونبراس المتسامحين ، فنهى عن كل عنف وشدة عامداً فى تعاليمه الى الارشاد بالاقناع والاستمالة بالبرهان . وعنه أخذ العلماء والفلاسفة أسمى مبادىء الرفق والتسامح : « من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر ! »

يقول الافرنج فى أمثالهم : « بدرهم عسل تمسك من الذباب اكثر مما تمسكه بقنطار خل » وقد دل الاستقراء ودلت حوادث التاريخ ، كما تدل اصول العلم البسيكولوجى على ان ما لا يدرك بالمشادة قد يدرك بالملاينة

تعرفون حكاية الريح والشمس وقد تراهنتا على أيهما تستطيع نزع الرداء عن كتف رجل كان مسافراً فى الجبل : هبت الريح عاصفة هوجاء ، زمهرت وزمجرت ، وتسربت فى طيات الرداء لتخلعه عن الرجل ، فما زاد الرجل الا تمسكا بردائه حرصاً عليه ووقاية لنفسه ، حتى عجزت الريح عن مطلبها وذهب مجهودها فى ادراجها . فقالت لها الشمس : « حسبك عناء ودعينى الآن أفعل ! » سكنت الريح وأرسلت الشمس أشعتها لطيفة منعشة . فأمن الرجل شر الهواء وسرى الدفء فى جسمه

فعمد الى ردائه وخلعه عنه بيده . فقالت الشمس للريح : « ها قد أدركت باللين مالم تدركيه بالعنف »

أجل قد يدرك بالرفق ما لايدرك بالشدة . فالماء على لينه يقطع الحجر الصلد ، ولكن ما لايدرك بالاقناع هيهات أن يدرك بالقوة . فالقوة قد تمكن صاحبها من الاجساد ولكن أنى لها ان تمكنه من النفوس ؟ والداء الكامن فى العقول لاتستأصله القوة وقد يستأصله اللين . فالاوهام فى الرءوس كالمسامير : كلما ضربت عليها بعنف زدتها رسوخاً فى موضعها . واذا شئت نزعها لا بد من معالجتها برفق حتى تتمكن من رءوسها فتجتذبها اليك وتقتلعها

كان معاوية مؤسس الدولة الاموية يقول : « عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة ، ولمن يطلبه بخرق وهو يقدر عليه برفق »

وقد كان معاوية هذا من أقدر الناس على ادراك أغراضه وقضاء حاجاته بالملاينةوالمياسرة حتى استتب له أمر الخلافة والدولة بعد أن كثر منازعوه

ومن حكاياته فى هذا الباب انه كان لعبد الله بن الزبير أرض وله عبيد يعملون فيها ، والى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون . فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله ، فكتب هذا كتابا الى معاوية يقول فيه :« أما بعد يامعاوية فان عبيدك قد دخلوا فى أرضى فانهم عن ذلك والا كان لى ولك شأن والسلام » فلما وقف معاوية على كتاب ابن الزبير . وقرأه دفعه الى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له معاوية :« ماترى ؟ » فقال : « أرى ان تبعث اليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه » فقال معاوية : « بل غير ذلك خير منه » ثم أخذ ورقة كتب فيها جواب كتاب عبد الله يقول فيه : « أمابعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى الرسول ، وساءنى ما ساءه والدنيا بأسرها هينة فى جنب رضاه . نزلت لك عن أرضى فاضفها الى أرضك بما فيها من العبيد والاموال ، والسلام » فلما وقف عبد الله ابن الزبير على كتاب معاوية كتب اليه : « قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل . والسلام » فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله قرأه ودفع به الى ابنه يزيد . فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له ابوه : « يا بنى من عفا ساد ، ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال اليه القلوب . فاذا ابتليت بشىء من هذه الادواء فداوه بمثل هذا الدواء »

أما التسامح الفكرى فلنا عليه مثال جميل فى حكاية ملك الفرس سابور بن أزدشير ، وكان قد ظهر على عهده مانى الزنديق ودعا الناس الى مذهبه ، فلما قبض عليه سابور أشار عليه نصحاء دولته بقتله فقال : « ان قتلته من غير أن أقطعه بالحجة قال الناس بقوله . ويقولون : ملك جبار قتل زاهداً . ولكنى اناظره بالحجة فاذا غلبته قتلته » وهكذا فعل

أدع لكم أيها الاخوان النظر فيما أعقبه تساهل معاوية من حمل أحد العصاة على الاقرار له بالخلافة وفيما انتجه تسامح سابور من القضاء على الزندقة فى ايامه . قابلوا بين هذه النتيجة التى أدركها هذا وذاك وما كان قد حصل من فتنة وشر مستطير لولا تسامحهم . . .

... أيها الاخوان! قد أطلت التبيين والارشاد، ومع ذلك لو اقتصرت على ماتقدم قد يحمل كلامي على غير محمله فأرمى بما أنا منه براء. فلا بد لى من بعض استدرا كات تحل الامور محلها راجياً أن تبدأوا بي باظهار تسامحكم وتساهلكم

إن تساهل الانسان مع الغير لا يفيد بتاتاً تساهله مع نفسه وترك الحبل لها على الغارب تتطوح فى اهوائها : ذلك مذهب الاباحيين وليس من التساهل فى شيء! فلا يكون التساهل حقيقياً إلا اذا شددنا على أنفسنا بما قد نتسامح به مع الغير : فاذا عذرت رفيقي لتقصيره فى خدمة قومه وبلاده مثلا يجب ألا أعرف لنفسى عذراً فى هذا التقصير. بل إن اشد الناس تسامحا مع الغير كانوا أكثر الناس تشديداً على أنفسهم فلم يغتفروا لها زلة

ولا يعنى اللين والتساهل المحاباة والخداع :

كالصل يظهر لينا عند ملمسه   حتى يصادف فى الاعضاء تمكينا

فان الصراحة أن يعتقد الانسان كل مايقول لا أن يقول كل ما يعتقد

وقد ضل أيضا من توهم أن تجاوز المرء عن شؤونه يفيد اغضاءه عن حقوق الغير : فحقوق الغير مقدسة لا يجوز التسامح بها. فلكل منا، إذا شاء، أن يغضى عن بعض حقوقه، ولكن ليس له أبداً أن يتساهل بحقوق صديقه أو عشيرته أو بلاده. قال رجل للمبرد : « أسمعنى رجل فى نفسى سوءاً فاحتملته، وأسمعنى فيك فاحتملته » فقال المبرد : « احتمالك فى نفسك حلم، واحتمالك فى صديقك غدر » وتزيد احتمالك فى بلادك خيانة شنعاء لا تغتفر. فالتسامح اذن حيث يجب التشديد مضر كالعنف حيث يجب اللين :

ووضع الندى فى موضع السيف فى العلى   مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقد قال فارس بنى عبس لعبلة :

اثنى على بما علمت فانني   سمح مخالقتى إذا لم أظلم

واذا ظلمت فان حلمى باسل   مر مذاقته كطعم العلقم

فالحلم لا ينفى البسالة. والتسامح لا ينفى المناضلة والجهاد دون المبدأ : فمن الحماقة أن نتصور التسامح عنوان الضعف ودليل الجبن والاحجام، بلهو فضيلة الانفس القوية الكبيرة. فتراه أشد نمواً فى صدور المتوقدين حماسة لمبدأهم منه فى صدور الفاترين : الرجل القوى فى عقيدته المتمكن من فكرته الثابت فى خطته، أوفر تساهلا من الرجل الضعيف الرأى المتزعزع الفكر الذى يحاول أن يستر ضعفه وتقلبه بتعصب أعمى وتشديد بلا معنى. يقول الفلاسفة إن ما جاوز حداً معلوما لا يكون فضيلة : فللفضائل حد من قصر عنه لا يكون فاضلا، وكذلك من تعداه. فالافراط كالتفريط كلاهما غير محمود. والفضيلة وسط بين رذيلتين. ولذلك قالوا : « خير الامور الوسط وحب التناهي غلط » فالشجاعة فضيلة بين رذيلتى الجبن والتهور. والكرم فضيلة بين البخل والتبذير.

والحياء وسط بين القحة والمهانة . والوقار سجية بين الهزل والـكبر

وكذلك التسامح . فهو اذا كان ينفى الصلابة والمشاكسة والمشادة لا يعنى الضعف والاستسلام والتراخى . والا فان ما نسميه تسامحا وتساهلا وأناة وهوادة وملاينة . ينقلب رياء وملقا ونفاقا وتدليسا ومداهنة . وبالاختصار تصير تلك الفضيلة الحميدة التى أطريناها رذيلة ذميمة يجب أن نشجبها . ومتى وصلت المجاملة بالانسان الى حد الخنوع والاستكانة فانها تعدل خيانته لنفسه

وأعيذكم من هذه المساهلة الدنيئة !

نحن وضعنا نصب أعيننا غاية شريفة نسعى اليها بكل قوانا دون وهن فى العزيمة ولا فتور فى الارادة . فاذا مادعوتـكم الى التسامح لم ادعكم الى التراخى فى الذودعن تلك الغـاية الوطنية والعقيدة القومية . بل أنا ما دعوتـكم الا الى التسامح المشتق من « سمح الرمح أى ثقفه حتى لان » وليان الرمح لايعنى ضعفه بل تقويته . فيلوى وينثنى دون أن يقصف أو يكسر

افتخرت السنديانة يوماً بصلابتها ففاخرتها القصبة باستلانتها . هبت العـاصفة فكسرت السنديانة أما القصبة فالتوت ولم تـكسر . ولما سكنت العاصفة كانت السنديانة ملقاة على الحضيض . وانتصبت القصبة رافعة رأسها

هكذا يجب أن ننحنى امام عواصف الزمان . واذا ما لقينا عقبة فى سبيلنا هل نحن فاعلون « كناطح صخرة يوما ليوهنها » ؟ لا أيها الاخوان . غير ذلك خير منه فى الاحوال التى نحن فيها

بل إن لنا أسوة بالنهر المتدفق من الجبل : هو ايضاً يسعى الى غاية ؟ غايته الانضمام الى البحر معشوقه . فيسير اليه بلا ملل . تارة هادئاً مترقرقا . وتارة مرغيا متدفقا . ولـكنه يسير دائما الى غرضه تحت جنح الظلام أو فى اضواء النهار . انظروا اليه وقد قامت فى وجهه ربوة . كيف يتجمع بحيرة فيقوى على تسلق الربوة والانحدار من أعلاها شلالا فخما . او كيف يدور حولها فيجعل منعطفه سواراً لها . راقبوه ايضا وقد لقى فى مجراه ثغرة فغار فيها . . تخيل الينا هنيهة ان الارض قد التهمته وذهبت به قبل ان يدرك غايته . ولـكن اصغوا : ان هديره الخفى ينبىء بوجوده وبدوام سيره حتى يخرج هناك فى السهل ، وقد مدته الجداول تحت الارض فزادت حجمه . ينبسط الآن على الشاطىء مرتاحا مطمئنا وتتدحرج أمواهه الى البحر . فيلاقيه البحر بأمواجه ، حتى تتسرب تلك فى طيت هذه ، ويتلاشى النهر وقد ادرك غايته فى صدر البحر . . !

هذا هو اللين الذى نريدكم عليه يا أنصار الاستقلال : التووا ولا تقصموا . انثنوا ولا تـكسروا . ذاكرين أن ألين النفوس أصلبها مكسراً . فاذا أردنا منكم لينا فمن غير ضعف . واذا دعت الحالة الى الشدة فمن غير عنف . نحن فى عصر سادت فيه العصبيات القومية واستيقظت النعرات الوطنية . فتعصبوا دون ان تتعصبوا ! واشتدوا دون أن تشددوا ! وتسامحوا دون ان تقعدوا . أما فى المبدأ فلا تنثنوا « حتى يلين لضرس الماضغ الحجر ! » . .

الحرب العظمى

بقلم الاستاذ احمد محرم

حماةَ الوغى أين السلام الموطَّدُ ؟ — وأين الوصايا ، والذمام المؤكَّدُ ؟
عهودٌ كتضليل الاماني ، وراءها — وعود ، كما طَار الهباء المبدَّدُ
اطالت عناء السيف والسيف مغمد — وطاحت به في الرَّوْع ، وهو مجرد
كأن الوغى ملهى ، كأن الردى هوى — كأنَّ الدَّمَ الجارى شرابٌ مبرَّد
كأن انين الهالكين مرَدَّدًا — أهازيج في أسماعِكمْ تتردَّد
كأنَّ بني حوَّاء تزجي جموعهمْ — إلى حَوْمَةِ الحرب ، النَّعام المطرَّد
كأنَّ كتابَ الله لغوٌ ، كأنكمْ — على النَّاس ، أربابٌ تطاع وتعبد
مَلأتمْ فجاجَ الأرضِ نارًا ، فلم تبت — من الخوْف إلاَّ وهي بالناس ميَّد
لئن كانَ متن الجوِّ بالحتفِ موقراً — فانَّ عبابَ البحر بالهوْل مزبد
أبيتم ، فما يُلقَى على الارض مهبطٌ — لناجٍ ، ولا يلفى إلى النَّجْم مصعد
أماناً حُماةَ السِّلْم لا تمسحوا الدُّنى — ولا تَذْبحوا عمرَانها ، وهو يولد
عَبثتم بآمال الشُّعوب ، فأبْغَضتْ — من العيش ما كانت تحبُّ وتحمد
لئن صحَّتِ الهُلاكُ من نَكد الرَّدَى — لعيشُ الالى لم يَطْعموا الهُلك انكد
فَواجع هالَ الأَمس واليومَ وقعها — وريع لها من قبل أن يولد الغد
تودّ الدَّرَارى الطالعات لو انَّها — محجَّبةٌ ممَّا تَرَاعى وتشهد
كأنَّ نجومَ السعد غضبى على الدُّنى — إذا ضمَّها يومٌ من النحس اسوَد
كأنَّ الدنى حمرًا وسوداً من الوغى — جَهنم تحمى للعصاة وتوقد
كأنَّ الأُلى صبوا على أهلها الرَّدى — زبانيةٌ ، منهم حديدٌ وجلمد

كأنّ الرّدى مرخي العنانين موغلاً أخو جنّةٍ ، او رَاحلٌ يتزوّد
وقائع ، لم يشهد لها الدّهر مرّةً شبابه تروى ، او نظائرَ تعهد
لئن كان هزلاً ماراًى الناس قبلها فتلك التى لا هزل فيها ولا دد

* * *

تفجرت النيران من كل قاذف بأرجائهـا واستجمع الدم يجمد
وطارت بها الارواح فوضى يضمُّها إلى الله (عزرائيل) والله يَرْصد
قذائف مِلء الجو ترمي رِجائها من الحتف ذى الأهوال رام مسدد
إذا ما ألمت بالحصون تطايرتْ ذرَاها العلى ، واندك منها الموطدُ
إذا جحدت تدْمير أُخْرى تهابها أتاها من التدْميرِ ما ليس يُجحد
إذا داهمتْها ، لم تفدها ضراعةً ولو خَرّ عاتيها على الارض يسجد
تحاول أسبابِ الفرار ، لعلهـا تغاث إذا طارت سراعاً وتُنجد
تَودُّ ارتياعاً لو حوتهـا حمـامةٌ وغيبهـا تحت الجنـاحين هُدهد
وقد ملك الآفاق نَسرٌ مُحلقٌ يطوف بأكناف السهى يتصيد

* * *

وأُخرَى[1] إذا زاغ الردى عن سبيله وطاحَ به ليلٌ من الشك أربد
أضاءت له سوْدَ الغياهب ، وانبرتْ على البعد ، تهديه السبيل ، وترشد
إذا ما تَردتْ بالسلاحِ كتيبةٌ تكشف من سوْآتهـا المتغمد
وان أجمعت أُخرى صدوداً عن الوغى أتتها خيالات الوغى تتودد
تنبهُ منْ لوعاتها ، وهي هجدٌ وتبعث من روعاتها ، وهي همَّدُ
تود من السهْدِ المبرّح أنها حواه من المأثورة البيضِ مرقد
وَيشتاق عانيها منَ الامنِ نهلةً ولو أنَّ أطراف الأسنةِ موْرِد

---

(١) الانوار الكشافة

اطو خريطتها !

اوربا وباريز يوم نشوب الحرب العظمى

بقلم الاستاذ سليم عبد الأحد

درستها منذ صباى فعرفت حدودها من البحر إلى البحر ، ومن الشرق إلى الغرب . وكنت أتصورها دائماً رمزاً الى الجمال فلا يتمثل لى فى حدائقها غير البنفسج ، ولا فى فضائهـا غير البلابل . وقد أصبحت اليوم « بركاناً » هائلا يتقيأ حمما تذهب بجمال الطبيعة الفتانة

كذلك شاء الانسان . يهدم فى ساعة واحدة ما بناه آباؤه فى مئات من الاعوام . يحمل سيفاً بيمينه ومعولا بيساره يقطع بذلك ويضرب بهذا . يقول حسناً أن ابنى ، وأحسن منه ان اهدم

بهذا سوف يشهد التاريخ . ان ابناء المائة العشرين لم يبقوا شيئاً لابناء العصور المظلمة ، وان اله الحرب وضع احدى قدميه على ضفاف الرين والاخرى على شواطىء الفرات ثم أخذ يعمل معوله فى قصر السلام . هذه « ريمس » و « لوفان » و « لياج » قد ضاعت مواقعها على الخريطة . يقف السائح على اطلالها ويسأل أين كانت مرابع مدنيتها ، ويلتمس العصفور مكاناً يبنى فيه عشه ، ونسور الجو تحوم فوق قبور كانت بالامس قصوراً

ماعهدى باوربا انها قبر لمدنية القرن العشرين . قد هدم المدفع قصورها وحصد السيف رقاب بنيها ، فبئست مدنية النار والحديد . قد أصبحت مطمع الطامعين . كذلك الطير الذهبى اللون فانه مطمح أنظار الصياد

سلمت قصورك يابلاد الجمال . تحميك أسوار من قلوب ومن حديد . فكيف تطوى خريطتك من الوجود ؟ بل بئس ما أنت فيه . أين جمالك الساحر وحسنك الفتان ؟ أنت الآن سكرى برائحة الدماء . غداً تستيقظين من حلمك الرائع فتجدين حولك انقاضاً بالية وطلولا دارسة

بل غداً يرسمونك من جديد ، يزرعون اشلاء بنيك فى تربتك الصالحة فينبعث منهـم جيل احرص على السلم ، وتنسى الثكلى أولادها الراحلين . يرجع العصفور إلى عشه ، والبلبل إلى ايكه ، والرين إلى صفائه . ترسب اشلاء القتلى فى قعر الانهار ، ويصنع الحوت ولمية تذكرها أجياله من بعده ، وينسى الاحداث جغرافية أوربا ، لان السيف قد مزق خريطتها القديمة ورسم لها خريطة جديدة ،

وسينقش التاريخ على صروح الرين : « هنا آثار مدنية غابرة » وعلى ضفاف الدانوب : « هنا كانت مملكة الرجل المريض » (١) هو ذا الاكفان معدة . فى أوربا اليوم مليونا أرملة وثكلى . قد اتشحن بالسواد ، ولكن وراء دموعهن عهد فرح وسلام لان فلذات أكبادهن انما دفنوا فى قبور المجد ، وذكرهم على السنة الاحياء . وستشاد على بقاياهم مملكة السلام الجديدة

هنيئاً لهم فقد حرروا العالم من نير ثقيل . سينقش التاريخ ذكرهم بأحرف من ذهب ويجعل أعمالهم اقاصيص تلقيها المرضعات على الأطفال . يتغنين بها لينام الطفل ويحلم أحلامه المبهجة

سلام على خريطة مزقها السيف . سلام على قصاصة سوف تضم الى سجلات الخلود

فارقت باريز منذ ثلاث سنوات ثم عدت اليها فوجدتها اجد شباباً وأكثر نشاطاً . كذلك النسر فى شيخوخته يتجدد صباه . وهل تعرف باريز هرما وهل يعبث الزمان بجمالها ؟

سل مافيها من دور وقصور . ألم تضم بين جدرانها رهطا من حملة التيجان الذين كانت الارض تميد تحت أقدامهم ؟ لقد انطوى عهدهم ولباريز كل يوم عهود

ويح باريز مهبط النور والجمال ــ مدينة السحر والالحاد ــ تزينها الكنائس المزخرفة مصب الذهب واللجين ــ يموت أولادها جياعا . . متى كانت باريز غير نسخة من الجحيم ؟

اذا عطشت سقاها « السين » واذا جاعت ألقمها بنوها النضار . لها معدة تهضم التبر . هي بالوعة قد رسبت فيها أقذار بابل ونينوى . . ويح جمالها الشنيع ، وتقواها الآثمة ، وأغنيائها المعوزين

قالوا ان لباريز نظيرات فى الجمال ، كذبوا ، ماللسماء شمسان ، ولا لليل قمران

أزل باريز عن الخريطة . ما الذى يبقى من العالم غير اطلال بالية ؟

أمح اسمها من بطون الاسفار ؟ ما الذى يبقى من شعر « هوفو » وغزل « لامارتين » ؟

تأملتها فى ظلمتها الدامسة وقد ساد عليها السكوت وهجعت فى ابراجها النسور . رأيت السين ينساب بين شاهقاتها وقد خفت خريره وطفئت المصابيح على ضفتيه ، لان باريز الجميلة مثقلة باعباء الهجوم . . متى كانت باريز مدينة السكوت ؟

اتصورها عابسة مظلمة ولم أعتد أن أرى على ثغرها غير الابتسام ولا شهدت فى بنيها غير السرور . فما أطول ليلها الدامس ! انه ابدية مملة . والابدية تفغر فاها وتتثاءب لتبلع أولادها البائسين

أتزولين وتبقى انقاض الهمجية ؟ أتندثرين وتبقى أطلال التوحش ؟ ماالذى يبقى من العالم اذا أزالوا اسمك عن الخريطة ؟ وعلى من بعدك تنثر الشمس التبر من أشعتها الذهبية ؟

ليس ما يلهيني عن ذكرك الطيب . كل تذكاراتك طيب تطيب به النفوس . لتكن كل أيامك أعيادا ياباريز . ليخز الغريب الناقم عليك ولينتشر فى ربوعك السلام . ان كنت اليوم صامتة وعداً تتكلمين . غداً يراك العالم اكمل بهاء وأتم اشراقا

---

(١) لقب النمسا قبل الحرب

فرعونيون وعرب

بقلم الاستاذ احمد حسن الزيات

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حربا من غير جند ! !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل فى الدجاجة والبيضة أيتهما أصل الاخرى : فقاله على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟ !

نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمة النفوس وأعنة الاهواء ، يقول لهـا كونى فرعونية فتكون ! أو كونى عربية فتكون ! ثم اشتهر بالرأى الفرعونى اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام . فسطوه فى المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه فى المحادثات ، حتى خال بنو الاعمام فى العراق والشام أن الامر جد ، وان الفكرة عقيدة ، وان ثلاثة من الكتاب أمة . وان مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ! . .

مهلا بنى قومنا لاتعتدوا بشهوة الجدل على الحق . ورويداً بنى عمنا لاتسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ! إن الأصول والانساب عرضة للزمن والطبيعة : تواشج بينها القرون ، وتفعل فيها الاجواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة . فاذا قلنا فلان عربى أو فرنسى أو تركى فانما نعنى بهذه النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب ، كاللغة والادب والأخلاق والهوى والدين . فبديع الزمان عربى وأصله فارسى ، وروسو فرنسى وأصله سويسرى ، والامير فلان تركى وأصله مصرى ، لان كلا من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءاً من شعبه ، ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه . . فبأى شىء من هذا يتمارى إخواننا الجدليون وهم لو كشفوا فى انفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام لرأوا الروح العربية تشرق فى قلوبهم دينا ، وتسرى فى دمائهم أدبا ، وتجرى على ألسنتهم لغة ، وتفيض فى عواطفهم كرامة

لانريد أن نحاجهم بما قرره المحدثون من العلماء من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج ينقطع فيه النفس ولا ينقطع به الجدل . . . وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرنا وثلث من التاريخ العربى ، نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الصاحية سوابغ الظلال .. وذلك هو ماضى مصر الحى الذى يصيح فى الدم ، ويثور

في الاعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأس شامخ الذرى عزيز الدعائم

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد الزمان من مصر ، هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الاموات » وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجماوات ، وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الارض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضي الابعد الذي تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة تصور بالوانه وتشدو بألحانه وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لاتنتقل الى الاعقاب الا في نتاج العقول والقرائح ، فهل كشفتم بجانب الهيا كل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفين فنيت روحه مع الآلهة وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ؟

لاتستطيع مصر الاسلامية الا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربي ، لانها لاتجد مدداً لحيويتها ولا سدا لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها الا في رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ، ولفنها لونه فذلك قانون الطبيعة ولا شأن لنا ولا ليعرب فيه : لان الفنون ملا كها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس . والحس موضوعه البيئة والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر . فاذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة . ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاته (اللون المحلي) وهو شرط لصدق الاسلوب وسلامة الصورة . وقديماً كان لون الادب في الحجاز غيره في نجد وفي العراق غيره في الشام وفي مصر غيره في الاندلس . دون أن يسبق هذا التغاير دعوة ولا أن يلحق به أثر

انشروا ماضمنت القبور من رفات الفراعين . واستقطروا من الصخور الصلاب اخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقى في يديه من أكفان الماضي الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادي وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمرو . وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر . وان القيثار الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرىء القيس . وان آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذى العالم هي أدعى الى الفخر وأبقى على الدهر

انما تتفاضل الامم بما قدمت للخليقة من خير وتتفاوت الاعمال بما أجدت على الانسان من نفع . أليس (الخزان) خيراً من الكرنك والازهر أفضل من الاهرام . ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟ ـــ وبعد فان ثقافتنا الحديثة انما تقوم في روحها على الاسلام والمسيحية . وفي أدبها على الادب العربية والغربية . وفي علمها على القرائح الاوربية الخالصة . أما ثقافة (بردى) فليس يربطها بعصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالاقباط

مقياس الرقى (١)

للاستاذ احمد امين

سألني أديب سوري ، بمناسبة مقال كتبته عنوانه « المسلمون أمس واليوم »
بم تعد أمة أرقى من أمة ، وما العوامل التى تحسبها ونقيس بها الرقى ؟ وفى الامة الواحدة ـ إذا سئلنا أ كانت بالامس خيراً منها اليوم ، أم هي اليوم خـير منها أمس . فأى النواحى نرعاها عند النظر ؟ والحق أنها أسئلة فى منتهى الصعوبة ، يحار المجيب عنها أى العوامل يحسب وأيها يترك ، وأيها له قيمة كبيرة الأثر وأيها ضعيف الأثر ؟

قد يجيب مجيب اجابة سهلة من طرف اللسان فيقول : « مقياس الرقي فى الامم الاخلاق » فأرقى الامم أحسنها خلقاً ، ولـكن هذه الاجابة لاتقنع ، فالاخلاق متغيرة ، وكل عصر له أخلاق يتطلبها وواجبات ينشدها ، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجدادنا منها . أصبح واجباً علينا أن نعلم أولادنا فى المدارس ، وما كان ذلك واجبا من قبل انما كان تبرعا من الاب . وأصبح واجباً علينا ترقية الوطن من جهات متعددة ، وما كان ذلك واجبا من قبل وان كان واجبا فواجب غامض ليس محدود المعنى ولا معين الاتجاه . وكان آباؤنا يعدون من ارقى الاخلاق فى الامة حجاب نسائها وبناء سور متين بين الرجل والمرأة ، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرأة كما يتعلم الرجل . ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل . فاذا قلنا مقياس الرقى الاخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شيء ولا تدل على شيء

وقوم يقيسون الرقي بالدين وهى كذلك كلمة عامة يختلف مدلولها باختلاف أنظار الناس ، فيضيق عند بعض الناس حتى لايسع إلا الصلاة والصوم والزكاة والحج ،ويتسع عند بعضهم حتى يشمل كل شيء

وفى الحق أن هناك مناحى للحياة مختلفة متعددة يجب أن ينظر اليها كلها لتقويم الرقي ــ فهى كل أمة مجموعة من المرافق . يعد كل مرفق منها كالخليـة فى الجسم الحى : من حكومة وتعليم ولغة ودين وأسرة ونظام اقتصادى ونحو ذلك . كلها تتغير وكلها ترقى أو تنحط . وكلها فى حركة مستمرة دائماً اما الى الامام واما الى الخلف . وكلها تتفاعل تفاعلا قويا ، يؤثر قويها فى ضعيفها وضعيفها فى قويها ــ وهذا التغير الدائم فى كل هذه المرافق هو مقياس الرقي والانحطاط . فان كان تغيراً الى سمو فرقى وان كان تغيراً الى تدهور فانحطاط

---

(١) اخترناها له . . .

وحسبان هذا ليس بالأمر اليسير . فقد تتدهور بعض المرافق لاسباب خاصة وتسمو بعض المرافق لاسباب كذلك . ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة فينشأ من ذلك عملية حسابية من أصعب المسائل حلا . والمثل الأعلى للامة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدى عمله خير اداء ويتنقل فى سمو أبدا ، وان يكون سيره ورقيه فى حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية ، لا يطفر عنها ولا يقعد بها — فالامة التى تختار أحسن النظم فى التربية والتعليم ولا تساعدها اللغة على المصطلحات الحديثة لا ترقى فى التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية . والامة التى تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية ثم لا يعينها على ذلك حالة الاسر الاخلاقية وحالة المعاملات بين الافراد ، لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية . والامة التى تسن أرقى أنواع الاصلاحات الاجتماعية ثم لا تعينها الناحية الاقتصادية تصبح اصلاحاتها تسر القارىء ولا تسر الناظر . وهكذا

وهناك دلائل قوية تدل الباحث على رقي الامة وتدهورها وسيرها الى الامام او الخلف . اما بمقارنتها بغيرها من الامم فى نواح معينة أو بمقارنتها بنفسها فى عصرها الحاضر وعصرها السابق . والمقارنة الاولى تدلنا على الدرجة التى تقف عليها الامة فى سلم الرقي العام . والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها : الى فوق أو تحت

من أهم هذه الدلائل تعرف موقف الامة ازاء ما يحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية : هل هذا الجيل أحسن استخداماً لبيئته وما يحيط به ؟ هل استطاع أن يوجد منابع لثروته وسعادته أكثر مما استطاع أسلافه ؟ هل استخدم المنابع القديمة خيراً مما استخدمها آباؤه ؟ هل كان فى حله لما يعرض له من المشاكل الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقاً ؟ لما عرضت هذه المصاعب أو أمثالها لنا ولآبائنا كيف حلوها وكيف حللناها ، وما منهجهم فى الحل وما منهجنا ؟ ما مقدار تضامن الافراد يومذاك فى التغلب عليها ، وما مقدار تضامننا اليوم ؟ لكل أمة مقدار من الثروة ، فهل زادت ؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بثروتها أكثر مما كانت تسعد بها من قبل ؟ هل استخدمت العلم أحسن مما استخدمه آباؤها . فقلت الوفيات وتحسنت صحتها ، وجمل منظرها ، ونظفت عيشتها ، وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والادب ؟ أظن ان هذه الاسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكن الاجابة عليها عسيرة ، وبذلك نستعين على تعيين مقدار الرقى

ومن ناحية أخرى ، ربما عد من أكبر دلائل الرقي فى الامة « تذليل العقبات أمام الكفايات » وخير الامم من أفسحت السبيل أمام افرادها ليرقوا كما يشاءون حسب استعدادهم وجدهم ، فى التعلم ، فى الوظائف ، فى النواحى السياسية والاجتماعية — وقد قطعت الامم المتمدنة فى ذلك خطوات واسعة فازالت احتكار الارستقراطية للمناصب العليا ، وسهلت وسائل التعلم من شاء ، واعتمدت فى تقدير الاشخاص على مزاياهم لا على بيتهم — الى درجة كبيرة — وحاربت « المحسوبية » والنزعات الارستقراطية

وقضت على النظام الاقطاعى الذى يميز بين الطبقات ويضع حداً فاصلا بينها لا يمكن تخطيه ، ووضعت النظم الاقتصادية الحديثة ، وفيها يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه ان يصل إلى ما يستطيع من رقى — وان كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية فى ذلك ، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات طويلة يجب ان يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته وبلوغ شأوه

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقى النظرإلى ثروة الامة ومقدار مايصرف منها على « الصالح العام » من مدارس ومصانع ومساجد ومتنزهات وحدائق وماء وانارة ونحو ذلك . ولست أعنى النظر الى كمية ما يصرف فحسب ، ولكن أعنى أيضا كيفية الصرف ، وهل انفق هذا القدر فى احسن السبل وهل هنالك وجه آخر خير منه ؟ . كذلك لست أعنى ما ينفق فى ذلك من ميزانية الحكومة فقط ، ولكن أعنى أيضاً مقدار شعور الافراد فى هذا الباب ومقدار مايتبرعون به من أموالهم لهذا الصالح العام ، فليست ثروة الامة مقصورة على ميزانية الحكومة ولكنها تشمل ثروة الافراد « وفى أموالهم حق معلوم « للسائل والمحروم » فالامة التى لا يشعر أغنياؤها بواجب فى أموالهم لفقرائها ، أو يشعرون شعوراً ضعيفاً لا يقوى على استخراج المال من جيوبهم ، أمة منحطة إذا قيست بغيرها من الامم التى كثرت فيها المدارس والاندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها

ومما يتصل بهذا الامر ، النظر فى ميزانية الاسر فى الامة وكيف تنفق ، فامة خير من أمة اذا عرفت أسرها كيف توازن بين دخلها وخرجها ، وكيف تفرق بين الضرورى والكمالى وما ليس بضرورى ولا كمالى ، ولم تسمح لنفسها أن تصرف فى الكمالى حتى تستوفى الضرورى ، ولا فى غير الضرورى والكمالى حتى تستوفى الكمالى ، فذلك — من غير شك — يجعل الاسر أسعد حالا ، وأهدأ بالا ، واكثر استعداداً للرقى ، وهل الامة الا مجموعة من الاسر ؟ وهل رقى الامة الا حاصل جمع رقى الاسر ؟ وكما أن أسرة قد تكون أسعد من أسرة مع أن دخلها أقل وثروتها أضعف ، ولكن عقلها أكبر ، وتصريفها لمالها أدق ، فكذلك الامم ليس خيرها أغناها ، ولكن خيرها من عرفت كيف تستخدم ما لها وأحاطت ماتملك بوسائل اجتماعية ، وكمية كبيرة من الاصلاح تجعل مالها يتضاعف فى القيمة وان لم يتضاعف فى العدد — فكم من أمة لها ثروة كبيرة طبيعية ولكن لم تعرف كيف تستخدمها ولا جزءاً منها ، ولو حلت محلها أمة أخرى لصيرت صحراءها بستاناً وجبالها جناناً ، ولجعلت ترابها ذهباً وأرضها عجباً . ومن أجل هذا لم يخطىء كثيراً من حصر مقياس رقى الامة فى مقدار تغلبها على طبيعة بلادها وتعديل نفسها حسب ما يحيط بها — لانها لا تصل الى ذلك الا بمقدار كبير من العلوم الطبيعية يمكنها من الانتفاع بارضها وجوها ، وبقدر وافر من العلوم الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها ، وبمقدار صالح من النظم السياسية والاجتماعية والاخلاقية يهيء للافراد سبل الانتفاع بما حولهم ويعدهم خير اعداد للنظر فى مصالحهم

فليتساءل الشرقى فى ضوء هذا : أين هو فى نفسه ، وأين هو فى أمته ، وأين أمته فى العالم ؟

عـــــظيم ...[1]

بقلم الدكتور طه حسين

كان حازماً إذا قال أو فعل ، وكان عازماً اذا هم أو مضى ، وكان أبياً اذا سيم الضيم ، عصياً اذا دعى الى الخسف ، عزيزاً اذا أريد على الهوان ، جمع الله له قلباً زكياً ، وأنفاً حمياً ، وضميراً نقياً وخلقاً رضياً

ولساناً صيرفياً صارماً كحسام السيف ما مس قطع

ثم رماه بالاحداث والخطوب فلم تلن قناته ، ولا فلت شباته ، ولا صدعت صفاته ، ولا صرفته عما رسم لنفسه من طريق ، ثم رمى به الاحداث والخطوب ، فلم تثبت له . وانما ولت عنه نافرة . وانهزمت أمامه ممعنة فى الفرار . وليست الخطوب التى تعترض عظماء الرجال شراً كلهـا . وليست الخطوب التى تتاح لعظماء الرجال خيراً كلها . فهذه النعمة السابغة التى يتمها الله على الرجل العظيم نوع من أنواع المحنة وضرب من ضروب الفتنة ، لانها خليقة أن تغريه بالاشر والبطر ، وتزين له الكسل والفتور . وهذه النقمة القائمة التى يمتحن الله بها الرجل العظيم نوع من أنواع المحنة وضرب من ضروب التشجيع ولون من الوان التمحيص ، خليقة أن تعوده احتمال المكروه والصبر للنوائب والتفوق فى مصارعة الاحداث . وقد ابتلى سعد بالنعم السابغة فلم تفسد عليه من امره شيئاً ، وابتلى سعد بالنقم الملحة فلم تفل له حداً ، ولم تضعف له عزماً ، ولم تجعل لليأس الى نفسه العظيمة سبيلا

أجمع المصريون على حبه وإكباره ابان الثورة لانه كان زعيم صفوتهم وقائد خلاصتهم الى مثلها الأعلى من الحرية والكرامة ومن العزة والاستقلال . اليه آوى قاسم حين كتب تحرير المرأة فتنكر له الدهر وأهله ، وبه لاذ محمد عبده واصدقاؤه القليلون الذين كانوا يمثلون فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن آمال مصر ومثلها العليا فى الحياة الكريمة الراقية

وأجمع المصريون على حبه واكباره ابان الثورة لانه كان يقود الشعب كله الى هذا الامل العزيز الذى كان مقصوراً قبل الحرب على الخلاصة والصفوة ثم شاع بعد الحرب فى الناس جميعاً

ثم اختلف المصريون فيه بعد الثورة فسلمت له كثرتهم الضخمة وعددهم الرائع . ونهضت له جماعة منهم تقاومه وتخاصمه ، وتحاوره وتساوره ما وسعتها المقاومة والمخاصمة . وما أطاقت المحاورة والمساورة . وأغريت به أقوى أمم الارض وأشدها بأساً وبطشاً واعظمها حولاً وطولاً وأوسعها

(١) اخترناها له . وقد نشرت في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٣

سلطانا وملكا . نفته ثم ردته ثم ضاقت به فابعدته ثم عجزت عن اسره فاطلقته . وظل هو طول حياته باسما للنعمة باسما للنقمة لا تدفعه تلك الى أشر ولا بطر ، ولا تضطره هذه الى ضعف ولا خور . وظل طول جهاده ثابتا لخصومه من مواطنيه ساخراً بهذه الكوارث التى كان يسلطها عليه اعداؤه من الاجانب حتى أعيا أولئك وهؤلاء جميعا

واذا أولئك يقبلون عليه ويضعون أيديهم فى يده ويؤمنون له بالزعامة والتقدمة ويتعاونون معه على البر والمعروف . واذا هؤلاء يسعون اليه ويعترفون له بالسلطان على نفس الشعب المصرى وقلبه ويسجلون ان ليس لهم الى ارضاء هذا الشعب سبيل الا أن يرضوا هذا الرجل ،ولا الى الاتفاق مع هذا الشعب سبب إلا أن يتفقوا مع هــذا الرجل . واذا هو يقضى الشطر الأخير من حياته العظيمة وقد سلم له اجماع الشعب كله على حبه وا كباره لم يشذ منه أحد ولم يند منه انسان ، واذا هو قد قهر عدواً عنيفا وخصما عنيداً . كان ما يزال ممثلا بأعظم انتصار عرفه التاريخ فى اعظم حرب عرفها التاريخ

ثم يقضى هذا الرجل العظيم فتبكيه مصر كلها لانها فقدت اعظم ابنائها لافى عصرها الحديث ولا فى عصورها الوسطى بل منذفقدت استقلالها فى التاريخ القديم.ويأسى لفقده الانجليز الذين خاصموه وقاوموه وضاقوا به وسلطوا عليه ألوان الكيد وفنون العذاب لانهم فقدوا خصما كريماً قد كان يوشك أن يكون لهم صديقاً حميا ، وأن يجعل لهم من الشعب المصرى صديقاً حميا أيضاً

وكذلك ابتسم الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى ابتسام الدهر عظيما ، وعبس الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى عبوس الدهر عظيما . وكذلك عرف هذا الرجل كيف يكون كريماً فى المسالمة كريما فى المخاصمة كريماً فى الجهاد كريماً فى الهدنة ، وكيف يذوق البغض كأشد ما يكون فلا يفسده البغض ، وكيف يذوق الحب كاحسن ما يكون فلا يبطره الحب ، وكيف ينصرف عن هذه الحياة وقدملأ قلوب الاحياء ، وكيف تمضى الايام والشهور والاعوام على موته فلا تنقص من مكانه فى القلوب بل تزيده ولا تضعف من سلطانه على النفوس بل تقويه ولا تغرى بذكره النسيان بل تذوده عنه وتجعل شخصه ماثلا دائما أمام الشعب المصرى ، وامام الشعوب الشرقية كلها تلتمس عنده الاسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، وتتعلم من سيرته الصبر على المحن والفتن ، والجد فى الذود عن الوطن والازدراء لكيد الاعداء والثبات لمكر الخصوم

انما الرجل العظيم كتاب خالد ، لم يضعه الدهر لجيــل بعينه ولا لشعب بعينه . وانما وضعه للاجيال جميعا وللشعوب جميعا . يعرف الناس أوله ولكنهم لا يعرفون له آخراً . يستطيعون أن يعرفوا أول هذا الكتاب حين يعرفون مولد هذا الرجل ونشأته ، ولكنهم لن يعرفوا آخر الكتاب اذا عرفوا موته لان هذا الموت لا يختم حياة العظماء ، ولعله يبدأها . أو يبدأ خير أجزائها وأعظمها غناء . لانه يزيل منها العناصر الفانية ويبقى منها العناصر التى لاتقبل الفناء . فاذا عرف الناس أن سعداً قد

ولد عام كذا ومات عام كذا ، فانهم قد بدأوا كتاب سعد ولكنهم لن يختموه إلا اذا كان الخلود ختام

فقد تختلف الخطوب على مصر والشرق ، وقد تلم بهما الأحـداث وقد يصيبهما الخير والشر ويتناوبهما البؤس والنعيم . ولكنهما سيذكران دائما ان هذا الرجل قد فتح لهما باب الحياة العزيزة الكريمة وعلمهما كيف يبتغيان لها الوسائل ويسلكان اليها الطرق ويصبران فى سبيلها لما يفرض عليهما من تضحية وما يلم بهما من آلام

وستبحث مصر وسيبحث الشرق عن عظمة سعد هذه من أين جاءته وكيف أتيحت له . وسيجدان هذه العظمة فى كل ما يعرفان وما سيكشف لهما التاريخ من حياة سعد ، سيجدانه فى صبره الذى لم يكن يعرف ضيقا بالحوادث ولا اشفاقا منها ، وفى مضائه الذى لم يكن يعرف وقوفا عن السعي ولا التواء عن قصد السبيل ، وفى حلمه الذى لم يكن يعرف بطشا بالجاهل حين يقدر على البطش ، وفى غضبه الذى لم يكن يعرف هوادة فى الحق حين يأبى الحق الهوادة على طلابه ، وفى لسانه الذى لم يعرف وقوفا ولا ترددا حين يجب القول ، وفى قلمه الذى لم يكن يعرف اضطرابا حين يجب المضى ، وفى عقله الذى لم يكن يعرف كلالا حين يجب التفكير ، وفى فطنته التى لم تكن تعبأ بمشكلة ولا تفتر عن معضلة ولا تعجز عن النفاذ الى أعماق ما يعترضها من الامور ، وفى غير ذلك مما يعرفه الناس ومما لا يعرفونه . وأكبر الظن أن الناس لم يعرفوا من أمر هذا الرجل الا أقله لان حياة العظماء لا يكشف عن أمرها للناس ولا تبدو أسرارها ودخائلها الا حين يبعد بها العهد وحين يتعرض غيرها من حياة الناس لعبث النسيان

ليذكر المصريون سعداً اليوم ، وليذكروه غـداً فانهم لا يحسنون بذلك الى سعد كما يحسنون بذلك الى أنفسهم ، فقد انتقل سعد الى هذه الدار الخالدة التى لا يفيد العظماء فيها من ذكر الناس لهم شيئا ، وانما يفيد الناس من ذكرهم العظماء ، لانهم يجدون من سيرتهم مايعلمهم الصبر حين يحتاجون الى الجهاد ، وازدراء الكوارث حين يحتاجون الى ازدراء الكوارث . وما أشد حاجة المصريين فى كل يوم وفى هذه الايام خاصة الى ان يذكروا سعداً ويطيلوا النظر فى سيرته ليعرفوا كيف يكون الصبر حين تلم الخطوب ، وكيف يكون الجهاد حين يتألب العدو ، وكيف يكون حسن البلاء حين يطالب الوطن أبناءه بأن يبذلوا مايملكون من قوة وجهد ومن مال وروح ليحفظوا عليه عزته وكرامته ويبلغوا به ما يريد من حرية واستقلال

ليلة البدر [1]

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

هات لى الذكرى وجدد ما مضى   عندك الذكرى ورجعاها معا
هات ما كان كما كان انقضى   أو فجدد غيره مبتدعا
ليلة البدر وقد كان الرضى   موعد الاهرام نبغي مطلعا
فقضى الله سواه غرضا

* * *

قد نوينا ونوى الغيبُ لنا   نيةً أمتعَ للمستمتع
خسف البدر وأمسيت أنا   أدَّعي من نشوة ما أدَّعي
كلما ناديتنى هيا بنا !   قلت : هيا ! وأنا في موضعي
السنى عندى فمالى والسنى ؟ !

* * *

خسف البدر وما كان الخسوف   شيمةَ البدر الذي بين يديّ
نشر الناس وطافوا بالدفوف   وأنا والبدر في نشر وطيّ
خل من شاء كما شاء يطوف   إن بدرى طالعٌ منه إلى
لا أحب البدر ترعاه الالوف

* * *

(١) من ديوان (وحي الاربعين)

يا سمير الليل يا نعم السميرْ   مالنا والصبح ما دمتُ أراك
أنا في نور وروض وعبير   حينما ألقاك لا القى سواك
رشفة من ثغرك العذب النضير   أو من الكأس احتوتها شفتاك
وسلام أيها الكون المنير !

* * *

هات لى من فيك أنفاس الغرام   أو فقل إن شئت أنفاس الحياة
واسقني الخمرة من أعذب جام   لا من البلور في أيدي السقاة
ثغرك الضاحك كأس ومدام   ونديم لى ، وراو في الرواة
ينشد الشعر فيشجيني الكلام

* * *

ينشد الشعر جديداً كالصّبا   وأنا ناظمه منذ سنين
بثَّ فيه من صباه عجباً   فاذا قلتَ ارتجالٌ لا تَمين
هات لى الحسن وهات الادبا   واسقني الخمر من الثغر المبين
ذاك حسبي في زماني مطلبا !



جراف تسبلن

تحية الرهبة والاعجاب الى الدكتور هوجو اكنر

بقلم الآنسة مى

روعت القلوب ، أنت الذى لا تأخذك روعة ، ولكنها روعة العجب . وضعضعت الافكار ، أنت الذى لاينتابك تضعضع ، ولكنه تضعضع الطرب

تجمع الافق خاشعا عند مرورك ، فكأنه قد انقلب ميدانا أعد لبديع ابلائك ، واشرأبت السحب ، وشحب قرص الشمس . وبهت لمعان الاشعة لانها جميعا لمحت فيك دليلا على قدرة الله فى الانسان

يا مهاجم العواصف والاخطار . ومنازل الزعازع والاقدار ، وقاهر العناصر والطبيعة الجبار لكثر ما انشد مواطنوك : « المانيا فوق الجميع » وها أنت اليوم تجوب السماوات العلى باحثاً عن مقر لمطلبك ، فارضاً على النجوم افساح المكان لرايتك ، مرغما حتى مجاهل الخليقة على الاعتراف بعبقريتك وشكيمتك

قوة فى رشاقة . ورهبة فى أنس . وهول فى جمال . وتهديد فى مصافاة . واقدام فى حبور . واقتحام فى رزانة . وتعاظم فى اناقة . واقتراب فى تباعد . واسراع فى هوادة . وسيطرة فى وداعة — ذاك هو مظهرك المتعدد ، عندما انقلب الفضاء لاجلك بحراً تسبح فيه أنت كأفخم السابحات

حلقت فوق القاهرة الخالدة ، فأشرت اليها بأن للخلود استكمالا تبدى شيء كثير منه فيك . وحمت فوق مرابض الروحانية والاسرار ، فأومأت بأن للروحانية والاسرار امتداداً فوق الارض . وناجيت بعبورك الجدران العظيمة والهياكل الرائعة والتماثيل الصامتة ، لتقول ان الانسان المقدام لا يكتفى بكوكب ولا يستقر فى مكان وأنه مضى يستطلع فيافى الافلاك ليضرب فيها خيامه

منذ عديد القرون وأبو الهول رابض فى إيوانه السنى يترقب صامتا بادرة مجهولة لا بد أن تقبل عليه . أفأنت تلك البادرة أم أنت رائدها الاول ؟

ومثلثات الاهرام قائمة عند مدخل الصحراء تنطق بحديث لايفهمه أحد منذ ابتداء الدهور أأنت استطعت أن تلم بالمعنى القديم من حديثها الصامت ، وكما غلبت العناصر تغلبت كذلك على ذكاء العصور ؟

تحليقك أمثولة للثبات ، ومشهدك أمثولة للثبات ، وفوزك أمثولة للثبات ، وتحيتك الينا حث على الثبات ، فكل من شهدك وراقبك وسمعك استفاد ، وتلك أمثولة رسبت فينا

ما أثقل الاخشاب والمعادن وزنا ، وما أجمدها حركة وأفزعها روحا فى مكانها . وما أخفها وزنا وألطفها حركة وأوعاها حساً !

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف أيها المعجزة المتحركة على الدوام . بك أدركنا أن للميكانيكا نبضا كنبض الحياة . بك أدركنا أن احلام الشعراء وخيالات المتخيلين هي الحقائق الراهنة عند العلماء وعند الشرعيين !

طر وحلق واسبح وحم وطف وتجول ، لتحمل بنى الانسان على خلق كلمات جديدة فى لغاتهم يصفونك بها و يمجدون

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف واخلق فينا رعشات جديدة واعجاباً جديداً وعزما جديداً وادراكا جديداً للاقدام والنشاط . فما استطاع امرؤ أن يرتفع و يحلق دون ان يرتفع ويحلق مثله النابهون من معاصريه

طر وحلق واسبح وحم وتجول وطف فى القريب والسحيق من الاجواء . فانت فى كل مكان الاعجوبة الجبارة التى تلقى الروعة فى النفوس ، وتعلو بالعقول الى مافوق محيطها المألوف ، وتهتف بكل من يرى ويسمع ويعى : الثبات الثبات !

اذهب بعيداً فى تجوالك فانت ما زلت عند أول غزواتك الفلكية . وللعبقرية والبطولة حق أن تطوى شاسعات الابعاد . وليس عزيزاً عليها حتى الوصول إلى عتبات الغيوب !

اذهب بعيداً وتجول كثيراً وكن فى كل جولة وكل تطواف رسولا بين المعلوم والمجهول . اذهب وطر وترنم وانشد ناشراً رسالة الارض فى مترامیات المدى . ولا تكن أبداً حرباً ونقمة بل كن دائماً سلما ونعمة على العالمين

ذكرى . . .

أباعدتمونا ما أقل وفاءكم فليس على أنا نباعدكم ندم

ولكن وداً كان ياليت لم يكن تمر له ذكرى ويتبعها ألم

حسين شفيق المصرى

دمعتي

للاستاذ جميل صدقي الزهاوي

انت ما إن تخففين مصابي ... دمعتي فارجعي على الأعقاب
أنت لا تدرئين عني دائي ... أنت لا تصلحين منه خرابي
أنت لا تنجدينني في شقائي ... أنت لا تنقذينني من عذابي
أنت لا تدفعين وطأة شيبي ... أنت لا ترجعين عهد شبابي
أنت لا تقدرين أن تهبيني ... راحة أو تسكّني أعصابي
إنما أنت قطرة ستبلين ... إذا سلت بقعة من ثيابي
أو تضيعين بين لحيتي البيضا ... ء أو تنضبين فوق التراب
ارجعي فالحياة ليست تساوي ... أن تخري من حالق كالشهاب
لا تخري وان قضى أن تخري ... سبب قاهر من الاسباب
إن نفسي لا ترتضي أن تهوني ... كشجوني وإن ملأن اهابي
يا ابنة الهم إن غرفتك القلـ ... ـب فلا تخرجي الى الابواب
دمعتي لا تعولي في رزايا ... ك على وعد دهرك الكذاب
فارجعي في مهل الى القلب مني ... أنت لا تخلقين بالتسكاب
أتريدين من مقرك في نفـ ... ـسي فراراً ينجيك من حرمانى
أنا لم أسأل العيون بكاء ... لتكوني عن السؤال جوابي
وإذا ما هبطت بالرغم عني ... طال يا دمعتي عليك عتابي
إنني إن بكيت أبكي بشعري ... ولقد أهديه إلى الاحقاب
كل بيت منه إذا عصروه ... دمعة ثرة على الآداب
بين شعري وما يجيش بصدري ... من شعور وشائج الانساب
أنا عنه محدث وهو عني ... وكلانا في القول غير محاب

الساقون الثلاثة

بقلم الاستاذ توفيق الحكيم

« جرسونات » ثلاثة في قهوة الدنيا ، إذا ناديتهم اقبلوا « بالطلبات » وهم يرقصون ، وفي عيونهم وشفاههم بسمات خفية ساخرة لا ترتاح لها نفس . . اول « جرسون » من هؤلاء طفل ، وهو ابداً طفل وعمره أبداً خمس سنين . . ويدعونه «الحب» . والثاني رجل وهو أبداً رجل وعمره أبداً أربعون سنة . . ويسمونه « الشيطان » . وثالثهم لا عمر له ويدعى « الموت » . والموت هو « الجرسون » الوحيد من بين الثلاثة الذي لم أفكر يوما في تكليفه بأي طلب . . منظره لا يعجبني وحسبي منه وقفته الوقحة و « فوطته » القذرة التي بها الف خرق ، وضحكته التي كسعال المسلولين وأسنانه الصفراء العفنة من تأثير إدمانه على التدخين والمغيبات . . انه « يقرفني » ومحال أن أتناول شيئاً من يده طوعاً واختياراً . .

أما « الشيطان » فيعجبني بطلاقته وزلفاه وذكائه . . ولولا علمي أنه محكوم عليه غيابيا . . وأنه من أرباب السوابق في جرائم النصب والاحتيال . . لركنا اليه . . أنا وكافة « الزبائن » . .

أما « الحب » فالويل من هذا الطفل الجاهل الجميل . . إنه يأسرني بلطفه ورقته . . أجل إنه الساقي الوحيد الذي أتناول من يده كل شيء . . وبلا تحفظ غير مبال إن كان مايعطيني سما أو « شمبانيا » . .

ناديته في الربيع الماضي فأقبل يحمل الى الكأس . . ووقف ينظر إلى برقة ساحرة ويبتسم إلى بابتسامة خلابة تحوى أشياء لم أكن لأدركها في ذلك الحين :

— ماذا تريد ؟ . . (البقشيش) ؟ . .

— كلا . . أريد أن لا تطلب إلى شيئاً بعد ذلك . . إياك أن تطلب قليلا من الثلج . . إن طلبت قليلا من الثلج فلن آتى لك بطلبك . .

— اطمئن . : لن أطلب اليك شيئاً . . أبداً . . لا (ثلج) ولا (سيفون) . . وأقبلت على الكأس . .

لكنه استوقفني أيضاً ، وعافلني وحمل الكأس وجرى قبيلا . ثم ضحك ضحكة صبيانية وقال في نبرة ملائكية :

— سأخذك . .

غير أنى لم أسمع ولم أر ولم أدرك الا شيئا واحداً : انه حمل الـكأس وابتعد ، فارتجفت وصحت مدفوعاً بالرغبة والظمأ . .

ــ هات الكأس ياجرسون . .

فاقترب به من شفتى . . وقال بنفس الصوت الموسيقي العذب . .

ــ سأعذبك !

ــ هات الكأس ياجرسون ! !

ــ سوف تلعننى . .

ــ أنا ؟ ؟ !

ــ سوف تمقتنى . .

ــ أنا عبدك . .

ــ سأعذبك . .

ــ هات الكأس . .

ــ خذ !

ومضى عام :

ــ ياجرسون . ياجرسون !

ــ ماذا تريد ؟

ــ الثلج . . فى الحال . . الثلج !

ــ لقد أنذرتك

ــ أرجو منك . . قطعة واحدة من الثلج !

ــ قد أنذرتك

ــ قطعة . . ولك ما تريد . .

ــ عند النجوم ماتروم !

ــ لا تبتعد ! . . لا تهزأ بى لن تتركنى قبل احضار الثلج

ــ عند النجوم ماتروم !

ــ لقد خدعتنى . . ما كنت أظن طفلا بريئا جميلا يجرؤ على هده الجريمة : يقدم الى بدل ماء الورد ماء النار !

ــ الورد والنار . . يالك من غرساذج ! . . الورد والنار هما عنصرا حياتى . وهما لون خدودى ولون شرابى !

ــ قطعة من الثلج . . ولك ما شئت !

ـــ محال . . !

ـــ وحماك !

ـــ لو كنت عاقلا لادركت أن الثلج ليس فى عهدتى

ـــ لماذا ؟ ؟ . . لماذا ؟ ؟ . .

ـــ سل صاحب القهوة . .

ـــ أنقذنى . . لعنة الله عليك . .

ـــ الثلج لا يمكن أن يكون فى عهدتى . .

ـــ آه ياملعون ! ! وما العمل ؟

ـــ عليك بجرسون آخر ؟ ؟

ـــ جرسون آخر . . من ؟ ؟ من ؟ ؟

(يجرى « الحب » الى « الشيطان » ويسر اليه كلاماً . . ثم يشير بيده الى « الزبون » ثم يتقدم « الشيطان »)

ـــ أنا . . هو . . ماطلبك ؟ . . أنا القدير على تنفيذ رغبتك . . مرنى أطع أيها السيد النبيل !

ـــ الشيطان ! !

ـــ خادمك . ! ـــ كلا مستحيل أنت من أرباب السوابق

ـــ مظلوم ! . . . وربك لم يثبت ضدى شيء . لا تصدق وشايات الناس . وربك إنى متهم زوراً وبهتاناً

ـــ ما الدليل على براءتك ؟

ـــ هاك . . رخصتى . . بيضاء كقلب الجنين . . ! !

ـــ أليست . . مزورة . . ؟ ؟ ؟ على كل حال أنا فى حاجة اليك الآن ! أى فى حاجة شديدة اليك . . أسامع ؟ ؟

ـــ محسوبك . . .

ـــ . . الحب . . هزأ بى . . . انتقم لى . . .

ـــ آسف ! والله . ! الحب زميلى وليس لى سلطان عليه . . .

ـــ ما العمل اذن ؟ . . . ـــ دع الانتقام . . وفكر فى الدواء . .

ـــ الدواء . . الثلج . . قطعة من الثلج . . اذن ! !

ـــ الثلج ليس بالدواء . . الدواء هو . . .

ـــ هو ! ! هو ماذ ؟ ـــ هو الداء . . ودوها بالتى كانت هى الداء . . .

ـــ ماذا تعنى . . ؟ ـــ أطلب من « الحب » كأساً أخرى . .

ـــ قل سما آخر ، ناراً أخرى سائلة تطفو عليها الورود ؟ . . لا . : أيها النصاب لقد خدعت مرة . .

ـــ ومن أدراك ؟ . ربما هذه المرة . !

ـــ اخرس . يامنافق . . دوائى الثلج .. وأنا أدرى الناس بدوائى .. أعطنى قطعة من الثلج .. أسرع بالثلج . .

ـــ محال . . ـــ أنت أيضا . .

ـــ الثلج ليس فى عهدتى . . ـــ كيف ذلك . . كيف ذلك ؟ . .

ـــ سل صاحب القهوة ! . . ـــ وما العمل ؟ .. ارحمنى ! . .

ـــ أدلك على « جرسون » آخر . . وأوصيه بك خيراً . . فلطالما أوصيته عند اللزوم بزبائننا الكرام . .

(يجرى مهرولا إلى « الموت » ويسر اليه كلاما ويشير الى « الزبون » ثم يتقدم « الموت » فى بطء وهو يبتسم ساخراً)

ـــ من ذا الذى يطلبنى . ؟ ـــ الموت ! ! . . آه . . لا ، لا . . لا . . أبداً . .

ـــ عجبا لكم . . يا معشر الزبائن . . ! كلكم متشابهون . . تطلبون ثم تنكرون ! ألم تطلبنى أيها « الزبون » ؟ ؟ ها . . حا . . حا . . حا ..

ـــ لا تسعل فى وجهى . . أغرب عنى . .

ـــ عجباً لك ! . حا . حا . سعالى يخيفك . . اتحسبنى مسلولا . . لا . . اخطأت . ! هذا من الافيون . . نعم . . ها . حا . . حا . . الا تحب تعاطى الافيون . ؟

ـــ بالله . . ابتعد . . أسنانك الصفراء . . ابتعد . . ابتعد . .

ـــ والثلج . . الا تطلب الثلج . . هو فى عهدتى ألا تريد ؟ ؟ . .

ـــ فى عهدتك ؟ ؟ . .

ـــ فى عهدتى دائما ؟ . . من يوم (نزولى الخدمة) بهذه القهوة . .

ـــ كلا لا تقربنى . . قلت لك . . لا تقربنى . أستودعك الله . !

ـــ إلى أين ! ؟ حا . حا

ـــ ابتعد عنى . . انت لا تطاق . . رائحتك كريهة . .

ـــ والثلج . . حا . . حا . . ألا تطلب ثلجا . . ابيض . . تعال لا تخف . . تعال . . ثلجا ابيض مثل الكفن ! !

ـــ النجدة . . النجدة . . الى ياجرسون «حب » يا جرسون « شيطان » ياصاحب القهوة .. انقذونى من هذا الجرسون الفظيع . . كل شىء يطاق الا هذا الجرسون البارد المطيع . .

حديث قطين[1]

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام في موضوع الانشاء ما يأتي :
« تقابل قطان أحدهما تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله . فماذا يقولان اذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، والى أي غاية ينصرف القول في محاورتهما ، وضاقوا جميعاً - وهم أطفال - أن تكون في رءوسهم عقول السنانير ، وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة في هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة . فيكتهنوا تدبير هذه القطاط لحياتها . وينفذوا الى طبائعها . ويندمجوا في جلودها . ويأكلوا بأنيابها . ويمزقوا بمخالبها

... إن مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق هرتين . لا الحديث عنهما . فان اجادة الانشاء في مثل هذا الباب ألوهية عقلية تخلق خلقها السوي الجميل نابضاً حياً كأنما وضعت في الكلام قلب هر ، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام . وأين هذا من الاطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولها ؟ وكيف لهم في هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود . ويداخلوا أسرار الخليقة . ويصبحوا مع كل شيء رهناً بعلله ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها . وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية : « كن زهرة وصف واجعل نفسك حبة قمح وقل » . وانما هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ، إذ النبي تعبير إلهي تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلمتها التي تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير . تتخذه تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التي تسمى الفن

وقد كان في القديم امتحان مثل هذا . لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة . وكان الممتحن فيه هو الله جل جلاله . والموضوع حديث النمل مع النملة . والناجح سليمان عليه السلام « قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم . لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها »

---

(١) احترامها له . . .

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة . إذ كانت الروح فى ذاتها نوراً . وكان سر كل شيء هو من النور والشعاع يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء . وفى امتزاج الاشعة من النفس والمادة تجاوب روحانى هو بذاته تعبير فى البصيرة وإدراك فى الذهن . وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه : فى الكلمة والصورة والمثال والنغمة ، أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى

ومن ذلك لا يكون البيان العالى أتم إشراقا إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أو رذيلتها على السواء . فان من عجائب السخرية بهذا الأنسان أن يكون تمام الرذيلة فى أثره على العمل الفنى — هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل . والنقطة التى ينتهى فيها العلو من محيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدار إلى السفل . ومن ثم كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمعزل . فالأصل هناك سمو التعبير وجماله وبلاغة الأداء وروعتها . ولا يكون السؤال الفنى ما هى قيمة هذه النفس . ولكن ما طريقتها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ اليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن . كما للجنة حق فى نوابغه واذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة أفلا تقول الجحيم وهذه بلاغة رذائلى ؟ وكيف لعمرى يستطيع ابليس أن يؤدي عمله الفنى . . ويصور بلاغته العالية إلا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل . وساقطات من أهل الجسم الجميل ؟

* * *

لقد بعدنا عن القطين . وانا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما

كان القط الهزيل مرابطا فى زقاق . وقد طارد فأرة فانجحرت فى شق . فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج . ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزها . وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها . وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض . لا كاطفال الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم

وأبصر الهزيل من بعيد فاقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلع تخلع الأسد فى مشيته وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غلظاً ، وفى عصبه شدة ، وفى شعره بريقاً ، وهو يموج فى بدنه من قوة وعافية ويكاد إهابه ينشق سمناً وكدنة . فانكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة . وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً منقضاً طاوى البطن ، بارز الاضلاع ، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر .فقال له : ماذا بك ؟ ومالى أراك متيبساً كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ! ومالك أعطيت الحياة غير انك لم تحى ! أوليس الهر ما صورة مختزلة من الأسد . فمالك – ويحك – رجعت

صورة مختزلة من الهر ! أفلا يسقونك اللبن ويطعمونك الشحمة واللحمة ويأتونك بالسمك ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ويفتون لك الخبز فى المرق ويؤثرك الطفل ببعض طعامه وتدللك الفتاة على صدرها وتمسحك المرأة بيديها ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه؟ وما لجلدك هذا مغبراً كأنك لا تلطعه بلعابك ولا تتعهده بتنظيف. وكأنك لم تر قط فتى أو فتاة يجرى الدهان بريقاً فى شعره أو شعرها فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما! وأراك متزايل الأعضاء متفككا حتى ضعفت وجهدت. كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك. ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهيتك. وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشية ولا وسادة ولا بساطاً ولا طرازاً. وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والهشيم اليابس. فما له من لحم يجيء من لحم ولا دم يكون من دم. وانحط فيه جسم الأسد وسكنت فيه روح الحمار!

قال الهزيل: وإن لك لحمة وشحمة ولبناً وسمكا وجبناً وفتاتاً. وإنك لتقضى يومك تلطع جلدك ماسحاً وغاسلا. أو تنطرح على الوسائد والطنافس نائماً ومتمدداً. أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً. وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة. وأحكمت طبعاً ونقضت طباعا. وربحت شبعاً وخسرت لذة. عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك. وحملوك وأعجزوك أن تستقل. وقد صرت معهم كالدجاجة تسمن لتذبح. غير أنهم يذبحونك دلالا وملالا

إنك لتأكل من خوان أصحابك. وتنظر إليهم يأكلون. وتطمع فى مؤاكلتهم. فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لاشيء غير هذا. وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها

إن كان أول مافى الحياة أن تأكل فأهون مافى الحياة أن تأكل. ومايقتلك شيء كاستواء الحال ولا يحييك شيء كتفاوتها. والبطن لايتجاوز البطن. ولذته لذته وحدها. ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك. وعن العلل الباطنة التى تحركنا إلى لذات أعضائنا ومتاع أرواحنا. وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر. وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله لا من قبل المعدة وحدها؟

قال السمين: تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة. وأرانى بازائك معدوماً بزوال أسلافى منى. وأراك بازائى موجوداً بوجود أسلافك فيك. ناشدتك الله الا ما وصفت لى هذه اللذات التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع. وتستطيل بها الى مرتبة الوجود الاكبر من الرضى؟

فقال الهزيل: انك ضخم ولكنك أبله. أما علمت - ويحك - أن المحنة فى العيش هى فكرة وقوة. وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة. وأن لهفة الحرمان هى التى تضع فى الكسب لذة الكسب. وسعار الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح. وأن ماعدل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة. فأن رغباتنا لا بد لها أن تجوع

وتغتذى كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا . ليوجد كل منهما حياته فى الحياة . والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراض مطمئنة . فان لم تنقص من لذتها فهى لن تزيد فى لذتها .

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التى تجعل الأحسن أحسن مما يكون . وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو . وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصور من الدنيا بين الأيدى والأرجل ؟ انك كالأسد فى القفص ، صغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة فى جلد . أما أنا فأسد على مخالبى وورا. انيابى . وغيضتى أبداً تتسع ولا تزال تتسع أبداً . وان الحرية لتجعلنى أتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام . وأستروح من التراب لذة كلذة اللحم . وما الشقاء الا خلتان من خلال النفس : اما واحدة فان يكون فى شرهك ما يجعل الكثير قليلا . وهذه ليست لمثلى مادمت على حد الكفاف من العيش . واما الثانية فان يكون فى طمعك ما يجعل القليل غير قليل . وهذه ليس لها مثلى مادمت على ذلك الحد من الكفاف . والسعادة والشقاء كالحق والباطل . كلها من قبل الذات . لا من قبل الاسباب والعلل . فمن جاراها سعد بها . ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى

ولقد كنت الساعة اختل فأرة انجحرت فى هذا الشق فطعمت منها لذة وان لم اطعم لحماً . وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عقرى فاحدث لى وجعاً . ولكن الوجع احدث لى الاحتراس . وسأغشى الآن هذه الدار التى بازائنا فأية لذة فى السلة والخطفة والاستراق والانتهاب ثم الوثب شدا بعد ذلك ؟ هل ذقت أنت بروحك لذة الفرصة والنهزة ، أو وجدت فى قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة او جرذ ، او ادركت يوماً فرحة النجاة بعد الروغان من عابث او باغ او ظالم ؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هولك طفل بالضرب فهولته انت بالعض والعقر ففر عنك منهزماً لا يلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذات كلها وانا لا ادرى ؟ هلم اتوحش معك . ليكون لى مثل مكرك ودهائك واحتيالك . فيكون لى مثل راحتك المكدودة ولذتك المتعبة وعمرك المحكوم عليه منك . وسأتصدى معك للرزق اطارده واواثبه . فقطع عليه الهزيل وقال :

يا صاحبى ، إن عليك من لحمك ونعمتك علامة اسرك . فلا يلقانا اول طفل الا هوى لك فاخذك اسيراً واهوى على بالضرب لا نطلق حرا فانت على نفسك بلاء وانت بنفسك بلاء على

وكانت الفأرة التى انجحرت قد رات ما وقع بينهما . فسرها اشتغال الشر بالشر .. وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة فوثبت وثبة من يجو بحياته . ودخلت فى باب مفتوح ولمحها الهزيل كما تلمح العين برقاً اومض وانطفأ . فقال للسمين : اذهب راشدا . فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة ان الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق . وكذلك امثالك فى الدنيا . هم بالفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الاسفل . .

المدنية المصرية القديمة

ومسلك المدنيتين اليونانية والرومانية معها

هي الاصل فيهما ، ولكنهما تجاهلتاها

بقلم الاستاذ عبد القادر حمزة

كل الذين قرأوا شيئاً من الفلسفة العربية يعرفون أنها كلها تقريباً منقولة فى الاصل عن الفلسفة اليونانية ، وأن القليل الذى لايكاد يذكر منها هو الذى نقل عن الحكمة الهندية والحكمة الفارسية . كما يعرفون أن العرب كانوا فى هـذا النقل مثلا عالياً لصفتين شريفتين هما الصراحة والامانة . فأما الصراحة فهى أن العرب لم ينتحلوا شيئاً ليس لهم بل نقلوا الفلسفة اليونانية معزوة كل كلمة منها الى صاحبها ولم يدعوا لأنفسهم إلا الشيء الذى زادوه عليها . وأما الامانة فهى أنهم بذلوا جهداً كبيراً فى تحرى الدقة والتوسع فى جميع ما نقلوه ، حتى كانت الفلسفة اليونانية لا تعرف فى أوربا فى العصور الوسطى وفى أول عصر النهضة Renaissance إلا فى الكتب العربية ، ولم تدرس فى كتبها اليونانية إلا بعد ذلك

وللرئيس ابن سينا كتب عديدة كلها ترجمة لآراء الفلاسفة اليونانيين وخاصة آراء ارسطو الذى يسميه العرب « المعلم الاول » . ولابن رشد عشرات من الكتب كلها كذلك ترجمة لآراء ارسطو وما نخص بالذكر هنا ابن سينا وابن رشد الا لانهما أكبر فلاسفة العرب ، والا فالحقيقة أنك لا تجد واحداً من الذين اشتغلوا بالفلسفة فى العرب الا ومن محصوله العلمى نقل عن هـذا أو ذاك من فلاسفة اليونان . وكتب ابن رشد عن أرسطو هى التى نقلها بعض تلاميذه ــ بعد أن نكبه المنصور ــ الى أوربا فترجمت فيها الى اللاتينية ومنها عرف الاوربيون فى ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه . فاستمروا يدرسون فيها هذه الآراء زمنا طويلا الى أن اهتدوا بعد ذلك الى كتب أرسطو فى لغته

ومعنى هذا أن المدنية العربية حملت الفلسفة اليونانية فى جوفها معزوة الى أصحابها حتى أدتها بعد ذلك الى المدنية الاوربية . فكانت فى هذه التأدية ، كما قلنا ، مثلا عالياً للصراحة والامانة ، وكانت خدمتها للمدنية اليونانية لا تقدر . ولسنا ندرى ما الذى كان يحدث لو أن المدنية العربية كانت غير صريحة ولا أمينة فنقلت ما نقلته عن أرسطو وأفلاطون وسقراط وسولون وأرشميدس وغيرهم فلم

تعزه اليهم ولم تذكر أسماءهم بل ادعته لنفسها وصاغته صياغة أخرى مبالغة منها فى إخفاء المصادر التى أخذت عنها. لسنا ندرى حينئذ هل كانت المدنية الحديثة تعرف الفلاسفة اليونانيين كما تعرفهم الآن وتعرف كل واحد منهم بآرائه، او كانت تجهلهم فلا يبقى مذكوراً منهم ومن آرائهم الا شيء مبهم كالذى يذكر الآن عن حكماء المدنيات القديمة الفارسية والكلدانية والهندية والصينية وغيرها!

وانما نقول هذا لانه كان قد جاء وقت طويت فيه أسماء الفلاسفة اليونانيين وطويت فيه كتبهم حتى فى اليونان نفسها. وما تنبه الاوربيون اليهم إلا بعد ان اطلعوا على الكتب العربية مترجمة الى اللاتينية، فلو أن هذه الكتب لم تذكر الفلاسفة اليونانيين ولم تنقل آراءهم نقل صراحة وامانة لكانت النتيجة أن يتأخر على الاقل تنبه الاوربيين اليهم مائة سنة أو مائتين أو اكثر. ولايعلم أحد ما يمكن حينئذ أن يصيب كتبهم فى هذا الزمن، فقد كان ممكنا أن تذهب الحوادث بجزء منها أو بها كلها كما ذهبت قبل ذلك بعلوم المصريين

ذلك مافعلته المدنية العربية مع المدنية اليونانية. والآن فلنرجع الى الخلف قليلا ولننظر ماذا فعلته المدنيتان اليونانية والرومانية مع مدنية سبقتهما هى المدنية المصرية

يقدر بعض الباحثين الزمن الذى استمرت فيه المدنية المصرية من وقت نشوئها فى عهد الملك مينا الى أن انطفأت آخر شعلة من نورها على يد الرومانيين، بنحو أربعة آلاف سنة. ويرى الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه «الحضارة المصرية» أن التقدير الصحيح يجب أن يكون أكثر من هذا لان هذه الاربعة آلاف سنة تبتدىء من وقت يقول التاريخ ان مصر فيه كانت عزيزة الجانب، وتدل آثاره التى ما تزال باقية على أن المصريين فيه كانوا أهل علم راق وصناعة راقية، ولا يقبل العقل أن يكون هذا العلم وهذه الصناعة قد وجدا فجأة، فلابد لهما من زمن تدرجا فيه بعد أن تمهدت لهما الاسباب. واذن يكون هناك فى رأى جوستاف لوبون عصر من المدنية المصرية سابق على العهد الذى نعرفه مبتدئاً بحكم الملك مينا. وهو عصر جهلناه لان التاريخ لم يحدثنا بشيء من أخباره

وكما كانت المدنية المصرية طويلة العهد، كانت طويلة الاحتضار حتى لقد شهدت فى احتضارها هذا مدنيتين: احداهما المدنية اليونانية من نشوئها الى نضجها الى سقوطها، والثانية المدنية الرومانية من نشوئها الى بلوغها الاوج على يد يوليوس قيصر. وكانت النكبات التى حلت بها والحروب والغزوات التى عانتها وحوادث النهب والتدمير والاحراق التى تناولتها عديدة طويلة، لم تقض فقط على مدنيتها بل قضت فوق ذلك على العلوم التى قامت بها هذه المدنية. ثم تبدلت لغة المصريين بعد هذا فانقطعت الصلة بينهم وبين ماضيهم، ثم نسيت اللغة القديمة حتى ماتت ولم يبق من يعرفها فانقطعت الصلة بين العالم كله وبين المدنية المصرية وعلومها، ولم يبق من هذه المدنية غير آثارها يراها الناس فيحكمون بأنها كانت مدنية علم راق ولكنهم لايعرفون من هذا العلم شيئاً

ومع أننا عرفنا الآن اللغة المصرية القديمة فاننا لم نقف على شيء يستحق الذكر من علوم المدنية

المصرية . وقد قال الدكتور جوستاف لوبون فى ذلك : « لم يؤلف كتاب عن مصر الا وفيه اطراء عظيم لمعارف المصريين . ولكن اذا أريد تحديد مدى هذه المعارف بالدقة أعوزت المصادر والمستندات. فالا كتفاء ببعض صحف أمر لابد منه لان الكتابة المستفيضة فى علوم المصريين تقرب من المحال » ثم قال فى موضع آخر : « لم يبق لنا من علوم المصريين الا ما دون فى أثنتين او ثلاث من ورق البردى ، وهو بسط لمبادىء أولية يرجح أنها كانت للتعليم فى مدارس الاطفال . ولكننا اذا حكمنا على علم المصريين بآثاره ونتائجه لم يسعنا الا ان نقول انه كان بالغاً الغاية القصوى فى التقدم »

فعلوم المدنية المصرية غير معروفة . والعلماء والمفكرون فى هذه المدنية التى سادت العالم أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، والتى استمر احتضارها عدة مئات من السنين لايعرفهم الناس كما يعرفون كتاب اليونان وفلاسفتهم كلا منهم باسمه ورأيه والعلم الذى نبغ فيـه . واذن نسأل ماهو موقف المدنية اليونانية فى هذا وهى التى جاءت تالية للمدنية المصرية ونشات وقت احتضارها ؟ هل فعلت ما فعله العرب معها فحملت علومها الى الذين يأتون من بعدها أم لم تحمل شيئا ؟ وان كانت لم تحمل وكانت كتبها قد اغفلت العلوم المصرية والعلماء المصريين اغفالا تاماً فهل ذلك ناشىء من أنها لم تتصل بالمدنية المصرية ولم تستق شيئاً منها أم هى بالعكس اتصلت بها واستقت منها جميع عناصرها الحيوية ولكنها مع ذلك أغفلتها ؟

يمر الانسان بكتب الفلاسفة اليونانيين جميعاً فلا يجد فيها شيئاً يسمى علوماً مصرية وعلماء مصريين ، بل يجد آراء مبسوطة فى كل علم وفن على انها ابتكارهم وابتكار مدنيتهم لم يستندوا فيها الى شىء سابق . ولم يخالف هذه القاعدة فيما نعلم الا اثنان هما هيرودوت الذى يلقب أبا التاريخ وديودور الصقلى . وهذان مؤرخان عاشا فى الزمن الذى كانت المدنية المصرية فيه تحتضر . وقد الف كل منهما كتباً فى التاريخ فكان من الضرورى أن يعرضا لمصر . وقدعرضا لها فعلا ولكن على أنهما مؤرخان يعنيهما ذكر الملوك والحروب وشىء من عادات الشعب وأوصاف البلاد الجغرافية ولا يعنيهما شىء من العلماء والعلوم

ولهذا فان قارىء مؤلفات نوابغ المدنية اليونانية كارسطو وافلاطون وسولون وفيثاغورث وارشميدس وغيرهم يتخيل أن المدنية اليونانية أول عهدالعالم بالعلم الصحيح ، وأن المدنيات التى سبقتها لم تعرف هذا العلم على أى وجه من الوجوه.ونظن أنه يكفى أن يفكر الانسان قليلا ليعلم أنه يستحيل أن يكون اليونانيون قد أنشأوا علومهم وفلسفتهم كلها من عند أنفسهم . ولكن هذا ليس موضوع بحثنا الآن وانما موضوع البحث هو موقف الفلاسفة والعلماء اليونانيين من علوم المدنية المصرية ، وهذا الموقف يتلخص فى أنهم اغفلوها ولم يشيروا اليها فى شىء مما كتبوه

بقى ان نعرف هل سبب هذا الاغفال أنهم لم يتصلوا بالمدنية المصرية ولم يستقوا من علومها ؟ أم هم بالعكس اتصلوا بها واستقوا منها ولكنهم مع ذلك أغفلوها ؟

تتابع المدنية اليونانية من أول نشوئها فنرى فى هذا النشوء رجلين بارزين : أحدهما سولون Solon واضع القوانين والنظم لحكومة أثينا وقد عاش من سنة ٦٤٠ الى سنة ٥٩٩ قبل الميلاد، والثانى تاليس المليطى Thales de Milet أول وأقدم فيلسوف يونانى، وقد عاش من سنة ٦٤٠ الى ٥٥٠ قبل الميلاد . فى ذلك الوقت كانت اليونان كالطفل الذى أخذ يحبو أو كالزهرة التى بدأ نباتها يظهر . فأين تعلم سولون وتاليس المليطى ؟ وفى أى المدارس تثقفا وعلى اى الاساتذة تخرجا ؟

يقول التاريخ الذى لا شك فيه إنهما تعلما فى مصر فى مدرسة عين شمس . وفى ذلك يقول شمبوليون صاحب حجر رشيد بعد كلام عن الذين تخرجوا على الاساتذة المصريين : « . . تعلم بها (أى بمصر) أيضاً سولون وتاليس المليطى كل ما علماه لليونانيين . . . . »

وتاليس المليطى هذا هو واضع الفلسفة القديمة التى تقول ان اصل الكائنات عنصر واحد بسيط هو الماء ، وهى فلسفة ظلت رائجة حتى جاء امبدكليس Empedocles (٤٩٠ — ٤٣٠ ق . م .) فعارضها وقال بالعناصر الاربعة الماء والهواء والنار والتراب

ندع هذا وننتقل خطوة أخرى فنصل الى فيثاغورس Pythagore (٥٤٠ — ٤٩٠ ق . م) وهو رجل من اهل جزيرة ساموا نبغ فى الرياضة والفلك نبوغا سوف يبقى به اسمه خالداً الى الابد . وقد قال بكروية الارض وعالج فهم نظام الكون ، فقال انه على شكل كرة فى مركزها النار وان اجراما عشرة تدور حول هذه النار : اولها الارض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحيرة (أى الكواكب السيارة) ثم النجوم الثوابت . وجميع هذه الاجرام تدورحول النار المركزية . فلو انك وضعت فى هذا النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيخ التى تعد من اعظم اكتشافات العصر الحاضر

فأين تعلم فيثاغورس هذا وعلى يد من تخرج ؟

اجاب شمبليون عن هذا السؤال فقال ما يأتى حرفيا : « تعلم فيثا غورس بمصر كل ما استطاع معرفته » وفى الواقع ان التاريخ الذى لا شك فيه يقول لنا ان فيثاغورس تعلم فى مصر بمدرسة عين شمس . ولم يستمر تعلمه فيها سنة أو سنتين او خمسا او عشراً وانما استمر اثنتين وعشرين سنة . ثم غادرها بعد ذلك الى ايطاليا وجعل يكتب مؤلفاته فلا يقول فيها ان اساتذته فى مصر علموه شيئا وانما يقول انه هو يرى كيت وكيت

نتقدم بعد ذلك خطوة اخرى فنصل الى ديمقراطيس Democretie فى القرن الخامس قبل الميلاد . وهو أحد الفلاسفة المعدودين وأول من عارض القول بان المادة قابلة للتجزئة الى مالا نهاية له وقرر وجود الجزء الذى لا يتجزأ أو ما سمى فى الفلسفة العربية الجوهر الفرد

فأين تعلم ديمقراطيس هذا وعلى يد من تخرج ؟ تعلم فى مصر كما تعلم زملاؤه السابقون

ونتقدم خطوة أخرى أيضا فنصل الى أفلاطون Platon (٤٢٩ — ٣٤٧ ق. م.) كبير فلاسفة

اليونان واستاذ أرسطو وصاحب الفلسفة المعروفة بإسمه والتي مازالت تدرس الى اليوم . قد يقول قائلون انه تلميذ لسقراط Socrate متخرج على يده ، ولكن كلا ، فان أفلاطون لم يلازم سقراط إلا بعد أن كان قد تعلم وصار جديرا بان يسمى زميلا له لا تلميذا . أما البلاد التي تعلم فيهـا فهي مصر ، وأما المدرسة التي علمته فهي مدرسة عين شمس ، وقد قال شمبوليون فى ذلك : « . . . . إننا نعرف اسماء الاساتذة الذين تلقى عليهم أفلاطون بمصر علمه فى مدرسة هليوبوليس »

فافلاطون تلميذ مصر لا تلميذ سقراط ، وقد كتب مؤلفات تعد بالعشرات ولـكنه لم يذكر منها شيئاً عن علم عرفه فى مصر ولا عن أساتذة عرفهم من المصريين

وخطوة أخرى فتصل الى ارشميدس Archimedes (٢٨٧ — ٢١٢ ق . م .) أكبر المكتشفين الرياضيين فى المدنية اليونانية ومخترع المنجنيق ، والآلات الرافعة للاثقال ، والطنبور ، والمرايا المحرقة التى يقال انه احرق بها الاسطول الرومانى عندما كان يحاصر وطنه سرقوسة . هو أيضا تعلم علمه كله فى مصر ، ولكن فى مدرسة الاسكندرية . ونلاحظ أن المدنية اليونانية كانت فى ذلك الوقت قد بلغت أوجها فأخرجت افلاطون وارسطو ومع ذلك لم يقصد اليها ارشميدس ليتعلم فيها وانما قصد الى مصر

واذ قد ذكرنا مدرسة الاسكندرية فان هذه الكلمة الموجزة لا تتسع لذكر أسماء العشرات من العلماء اليونانيين الذين تخرجوا فيها . فلا محيص لنا من أن نكتفي بالاشارة الى بعض البارزين منهم . فمن هؤلاء اقليدس Euclid المعروف عند العرب باقليدس الصورى وهو صـاحب كتاب « الاصول » الذى ترجمه العرب والذى يعتبر أساسا للهندسة . وابلونيوس Apollonios صـاحب كتاب « المخروطات » الذى ترجمه العرب وهو من الاسس فى علم الهندسة أيضـا . وبطليموس Ptolémée الذى يسميه العرب بطليموس القلوذى ، وهو عالم رياضى وفلكى الف كتاباً وصف فيه السماء وآلات الرصد ومساحة المثلثات المستقيمة الخطوط ، وقد ترجمه العرب ومنه صنفوا كتاب « مجسطى » الذى كان مادة الدراسة فى جامعات أوربا فى العصور الوسطى . وايروتستين Erotosthenes وهو أول من قاس محيط الكرة الارضية بواسطة قياس الدرجات بين الاسكندرية واسوان فوجده ٤٢ الف كيلو متر وهو غير بعيد من الحقيقة . وايبرخس Hipparchis المشهور بخريطته التى وضعها للنجوم . وتسيبوس Ctesibius مخترع السيفون والمضخة الـكابسة ومضخة الحريق . وهيرون Heron أول مفكر فى صنع الآلات البخارية وقد صنع آلة منهـا فعلا . واريستارك Aristarque de Samos أول القائلين بان الارض كوكب من كواكب النظام الشمسى وان الشمس مركز تدور حوله الـكواكب الاخرى . وتيوفراست Theophraste الذى يعتبر أول واضع لاساس علم النباتات

فهذه كما ترى سلسلة طويلة من العلماء اليونانيين حجوا كلهم مصر فدخلوا مدارسها وتعلموا علومها وكانت هذه العلوم هي التى خرجت منهم بعد ذلك علماء وفلاسفة . وليس لقائل أن يقول ...

اليونانيين لم يتصلوا بالمدنية المصرية وانهم من أجل ذلك أغفلوها ، اذ الحق انهم لم يتصلوا بهـا فقط وأنما استقوا منها كما استقى منهم العرب بعد ذلك . فلو أنهم فعلوا مافعله العرب معهم فحملوا العلوم المصرية فى كتبهم معزوة الى أصحابها والمبرزين فيها لانتقلت منهم الى العرب ثم من العرب الينا بعدذلك

ننتقل الآن إلى المـدنية الرومانية لنرى كيف كان مسلكها نحو العلوم المصرية . نشأت المدنية الرومانية في الوقت الذى كانت فيه المدنية المصرية تلفظ نفسها الاخير . ويقول بعض المؤرخين ان الحرائق التى أشعلها يوليوس قيصر فى الاسكندرية هى التى دمرت مكتبتها الكبيرة التى كانت تحوى من اوراق البردى ما يشتمل على كل علوم المصريين ، وينفى الاستاذ برشيا الآن هذه التهمة عن يوليوس قيصر فى كتابه الذى وضعه منذسنوات عن الاسكندرية وتاريخها . ولـكن الذى يهمنا هنا هو أن المدنية الرومانية وان كانت قد نشأت فى الجزء الاخير من عهد المدنية اليونانية الا أن نشوءها هذا شهد احتضار المدنية المصرية وشهد على الخصوص مدرسة الاسكندرية

ولما بلغت المدنية الرومانية اوجها كانت مدرسة الاسكندرية قد دمرت وكانت دور الكتب المصرية قد أحرقت وكانت اللغة المصرية نفسها قد دخلت فى دور الاحتضار

ولم يكن اتصال المدنية الرومانية بالعلوم المصرية وثيقا كما هو الشأن مع المدنية اليونانية . ولكن مما لا شك فيه أن الرومانيين كانوا ينظرون فى ذلك الوقت الى مصر باعتبار انها بلد العلم والحضارة ، وكانوا يرون مجدها كانه لا يزال حاضراً أمام أعينهم فلا يقبل العقل الا انهم اخذوا منها واقتدوا بها فى تأسيس مجدهم اساسه العلم والحضارة

وقد كان القانون الرومانى من اعظم مخلفات المدنية الرومانية من العلم اذا لم نقل انه اعظمها جميعا ، فانظر مايقوله فيه الاستاذ ريفيو (١) احد العلماء الذين كتبوا عن مصر . قال : « ان كل ما يسمى قانونا فى وصايا الالواح الاثنى عشر انما اخذ من قانون مصر . فحقوق الافراد وحقوق الامم التى يتكلم عنا المشرعون الرومانيون وحق المدنية لم تكن من مخترعات عقولهم بل من الحقوق التى وضعت من قبلهم . والمستندات الكثيرة والنصوص والوثائق القضائية التى وصلت الينا من مصر وكلدة تدل على ان المصريين والكلدانيين هم الذين ابتدعوا تلك القوانين من آلاف السنين، عدا أنهم اساتذة الاغريق وائمتهم وقدوتهم فى كل امور المدنية »

ومن هنا يمكننا ان نعرف ان مسلك المدنية الرومانية مع العلوم المصرية لا يختلف عن مسلك المدنية اليونانية

وهذا المسلك يتلخص فى أن هاتين المدنيتين اتصلتا بالمدنية المصرية واخذتا من علومها كل عناصر حياتهما ولـكنهما تجاهلتاها . ويحسبنا ان نكون قد اثبتنا هذا التجاهل لاننا لا نريد غرضا آخر

---

(١) نقلنا هذا عن الدكتور جوستاف لوبون في كتابه « الحضارة المصرية »

يا زمان !

للأستاذ خير الدين الزركلي

متى ترى ، تَبْسِم لي ، يا زمان ؟
ألا حَنَانْ !
أسلَمتني ، لا أُنسَ لي ، لا أمان ،
للحَدَثانْ !
عيناىَ - لمَّا تبرحا - تجريان ،
نَضّاختانْ !
أبكي ربوعًا لا تُطيقُ الهوانْ ،
رَهْنَ امتهانْ !

* * *

أبكي ديارًا خُلِقت للجمالْ
أبهى مِثال
أبكي تُراثَ العِزِّ ، والعِزُّ غال
صَعبُ المنال !
أبكي نفوسًا قعدتْ بالرجال
عن النضالْ !
أبكي جلالَ المُلك كيف استحال
إلى خَيَال !

* * *

ما لِرِحابي وجِنان الرحابْ
آضتْ يَبابْ !

ما لبنيها ، كلهم في اكتئاب
أسرى عَذاب !
أين أُولو طِعانِها والضِراب
أين الحِراب !
ما بالُ شِيبِ عُرْبِها والشّباب
غيرَ غِضاب !

***

ضاعتْ بلادي يا زمانَ الصّغارْ
والاندثارْ !
الناسُ يبنونَ ، وما في الديار
غيرُ الدّمار
أما تَرى الغَرب تعلّى وطار
فوقَ البحار
وأمّتي هاوية في انحدار
بئسَ القرار !

***

يا زَمنَ التوءم ، سقيتَ الشآم
كأسَ حِمامْ !
القبلتان اشتكتا ، والمقام !
مما نسام !
الى متى نبقى اسارى انقسام
ونستضام ؟
مصر تناجيك ودار السلام :
مل المقام . . ؟

بأي ميزان تزن الحياة (١)

بقلم الاستاذ توفيق دياب

اخواتى واخوتى

ذلك السر الغامض الذى يبدأ بالميلاد وينتهى بالوفاة ، ذلك السر الغـامض الذى نسميه الحياة ، ونرى أنفسنا فى غماره متدافعين الى الامام أو متراجعين الى الوراء ، ذلك البحر الخضم الذى تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطاً قصر أوطال ، نزعتنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل ، هذه المعركة التى نساق اليها غير مختارين ، وننفصل عنها غير مختارين . هذه الحياة ما هى ؟ وما غايتها ؟ ولماذا ولدنا ؟ ولماذا نموت

ليت أحداً يستطيع الجواب عن هذا السؤال فى كلمة أو كلمات . إذن لاستراح الفلاسـفة وأصحاب المذاهب المختلفة فى كنه الحياة . فقديماً كان . والى اليوم ما زال هـــذا السر الرهيب موضوع البحث الملح ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين . وليس عجباً أن يفكر الفلاسفة فى مرمى الحياة ، وانما العجب أن لا يفـكر فى مرمى الحياة جميع الناس !

نولد أجنة وندرج أطفالا وننشأ صبية ونراهق فتياناً ونستوى رجالا ونبلغ الكهولة وتدركنا الشيخوخة ، ان قدر لنا أن نعمر ، ثم ماذا ؟ ثم تجف الشجرة وتذوى الازاهير ويتسـاقط الورق ، وما هو إلا نفس أخير نلفظه فاذا نحن رفات ! وذلك دون أن نفكر يوماً لماذا ولدنا ولماذا حيينا ولماذا نموت ، ودون أن نفكر من أين جئنا والى أين نعود ، وهل جئنا من عدم لنعود الى عدم أو جئنا من وجود لنعود الى وجود ؟

وأنت مع ذلك إذا أخذتك سنة من النوم ، ثم استيقظت فوجدت نفسك فى غرفة لا عهد لك بها فلن تستقر على حال من الدهش ، حتى تعرف ما هذا المكان ومن ذا جاء بك اليه وكيف جاء بك ولماذا ؟ ستطل من نوافذ الغرفة لترى على أى حديقة أو فنـاء تشرف ؟ ستفتح الباب فان كان موصداً عالجته حتى ينفتح أو يتحطم . فاذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنة ويسرة فى ذهول وحيرة ، ثم جعلت تطوف بأرجاء الدار سائلا نفسك أين أنا وما هذه الدار ولمن هى وفى أية مدينة ؟ ولن يهدأ لك بال أو يسـتقر لك حال حتى تلقاك سيدة هى أشبه ما تكون بالممرضات ، فتنبئك بأن هذه الدار ـ عافاك الله ـ مستشفى وأن إغماءة طارئة غشيتك فخاف عليك والدك فاسرع بك إليه ، حتى اذا بشر الطبيب أباك بأن الأمر هين لا خطر فيه ، ترك لك

(١) من محاضرة القاها صاحب (الجهاد) في دار جمعية الشبان المسيحية بالقاهرة

الاقامة هنا أياماً الى أن تستعيد صحتك فترجع الى دارك سليما معافى!

حينئذ تدرك حقيقة المكان ومن جاء بك اليه وما السبب! فاذا عرفت أن الغاية هي استشفاؤك مما بك، لم يزدك علمك بهذه الغاية الا أخذا باسبابها واستيفاء لشرائطها، حتى يتم لك منها ما أراده والدك وما أصبحت تريده لنفسك

هذا شأننا من الدهش والتساؤل اذا طوحت بنا الطوائح الى مكان نجهله، فما بالنا تبعثنا الى هذه الدنيا قوة خفية على غير قصد منا ولا اختيار ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولا اختيار، نظهر ونختفى على سطح هذا المحيط الهائل، كالفقاقيع تنتفخ وتنفجر فى مثل لمح البصر دون أن يأخذنا دهش يدعونا الى الحيرة والتساؤل والتفكير!

لماذا بعثتنا القوة الخفية القدرة الجبارة الى هذه الدنيا؟ ألنقضي فى هنائها أو عنائها. فى صحتها أو مرضها. فى غناها أو فقرها. فى عدلها أو ظلمها. فى إخائها أو لددها. فى رفقها أو جفائها. أو فى مزيج من هذا كله ستين أو سبعين عاماً اذا طال بنا العمر؟

وما ستون أو سبعون عاماً فى امتداد الأزل الذى لا أول له، وفى امتداد الابد الذى لانهايه له؟ إن العلماء ليحصون السنين التى سلختها الانسانية على هذا الكوكب بالملايين لا بالالوف. ويقدرون لها البقاء فيه ملايين أخرى تربو على الأحصاء؟ فما أنا وما انت، وما نصيبى وما نصيبك من هذا السرمد الذى تحارفيه الألباب؟ ذرة ضئيلة من جبل أشم. قطرة هينة من محيط مترام

واذن فما حياتك وما حياتى وما حياة هذا الجيل كله وما حياة الامم الحاضرة كلها. حتى نجعل موضوع هذه المحاضرة (باى ميزان تزن به حياتك؟)

ان التاريخ المدون او المكتوب لا يعدو ستة آلاف من السنين. وهى التى شغلت اقلام المؤرخين. وهى التى ظهرت فيها حضارات واختفت حضارات. وارتقت امم وانحطت امم. وهى التى وقع فيها من المظالم والحروب وطغى فيها من الرق والاستعباد، وتقلب فيها من العقائد والأديان، واختلف فيها من طرائق الخير والشر، وتعاقب فيها على الجماعات والافراد من السعادة والشقاء، واظلم فيها من الضلالات والجهالات، وأضاء فيها من المعارف والعلوم ما يضيق عن الاحاطة به مئات الألوف من المجلدات. وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين. وما هى من ماضى الانسانية المجهولة ومن تاريخها غير المكتوب. وماهى من مستقبل الانسانية الذى لا تترامى الى حدوده عين الخيال — الا بمثابة الدقيقة الواحدة من الوف الاعوام

اذن أليس من الغرور أن أتكلم عن حياتك وحياتى وعن ميزان حياتك وميزان حياتى؟.

ما حياتك وما حياتى اذا قستها بهذا المقياس المخيف؟ انك لو نظرت اليها بالميكروسكوب لعز على الميكروسكوب ان يكشفها لمن ينظر اليها من افق الأزل القديم والابد الخالد

ألا تصدق؟ اذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذى عاش فيه أجدادك من البشر ملايين السنين

وسيعيش فيه احفادك ملايين أخرى لا يحصيها العد ، ان لم يصطدم به جرم سماوى آخر فاذا أرضك هباء فى مثل قصف الرعد — الا تعلم ان هذه الارض بماضيها الزاخر ومستقبلها الباهر انما هى شظية تطايرت من الشمس كما تتطاير الشرارة من التنور الهائل المستعر ، فجالت شرارتك فى الفضاء حتى أخذت مدارها من نظامنا الشمسى واستحالت حصاة (مستقلة ذات سيادة)

انا وانت وهو وهى وهم وهن آحاد فى عداد ملايين الامة المصرية . والامة المصرية احدى العشرات الكثيرة من امم هذا العصر . وامم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع الى ماض لا يدرك الخيال مبتداه . وتمتد الى مستقبل لا يدرك الخيال منتهاه على هذه الارض . وهذه الارض شظية كانت ملتهبة تناثرت من الشمس فدارت من نظام الكون حيث تدور ؟ فماذا عسى أن تكون حياتى وماذا عسى أن تكون حياتك ؟ لاسيما وانت تعلم ان نظامنا الشمسى ليس إلا واحداً من نظم كثيرة تماثله ، لو أطلنا التفكير فى كنهها وفى تلك القوة الخفية التى تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين فى التفكير، دون أن نزداد فى تفهمها إلا ذهولا وحيرة

سيداتى وسادتى : هل تحتملون منى كلمة جريئة ؟ اذن تفضلوا فاسمعوها :

اذا كانت الحياة هى الاعوام الستين أو السبعين التى نعيشها فى هذه الدنيا ، من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هى التى بعثتنا لحكمة ، ومن غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هى التى استدعتنا اليها لحكمة ، اذا كانت الحياة مصدرها العدم ومصيرها العدم ، اذا كان مولدنا فى هذه الأرض مصادفة لم تقصدها قوة مريدة مدبرة ، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة ، اذا كان وجودنا مجرد نتيجة آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية ، وكان زوالنا نتيجة مادية لاسباب مادية لا أقل ولا اكثر ، اذا كانت أيامنا برزخاً تاعساً بين بلقعين : بلقع الماضى قبل أن نولد ، وبلقع المستقبل بعد أن نموت ، اذا كنا فى هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة ، اذا كان كل هذا العناء وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه الخطوب التى نشاهدها أو نحتملها أو نكافحها فى سبيل الانسانية ، اذا كانت كل هذه الحضارات وهذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التى تسمو اليها الامم جيلا بعد جيل ، اذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلا مطلب واحد، هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أو ستين عاماً محدودة بحدين. عدم مطلق منذ الأزل وعدم مطلق الى الأبد. ماعدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين؟ — اذا كان الأمر كذلك فما أحمق الأحياء الذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعد ثم يعيشون ان الانتحار أولى بهم وأجدر . اما أنا فلو كنت منهم لانتحرت . ان هذه الأعوام الستين التى يعيشها المرء فى هذه الدنيا لاتساوى فى ذاتها غصة الفقر ولا ذلة الحاجة عاماً واحداً . انها فى ذاتها لاتساوى برحاء المرض الممض نصف عام . انها فى ذاتها لا تساوى احتمال ظلم الظالمين ولا جبروت المتجبرين . ان المرء ليصادف فى هذه الأعوام الستين أو السبعين من

ضروب الأذى ما لا يحتمله الا لشعور واحد، هو ان الحياة سر قديم خالد، لا حياة الجماعة فحسب بل حياة كل فرد من افرادها كبر أو صغر، جل فى نفوس الناس أو هان

اذا سألت بعض علماء المادة الذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية الى عدم. اذا سألتهم لماذا يعيشون ؟ قالوا نعيش طوعاً لغريزتين : غريزة الحرص على بقائنا، وغريزة الحرص على بقاء النوع. أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح فى الطفل يتجنب السقوط من عل ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة. واما حرصنا على بقاء النوع فواضح فى الأم تسـهر على ذراريها. والأب يعول أبناءه حتى ولو كانت الأم حيواناً اعجم

ونحن نفهم هذا التعلل بقوة الغريزة من غير السادة العلماء. فأما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز، فقد كان الاولى بهم اذا لم يؤمنوا بأن لحياة الفرد اتصالا وثيقاً بالخلود، كان أولى بهم أن يدركوا هذه الاعوام القليلة التى ستسلمهم عما قريب الى الفناء، هـذه الاعوام لا تستحق منهم عناء البحث والتنقيب فى مظاهر كاذبة، ولا تستحق منهم هذا العكوف على المعامل والآلات والمنظار المكبر والمنظار المصغر والتعليل والتحليل والكدح بالليل والنهار، للوصول الى حقائق مهما تكن فى نظرهم جليلة فهى تافهة مادامت هذه الخلائق الانسانية ـ والسادة العلماء فى طليعتها ـ كائنات تافهة تظهر اليوم من ظلام العدم لتنتهى غدا الى ظلام العدم. كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء وأن يقولوا للناس فيم الكد وفيم العناء فى سبيل غاية مقفرة مظلمة، الى العدم العاجل بيدك أنت ايتها الانسانية مختارة طائعة. فذلك اكرم واروح للبال من ان يحل بك العدم غير طائعة ولا مختارة

يقولون إن حياة الانسانية شىء وحياة الفرد شىء آخر. حياة الفرد الى العدم. فاما حياة الانسان فالى البقاء. لذلك يخدمون الانسانية بالعلم والفن والادب ليجىء الجيل اللاحق خيراً من الجيل السابق. ولتجىء الحضارة الاتية اعظم واروع من الحضارة الماضية. وهذا فى الحق سخف عظيم ! لأن معناه أن جميع الاجيال الماضية وجميع الاجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج، او مطايا وبراذع، يعلوها فى النهاية آخر جيل تتمخض عنه الانسانية. فاذا استوى الجيل الآخير على قمة المجد لم يكن بجده خالداً، بل كان بجده زائلا كذلك. ولو عمر الانسان الاخير بفضل العلم الف سنة ثم ينقضى هذا الجيل الآخر بانقضاء صلاح الارض للحياة. وانتهت الدنيا الى غايتها ! وفنيت حرارة الشمس وانطفأ ضياؤها، واستحالت البحار جليداً والشجر والنبات هباء، وأمست الانسانية عدماً مطلقاً الى آخر نسمة فيها ـ ولم يبق للانسان المسكين حتى ولا الذكرى. اذ من ذا يذكر الانسان وقد انمحى من صفحة هذا الكون آخر انسان. وانمحى لا ليسمو الى عالم آخر ولكن ليبقى غريقاً فى غمرات الفناء خالداً فيها أبد الآبدين

وحي جبال شاموني

بقلم الاستاذ سامي الجريديني

شامونى أو شامونيكس (Chamonix) قرية من قرى مقاطعة سافوا العليا تقع فى جبال الالب ترقب الجبل الابيض ويشرف هو عليها ، يقصدها الناس يصطافون فيها ويشتون . تنوع مناظرها فتنة وأشجارها الناطحة السحاب وصخورها صقلها الثلج من آيات الجمال الطبيعى

كان الكاتب الانجليزى جون رسكن (John Ruskin) يلجأ اليها يستوحى غاباتها وجبالها رسائل فى الاصطلاح الاجتماعى وقد انفق عليه وقته وماله فتأبى وتمنع وتود عليه أن يكتفى بما وهبته الطبيعة من نبوغ فى الفن والادب

وكان يأوى أيام اقامته بالقرية الى صخرة يضطجع عليها تظلله الاشجار موليا وجهه قبلة الجبل الابيض حتى اذا قضى نحبه نحت أهل القرية صورته من تلك الصخرة وعليها ودعوها صخرة رسكن ، وهي تعرف بهذا الاسم حتى الساعة

يممتها وجلست عليها ــ وما أنا من عشاق هذا الفنان ــ فما راعنى الا هذه العظمة فى الطبيعة وهذا الجمال ، وانصراف ابن آدم عنها الى لذة الجسد ومتاع الساعة ، وقد كتبت السطور التالية فى ذلك الوقت جزءاً من رسائل بعضها نشر وبعضها لم ينشر وانى لا أعلم ــ وقد حاسبت ضميرى ــ انها كانت أحسن ما كتبت أن وجد شيء حسن فيما كتبت

بم أشبه هذا الجبل . وبماذا ينبغي أن يشبه ؟

كيف أصف ما فى الجبال من عظمة ومن وقار ومن جمال يبدو لك وأنت بعيد عنه فيملأ خيالك اعجاباً ويصور لك هذا البعد الفن ممثلا فيه ، فاذا ما اقتربت منه ودخلت حراجه وتسلقت صخوره ولمست اشجاره ، ذعر خيالك اذ يرى الجمال والعظمة يذوبان رويداً رويداً امامه وينزلان من قمة التصور الى موطيء القدم

يبدو لك القريب الذى كان بعيـداً وتظهر عيوبه . فالشجرة قد اعتراها اليبس والصخرة تفتتت تراباً ، والارض منها المرتفع ومنها المنخفض شأنها فى كل الطرق على غير الجبال

فتبعد عن الجبل وقد ازدريته ثم تبدو منك التفتة الى الوراء فيعود يسحرك بجماله ويرجع فيأخذ عليك حواسك عظمة وجلالا

انه اشبه الاشياء بالنابغة العبقرى

تقرأ الشعر الخالد فتبني للشاعر قصراً شامخاً يكاد يمس عرش الآلهة ، فاذا قربت منه وخبرته أو قرأته ودرست حياته رأيته بشراً مثلك له كل عيوبك وقد لايكون له كل فضلك

وتسمع بالقادة الزعماء الذين استهووا الجماهير فساقوهم إلى الثورة أو إلى الحرب أو إلى الاصلاح فيصور لك البعد عملهم كالا وقولهم حكمة وتبرز لك أشخاصهم متقنة الصنع أبدع ما أتقن الخيال . ثم تتاح لك عشرتهم أو تطلع على سيرتهم الخاصة فاذا أنت أمام رجال مثلك يحبون ويكرهون ويغضبون ويرضون ويطمعون ويزهدون بل وقد يتسفلون حيث يعلو سواهم فتعود نادماً منكراً ما أعددته له من حق فى التصور وتزعم أنك أنت أولى بذلك منه

ذلك لان نظام الطبيعة فى الاشياء وفى الاشخاص يأبى الوحدة ـ ماذا أقول ؟ بل يأبى التناسق

فالطبيعة تكره الكمال ولا تسعى اليه رغم مايقوله لنا علماء الاخلاق . بل هي تجمع ماتناقض فى واحد . فحيث الذكر هناك الانثى وحيث السرور هناك الغم وحيث العلو هناك الهبوط وحيث الجمال هناك القبح

أرأيت إلى تلك الزهرة جميل لونها فائح عطرها قائمة على سفح الوادى يحييها المطر وتنعشها الشمس ، لا تلبث حتى ينهار عليها صخر من عل فاذا بها أثر بعد عين

لكل شيء فى الطبيعة ند يقاومه ولكل شيء فى الانسانية ثمن

إذا طمعت بالثروة فسعيت اليها وأجهدت نفسك فأحرزتها تفقر غيرك بل تفقر نفسك فى أمور أخرى

قد يتاح لك متاع المال ولكنك قد تحرم متاع الحب الطاهر أو الفكر النير او رحمة تبذلها للغير

افعل الشر تنل جزاءك من عملك بالذات وتر الخير قد برز من ناحية اخرى من نواحى ما عملت

انما عقابك على عملك أو ثوابك عليه آت فى دنياك كرهت أم رضيت . ولا تقس هذا الثواب او ذاك العقاب بمقياس عقلك فانك تضل السبيل،فعقلك ابن عاطفتك ووليد رغبتك لم يتح له ان يستقل عنها بعد . فالقانون الذى يعاقب السارق على سرقة من السرقات بالحبس سنة واحدة وآخر على سرقة أخرى بالحبس سنين ــ هل أصاب ووزع العدل بالسواء ؟ ألم تحرم الطبيعة السارق لذة الحياة المطمئنة ولذة العمل ولذة الكسب منه ؟ دع عنك ماحرمه اياه القانون . فالطبيعة تكره الكمال ولا ترضى عن عظمة تقوم الا ألبستها نقصاً . وكأن الانبياء اتخذوا من درسها صورة للخلود وللحياة الاخرى وما وضعوا فيها من ميزان عادل يوزع الامر بين الناس بالقسطاس

نعم . انما تجزى كل نفس بما صنعت وكل شيء بما هو عليه ليس فى الآخرة فحسب بل فى هذه الدنيا أيضاً

فقاموس المقاصة يوزع على الناس وعلى الاشياء أقساطهم فى حياتهم بله ما بعد الممات صعود وهبوط . غناء وفقر . وموت وحياة . عذاب وسرور . هذه هي الطبيعة بل هذه هي الحياة أمور تناقضت واجتمعت فى شخص فسموه عقلا وعواطف وسموه الانسان . واجتمعت فى شيء فسموه جبالا وبحاراً وبرداً وحراً وموتاً وحياة وسموه الطبيعة

٭٭٭

ما أشبه الجبل بالنابغة أو ما أشبه النابغة بالجبل ! فى أن كلا منهما يحتوى كلما حوله

فليس الرجل بالعبقرى ان لم يضم فى برديه كل آمال جيله وأمانيه وكل ماضى يومه وتقاليده وكل مطمح لامته وكل مثل عال

تقرأ النابغة فترى انه ترجم فكرك وقال ما هممت أنت بقوله فلذا سارت أقواله مضرب الامثال

وليس النابغة من يرتل الشعر فلا تدرك ما يقول أو يكتب فلا يعبر عن فرحك وحزنك وعن أملك وعن شعورك — لا — انما النابغة من أخذ أبسط الأمور فى الحياة فحاكها رأياً جامعاً فى ثوب لا يبلى ، او تناول اقرب الاشياء الى النفس فنطق بها فكراً حيا يعيش أبد الدهر

كذلك الجبل العظيم الضخم الجليل . انظر اليه — ألم يحو الصخور الكبير منها والمتحطم . والاشجار الشامخ منها والضارب رأسه فى الارض ؟ انه جمع الوحدات وضمها كلها ضمة واحدة حتى تكاد تخاله مستقلا عما حوى ، اذ يبهرك وقار عظمته . وما هو الا هذه الحجارة وهذا النبات اتخذوا شكله قالباً رفيع الشأن

٭٭٭

ايه جبال شامونى — ثم لجأ اليك واستظل غاباتك غير الكاتب الانجليزى الذى خلدت ذكراه من عبقرى ذائع الصيت او عبقرى صامت منزو او رجل عادى لم تر منه الطبيعة إلى فوق المستوى فابقته ثابت الايمان وطيد الرجاء — وكلهم ينشد فى خلوته على صخورك وتحت اشجارك العزاء فى احزانه او السلوة فى شجونه او الهناء اذ عز عليه فى الأندية البشرية

منهم من رأى فى جوارك بعينه وبقلبه فارسل وحيه كتاباً خالداً يأخذه الآخرون ويتمتعون به فى نفس هذا الجوار

شكراً ايتها الجبال الخالدة خلود ما توحينه إلى الناس — شكراً على اياديك البيضاء على على الناس

مقتطفات

بقلم الاستاذ احمد رامى

الى مصر

إنني في رباك فتحت عينيّ   فأبصرت أول الانوار
وسقاني النمير من نيلك العذ   ب فروى تعطشي وأوارى
وغذاني ثراك فاشتد غرسى   وصفا موردى وطاب قرارى
فيك اهلى وفيك مثوى أبي البر   ومغدى الخلصان من سمّاري
ونواحيك رددت ما افاض الشـ   ـعر في خلوتى من الاسرار
ومناحيك مسرح الفكر تجلو   لخيالى ما آلف التذكار
سمعت ضحكتي صبياً وأصغت   لنواحى يجيش في اشعارى

الى ام كلثوم

رنة العود شدوها وصداها   حنة الناى أو أنين الكمان
خلقت آهة فكانت عزاء   من هموم الحياة والاحزان

الجندى المجهول

كم يزور اليتيم قبرك ظناً   أن تكون الابر في الآباء
وتطوف الثكلى بمثواك زعماً   ان تكون الاعز في الابناء
ويلوب الاخ الحزين رجاء   أن تكون الاخ الحبيب النائي
كلهم فاقد وانت فقيد   وحد الحزن في اختلاف الشقاء
جمعتهم بك الامانى فأصبحـ   ـت لهم مبعث الاسى والعزاء

المـــــال

بقلم الاستاذ ابراهيم المازنى

اوصانى أبي وأبوه وكل جد لى الى الشيخ آدم، أن أكنز المال، قالوا: والمـال عصب الحياة بل هو الحياة، ولا قيمة لشيء فى الدنيا بغيره، وليس بحى من ليس له مال، وغاية حظه أنه موجود فى الدنيا ومحسوب فى الأحياء - على التسامح، قالوا: ولا حرية لفقير، ولا حق لمعدم، ولا كرامة لمفلس، واذا لم يكن للانسان مدخر حين عد اليد حتى الى الأجر الذى عملت به، فقد خضعت رقبته لمعطيه حقه وهان عليه أمره، قالوا: وكن من شئت أو ما شئت أدباً أو علماً أو خلقاً. فليس بمجديك هذا فتيلا ولا رافعك كثيراً أو قليـــلا، إذا كنت فقيراً، وأحر حينئذ بالادب أن يكون من ذنوبك التى تحصى عليك، وبعلمك أن يكون مدعاة لكرهك أو استثقال ظلك، وبالخلق الذى أنت عليه أن يجر عليك الهضيمة والغمط والاستخفاف، ثم كن من شئت فراغاً أو جهلا أو سوء خلق، فلن يضيرك هذا إذا كان لك مال، فانه شفيع لا يخيب، وستر لا يكشف، ودرع سميكة تقيك وترد عنك النصال مكسرة، ولا تصدق أن فى دنياك عدلا أو أن القوانين تكفل لك حقا، أو أن كونك إنساناً يجعلك مساوياً لأى إنسان سواك. انما العدل هو المـال، والحق هو المال، والمساواة هى المال. وعلى قدر مالك تكون الرغبة فى انصافك، والاجتهاد فى إعطائك حقك وتقديمك أو تأخيرك، ورفعك وحطك. بل نظرة الانسان الى الانسان ترق أو تجفو، وتدعو أو تطرد. وتكرم أو تهين، وترحب او تغضى، ويلمع فيها نور البشر أو يفترها الملال أو يسودها النفور، تبعاً لماليهما. والمال يقلب المذام محامد، والفقر يعكس الآية ويقلب القضية

قالوا: ولا ديمقراطية ما دام ان فى الدنيا شيئاً اسمه المال، لان المال يقسم الناس فريقين غنياً أى ليست به حاجة. وفقيراً أى به حاجة. ولا يستوى مستغن ومحتاج. وكل مايحاوله الانسان من تنظيم حياة الخلق على قواعد الاشتراكية او الشيوعية او غيرهما مما يمكن أن يخطر له عبث وباطل ومحال. فاعرف هذا واجعل همك وكدك جمع المال وتكديسه فانه اجدى عليك من كل تعبك تحت الشمس

قالوا: وقد كان اليونان الاقدمون يزعمون فى بعض اساطيرهم أن المرء بعد الموت ينحدر الى وادى الاشباح. وهناك يتلقى «اتروب» الموتى ويحصيهم. ويسلمهم الى «شرون» الموتى

ينقلهم على زورقه ويعبر بهم نهر « ستيكس » ـ او نهر النسيان اذا شئت ـ الى حيث يحاسبون . والنقل على الزورق بأجر ولا بد ان يؤدى الميت هذا الاجر الى شارون النوتى . والا امتنع عن نقله . وترك معلقاً بين الدنيا والآخرة

حتى الآخرة فيما تصف هذه الاساطير الاغريقية يلقى فيها ذو المال التيسير ويشقى فيها الفقير ، فاعرف هذا ولا تنسه

والمال هو الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، والشرف والضعة والكرامة والمهانة والقوة والضعف والقدرة والعجز . ولا تصدق من يقول لك غير ذلك . جرد الدنيا من المال تمح كل هذا ، وتترك الحياة باهتة مسيخة لا لون لها ولا طعم ، ولا طماح فيها ولا سعى ، ولا شيء من المغريات بهما . وقد اضنى الفلاسفة عقولهم فى البحث عن اصل الخير والشر وغير ذلك . والاصل تحت اعينهم . وهل ثم اصل غير المال ؟ ؟ ومن كان يرتاب فى ان الامر كذلك ، فما عليه إلا ان يتصور الدنيا ـ إذا وسعه ذلك ـ وقد خلت من المال . فكيف يراها تكون ؟ والى أى حال يرتد الناس ؟ وعلى اية قاعدة من الاخلاق او سواها تقوم العلاقات بينهما . وعلى انه لا حاجة لأحد ان يرهق نفسه ويكلفها ان تتصور هذا الذى يكاد يستعصى على الخيال . وبحسب من شاء ان يفكر فى اية خلة من خلال الخير او الشر فى ارتباط المال بها وأثره فيها . فان التأمل حقيق ان ينتهى به الى الايقان بأن المال ـ كائنة ما كانت صورته ـ يوشك ان يكون هو الذى اتاح للفضائل والرذائل ولخلال الخير والشر فرصة « التسمى » واعانها على البروز بعد ان هيأ لها ان تعرف بأسمائها . ولا شك ان المال لم يخلق فى النفس الانسانية نزعاتها وعواطفها ولكنه هو الذى اكدها واظهر الكامن فيها . واقام المعالم ورسم الحدود واحوج الانسان الى النظام والتشريع

وأذكر على سبيل التمثيل ان « ليكرج » المشترع الاسبرطى ، فطن الى فعل المال واثره فى الحياة وفى عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم ، فعمد الى الذهب والفضة فنفاهما وامر ألا تسك من هذين المعدنين الساحرين نقود ، وان تتخذ العملة من الحديد وجعل القيم خسيسة . فكانت القطعة الضخمة التى يعى بحمل ثلاث او اربع منها الرجل القوى ، لاتساوى شيئاً يستحق الذكر . فكان أن كف الناس عن ادخار المال لان الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطعة صغيرة من الذهب ، وانصرفوا عن البذخ والترف فى معيشتهم ، إذ كان الحديد لايقتنى ولاهو يشترى شيئا ، ولم يبق هناك ما يستحق ان يسرق فبطل التلصص وانقطع السطو وامتنعت الخيانة وما الى ذلك وزال التحاسد لان الغنى والفقر صارا اسمين لا حقيقة لها ولا فرق بينهما اذا اعتبرت الواقع ، ووقفت التجارة فى حدود البلاد وما وراءها ـ وعلى القارىء ان يتم الصورة ويلونها اذا وسعه أن يهتدى الى الوانها

وقد اتخذت النقود وما اليها فى اول الامر وسيلة لتسهيل المبادلة والمقايضة وما تزال كذلك الى يومنا هذا . ولكنها صارت تطلب لذاتها وتجمع وتدخر رغبة فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة . فتسابق الناس اليها وتهالكوا عليها وانقلبت غرضا يطلب ويسعى له . وان كانت قدظلت مع ذلك وسيلة الى ما وراءها مما تعين عليه . وهذا التهالك العنيف على المال واقتنائه هو الذى اظهر الكامن فى النفس الانسانية وكشف عن المستور ودفع به الى السطح وأطفاه على اللجة ،كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة حتى اذا جاش واربد قذف بما فى جوفه من طيب وخبيث

قالوا : وليس اقوى من المال إلا القدرة على الاستغناء عنه . فمن كره ان يحشد المال ويشدبه ازره ويقوى به ساعده فلينفض منه يده . ولما كان المال هو كل ما فى الدنيا مما ترضى عنه وتسخطه وتجله وتحقره وتفرح به وتحزن له ، فنفض اليد منه معناه ومؤداه نفض اليد من الدنيا نفسها . واذا كان المال قوة فان اقوى القوة ان تستغنى عن القوة . والزاهد الذى يصفى نفسه ويخنق شهواتها ويقتل اهواءها ويروضها على الاستغناء عن كل ما يطلبه الناس ويسعون له ـ هذا يخلق من روحه قوة تربى على قوة المال ولا تباليها

قالوا : اما ان تغنى او تزهد وإلا عشت محتاجا الى الناس ـ والناس من تعرف
كذلك اوصانى ابى وابوه واجدادى الى آدم

الشاعر

شاعر يطلب السمو على اجنحة الشعر في سماء الخيال
ويرى المجد في الخلود بما غنى فغنّى به فم الاجيال
صوته من فم الطبيعة ينساب انسياب الحياة في الاوصال
كيف تفنى انغامه وهى فى الكون نشيد من لحنه السيال

احمد رامى

محور الادب (1)

بقلم الاستاذ مخائيل نعيمة

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

هو الانسان ـ عبرة العبر وحيرة الحير ، يجيء من حيث لا يدرى ، ويمضى حيث لا يدرى . يحل هذه الارض ردحاً من الزمن فيبهره جلال ما يرى ويسحره جمال ما يسمع . فوقه نجوم لا تعد . وحوله فضاء لا يحد ، وخلفه وأمامه حياة ترتدى كل لحظة برداء . فصول تعقب فصولا ، وأجيال تلحق بأجيال . نهار تبتلعه ظلمة . وظلمة يمحوها نهار . ولادة وموت ، وموت وولادة . وبين الولادة والموت أشواق لا تنطفىء حتى تلتهب . وآلام لا تسكن حتى تهيج . وسعادة لا تورق حتى تذوى . وعطش لا يرتوى حتى يعود . وجوع لا يطمئن حتى يثور

هو الانسان ـ أحجية الاحاجى . منذ راودت نفسه اليقظة حتى اليوم وهو فى صراع مستتب مع الطبيعة . لا يصرعها مرة حتى تصرعه الف مرة . ولا يتغلب على عثرة من عثراتها حتى تقيم فى سبيله الف عثرة وعثرة . ولا يرفع الغطاء عن سر من أسرارها حتى تباغته بالف سر وسر . فهى غالبة أبداً وهو مغلوب . ومن الغريب انه ، مع ضعفه الواضح وجبروتها الظاهر ، لا يزال يصارعها . فلا هو ينثنى ولا هى ترحم . ولا هو يقر لها بالغلبة ولا هى تسحقه فتستريح منه وتريحه

فما السر فى حرب هذا « الحيوان المستحدث » مع كون ، ما هو بالنسبة اليها إلا حشرة صغيرة ؟ تصرعه الحياة فلا يلبث حتى يعود منتصباً على ساقيه متحفزاً للوتوب. تجرعه من المرارة ألوانا فلا ينقم عليها ولا يتركها الا قسر ارادته . وتنزل به من المصائب أشكالا فيتحملها بثبات وصبر . وتقيم فى وجهه من العقبات جبالا فلا تثنيه عن سيره ولا تثبط عزيمته

ان « حيوانا » يثبت فى جهاده مع السكون مثل هذا الثبات لحيوان وايم الحق غريب عجيب !
فما السر فى هذا الثبات ؟

أوليس السر فى ان لهذا الحيوان « المستحدث » سلاحاً لا تحطمه العناصر ولا يفله الموت ؟ وهل ذلك السلاح الا قوى كامنة فيه هى أشد وأمتن وأبقى من قواه الحيوانية ؟

تلك قوى الروح غير الفانية . تلك القوى التى ترفعنا فوق الحيوانية ، وترينا فى دياجير الحياة

(1) اخترناها له من كتاب (الغربال) وقد وضعت مقدمة لمجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١

وميض أنوار تحبب الينا الحياة وتذكي في داخلنا شرارة أمل بأن لابد أن ندرك يوماً ما مانحن طالبون . أي . هي قوى الروح تسيرنا على غير معرفة منا ونشعر بها لكن لاندركها بعد . لذلك نبحث عنها حتى اذا ما وجدناها وجدنا أنفسنا فعرفنا اذ ذاك منزلتنا من الكون وسرنا معه لا ضده لنتم به ويتم بنا

أجل . اننا في كل ما نفعل وكل ما نقول وكل ما نكتب انما نفتش عن أنفسنا . فان فتشنا عن الله فلنجد أنفسنا في الله . وان سعينا وراء الجمال فانما نسعى وراء أنفسنا في الجمال . وان طلبنا الفضيلة فلا نطلب الا أنفسنا في الفضيلة . وان بحثنا عن مكروب فلا نبحث الا عن أنفسنا في المكروب . وان اكتشفنا سراً من أسرار الطبيعة فما نحن الا مكتشفون سراً من أسرارنا . فكل ما يأتيه الانسان انما يدور حول محور واحد هو الانسان . حول هذا المحور تدور علومه وفلسفته وصناعته وتجارته وفنونه . وحول هذا المحور تدور آدابه . فهو في كلها يسعى وراء أمر واحد . وهو أن يظهر نفسه لنفسه عله يدرك القوى التي تسير به في بحر الوجود ولا قيمة لعمل يأتيه الا بمقدار ما يدنيه ذاك العمل من معرفة نفسه أو يقصيه عنها . وسواء أدرك الانسان ذلك أم لم يدركه فهو أبداً يقيس كل مايأتيه بهذا المقياس . فيهمل منها ما لا يزيده بنفسه معرفة . ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهراً من مظاهر نفسه . وما تاريخ المدنية لو فحصنا الا تاريخ هذه الغربلة الدائمة والمقابلة بين الامور وانتقاء ما فيه أثر روحي جليل واهمال ما ليس فيه من أثر يذكر

ان على سطح الارض ملايين من البنايات التي شادتها يد الانسان من قديمة وحديثة . لكن الآثار الهندسية التي تقر بها العين وتنتعش بها الروح لا تعد بالملايين ولا بالالوف . وفي العالم جبال من الرسوم والتماثيل . لكن الرسوم والتماثيل التي نقف أمامها بخشوع ودهشة تعد على الاصابع . وفي مكاتب العالم قناطير مقنطرة من الآثار الكتابية . فكم هي الكتب التي ما تزال تقصدها البشرية لترشف المعرفة والحكمة من سطورها ؟

قد يخطىء الانسان اليوم في حكمه على أثر من الآثار . فيستكبر الصغير ويستصغر الكبير . قد يخطىء جيلاً ، لكنه لا يخطىء دهراً . فالأثر الخالد لا يموت . والميت لا يعيش . ولا يخلد من الآثار الا ما كان فيه بعض الروح الخالدة

بين كل المسارح التي تتقلب عليها مشاهد الحياة ليس كالادب مسرحاً يظهر عليه الانسان بكل مظاهره الروحية والجسدية . ففي الادب يرى نفسه ممثلا ومشاهداً في وقت واحد . هنالك يشاهد نفسه من الاقماط حتى الاكفان . وهنالك يمثل أدواره المتلونة بلون الساعات والايام . وهنالك يسمع نبضات قلبه في نبضات قلب سواه ويلمس أشواق روحه في أشواق روح غيره . ويشعر باوجاع جسمه في أوجاع جسم انسان مثله . هناك تتخذ عواطفه الصبا. لسا با من عواطف

الشاعر وتلبس أفكاره رداء من نسيج أفكار الكاتب . فيرى من نفسه ما كان خفياً عنه وينطق بما كان لسانه عيا عن النطق به فيقترب من نفسه ويقترب من العالم . فرب قصيدة أثارت فيه عاصفة من العواطف ، أو مقالة تفجرت لها فى نفسه ينابيع من القوى الكامنة ، أو كلمة رفعت عن عينيه نقاباً كثيفاً . أو رواية قلبت إلحاده الى ايمان ويأسه الى رجاء وخموله الى عزيمة ورذيلته الى فضيلة . تلك مزية قد خص بها الادب . وتلك هى مملكة الادب لا ينازعه عليها منازع . وما سلطان الادب الا فى انه أبداً يجول فى أقطار النفس باحثاً عن مسالكها مستطلعاً آثارها مستفسراً أسرارها . وما شرف الاديب الا انه أبداً يشاطر العالم اكتشافاته فى عوالم نفسه حتى اذا ما وجد آخر بعضاً من نفسه فى تلك الاكتشافات كان ذلك للاديب اطيب تعزية واكبر ثواب

إذن . فالادب الذى هو أدب ليس الا رسولا بين نفس الكاتب ونفس سواه . والاديب الذى يستحق ان يدعى أديباً هو من يزود رسوله من قلبه ولبه

ان « الرابطة القلمية » ما كانت لتقدم هذه المجموعة الى قراء العربية لولا اعتقادها بأنها قد اتخذت من الادب رسولا لا معرضاً للازياء اللغوية والبهرجة العروضية . وقد تكون مخطئة فيما تعتقد . لكن اخلاصها فى الاقل يشفع بخطئها . فهى لا تدعى لهذه المجموعة اكثر مما تستحق . فان لم يكن لها الا تشويق بعض الارواح الناشئة الى طرق الادب عن سبيل النفس لا عن سبيل المعجمات فحسبها ثواباً . فقد كفانا ما عندنا من المعجزات اللغوية وآن لنا ان نتعطف ولو بالتفاتة على ذاك « الحيوان المستحدث » الذى كان ولا يزال سر الاسرار ولغز الالغاز ، لعلنا نجد فيه ما هو أحرى بالنظر والدرس من رأس السمكة فى قولهم : « اكلت السمكة حتى رأسها »

مجاملة اللئيم

فى الناس ان فتشتهم　　　من لا يعزك أو تذله
فاترك مجاملة اللئيـــ　　　ـم ، فان فيها العجز كله

ابو فراس

الفقر والسقام

من قصيدة للاستاذ معروف الرصافي

أى مضنىً يعدها باكتئاب	أنَّة تنزل الحَشا فى التهاب
يتشكى والليل وحف الاهاب	ضمن بيت جثا على الاعقاب
صفعته فمال كف الخراب

تسمع الاذن منه صوتاً حزيناً	راجفاً في حَشا الظلام كمينا
يملأ الليل بالدعاء انيناً	رب كن لى على الحياة معُينا
رب إن الحياة اصل عذابى

وجعٌ في مفاصلي دقَّ عظمى	ودهاني ولم يَرقَّ لعدمي
عاقني عن تكسبي قوت يومى	رب فارحم فقري بصحة جسمى
إن فقرى اشد من اوصابى

يا طبيباً واين مني الطبيب	حال دون الطبيب فقر عصيب
لا أصاب الفقير داء مصيب	إن سقم الفقير شيء عجيب
بطلت فيه حكمة الاسباب

رجل معسرٌ يسمى بشيرا	كان يسعى طول النهار اجيرا
كاسباً قوته زهيدا يسيرا	مالكا في المعاش قلباً شكورا
راجياً في المعاد حسن المآب

عال اختاً حكته خلقاً نزيهاً	عانساً حوز ازواجُ سنيه
لزمت بيت امها وابيه	مع أخيها تعيش عند أخيه
مثله في طعامه والشراب

كل يوم له ذهاب ومأتى	في معاش من كده يتأتى

هكذا دأبه مصيفاً ومشتى فاعتراه داء المفاصل حتى
عاقه عن تعيش واكتساب

بينما كان فى قواه صحيحاً ساعياً في ارتزاقه مستميحا
إذ عراه الضنى فعاد طليحا ورمته يد السقام طريحا
جسمه من سقامه في اضطراب

بات يبكى إذا له الليل آوى بعيون من السهاد نشاوى
فترى وهو بالبكا يتداوى قطرات من عينه تتهاوى
كشهاب ينقض إثر شهاب

إن سقماً به وعدماً ألما تركاه يذوب يوماً فيوما
فهو حيناً يشكو إلى السقم عدما وهو يشكو حينا الى العدم سقما
باكياً من كليهما بانتحاب

ظل يشكو للاخت ضعفاً وعجزا إذ تعزيه وهو لا يتعزى
أيها الاخت عز صبرى عزا إن للداء فى المفاصل وخزا
مثل طعن القنا ووخز الحراب

قد تمادى به السقام وطالا وتراءى له الشفاء محالا
اذ قلاباً من السقام استحالا كان هيناً فصار داء عضالا
ناشباً فى الفؤاد كالنشاب

* * *

ظل ملقى وأعوزته المطاعم موثقاً من سقامه بالاداهم
منفقا عند ذاك بعض دراهم ربحتها من غزلها الاخت فاطم
قبل أن يبتلى بهذا المصاب

قال والاخت اخبرته بأن قد كربت عندها الدراهم تنفد
احبرى السقم علّه يتبعد أيها السقم خل عيشي المنكد
لا تعقي في عيشتي عن طلابي

رام خبزاً والجوع أذكى الاوارا   في حشاه فملته انتظارا
ثم جاءت بالماء تبدي اعتذارا   وهل الماء وهو يطفيء نارا
يطفيء الجوع ذاكيا في التهاب

خرجت فاطم الى جارتيها   وهي تذرى الدموع من مقلتيها
فأبانت برقة حالتيها   من سقام ومن سعار لديها
وشكت بعد ذا خلو الوطاب

فانثنت وهي بين ذل وعز   تحمل التمر في يد فوق خبز
وبأخرى سمنا وبعض أرز   منحوها به وذو العرش يجزى
من أعان الفقير حسن الثواب

***

ليلة تنشر العواصف ذعرا   في دجاها حيث السحاب اكفهرا
ذا هزيم يعج في الاذن وقرا   حين تبدي صوالج البرق تترى
كهربائية سرت في السحاب

مد فيها ذاك المريض الاكفا   في فراش به على الموت أوفى
طرفه كالسها يبين ويخفى   حين يغضى طرفا ويفتح طرفا
عاجزاً عن تكلم وخطاب

فدعته والعين تذرى الدموعا   اخته ، وهي قلبها قد ريعا
يا أخي أنت ساكت أفجوعا   ساكت انت يا اخي ام هجوعا
فاشفني يا أخي برجع الجواب

فرأت منه انه لا يجيب   فتدانت والدمع منها صبيب
ثم أصغت وفي الفؤاد وجيب   ثم هابت والموت شيء مهيب
ثم قامت بخشية وارتياب

خطبة الاستاذ فكري أباظة[1]

في تياترو الكورسال

شهدت القاهرة أمس في الساعة السادسة مساء بعد زمن طويل عطلت فيه المنابر حفلة سياسية كبرى لم تشهدها منذ اعوام . فقد احتشد في مسرح الكورسال الرحب الواسع الارجاء مالا يقل عن أربعة آلاف مستمع وكان الخطيب هوالاستاذ فكري اباظه . والمدهش ان تذاكر الدعوة وزعت بطريقة خفية بارعة لم يتصل خبرها برجال البوليس حتى أصبحوا امام الامر الواقع . وعبثا حاولوا فض الاجتماع . فان الحماسة كانت جنونية فوق التصور . وكان في مقدمة الحاضرين اصحاب السمو الامير عمرطوسن . والامير عمرو ابراهيم . والاميراسماعيل داود . ودولة عدلى يكن باشا . ومحمد محمود باشا . واقطاب الوفد والاحرار والحزب الوطني . والسيدة الجليلة هدى هانم شعراوي . وشريفة هانم رياض . وغيرهما من السيدات زعيمات النهضة النسوية . وهذا هو نص الخطاب الجامع :

سيداتى . سادتى :

الله اكبر ! الله اكبر ! ولله الحمد

اهتفوا من صميم الفؤاد هتافا يزحف زحف العاصفة على « لاظوغلى » اهتفوا صائحين . . . لتحيي الحرية ! ! (هتاف وتصفيق حاد متواصل)

التقينا أخيراً أيها السادة بعد طول الفراق حول المنبر المقدس . منبر الخطابة العامر بروح الله ، وأمر الله ، ولو طال الامد ! (تصفيق)

حذار حذارأن تستمروا مندفعين وراء قلوبكم . متفززين بفعل عواطفكم . متحمسين بعد سجن اللسان ، واغلاق الآذان ، واقفال البيان ، والغاء الاذهان

أخشى أن يكشف التصفيق مخبأ الحرية . فيقتحم الكونستبلات الابواب

(أصوات لا . لا . ليكن ما يكون . .)

حسنا . سيداتى وسادتى : احرسوا الابواب بالقلوب . فلن تقوى عليها العصى ولن يقوى عليها الطوب . . .

خبرونى . خبرونى : بأى حق فى شريعة الدين . وشريعة القانون . وشريعة العدل والانصاف

---

(١) احسن ماكتبت من ناحية واحدة ،هي تصوير الخيال في صورة حقيقية جازت على الكثيرين وعلى المثقفين بنوع خاص . فظنوا انه حدث بالفعل اجتماع خطير في ملهي « الكورسال » مع ان الحكومة اذ ذاك كانت تمنع كل اجتماع فضلا عن ان « الكورسال » كان حينئذ قد هدم ولم يخلف الا الانقاض ...

والمساواة . يخطب دولة « صدقى باشا » الف خطبة وتحرم المعارضة من خطبة ؟

خبرونى . خبرونى : بأى حق يجول دولته ويصول . ويلف ويدور . ويكرم ويعظم . ويامر « الراديو » بنقل الكلام الى بورسعيد وأسوان وبنها وقنا . ويحرمنا نحن حتى أمس — من مجرد الهمس ؟!! (ضحك وتصفيق طويل)

خبرونى . خبرونى : بأى حق يظل الناس ما يقرب من ثلاثة أعوام يسمعون (المواويل) و (المنولوجات) و (الطقاطيق) من « مطرب » واحد . ومن « تخت » واحد . ومن « مؤلف » واحد . والناس فى ذوق السماع مختلفو المشارب ، متباينو الامزجة . والسماع لذة تمتزج بالمشاعر والعواطف وبحرية الاختيار ؟ ! وكيف يشنف الاذان — ويملأ الاذهان — ويزيل الاشجان : مطرب بيننا وبينه هوة — و « يغنى بالقوة » ؟ ! ! (ضحك وهتاف متواصل)

صدق محمد عثمان أو عبده الحمولى اذ غنى وقال :

عشـنا وشـفنا سـنين ومين عاش يشوف العجب !

(أصوات : الله ! الله ! . كان كان . . .)

سيداتى . سادتى . . .

(هنا يشرب الخطيب كوب ماء فيهتف السامعون : بالهنا والشفا . .)

أشكركم سادتى وأعتذر اليكم من كثرة شرب الماء . انى متعطش الى ماء النيل هـذه الايام فانى أشعر أن النيل بفضل خزان جبل الأولياء ومشروع بحيرة تسانا سيجف وينضب ! . . .

(تصفيق حاد وهتاف : النيل لنا !)

أخشى سادتى اذا استمر الحال على هذا المنوال أن نموت من الجوع — وأن نموت من العطش ! ولكن « الله » سبحانه وتعالى لن يرضى بهذا و « رسل الله » صلى الله عليهم وسلم لن يرضوا بهذا . وان رضى به « أولو الامر » منكم ! ! ! (تصفيق طويل)

سيداتى وسادتى . . .

راجت فى البلد إشاعة جبارة منذ شهر واحد بان « قصر الدوبارة » و « لاظوغلى » قد وضعا مسودة المعاهدة . ثم قيل لنا أنهم « بيضوها » (ضحك وهتاف عال . . .)

. . . ثم قيل لنا انهم « بيضوها » واستحضروا من الخارج « قلم لوكارنو » فقبض عليه السير برسى لورين ووضع على اليمين حرف « الباء » : ثم قبض على القلم دولة صدقى باشا ووضع على اليسار حرف « الصاد » . . .

صحيح هذا سيداتى وسادتى . ولـكن بارك الله فى « عبد العزيز باشا فهمى » وبارك الله فى زملاء « عبد العزيز باشا فهمى » فقد شطبوا « بقلمهم الاحمر » العدل حرفى « ابه » و « صدد » و « نقضوا » بحكمهم معاهدة لاستقلال والاستعباد ؟!!

(تصفيق حاد متواصل استمر خمس دقائق)

فشلت المعاهدة « بالجملة » فهم يتعاهدون اليوم « بالقطاعى » ... وسعر «القطاعى» أيها السادة كسعر السمن ، والسكر ، والصابون ، والرز ، أغلى على مصر وعلى أبناء مصر من سعر « الجملة » ؟ !

ولكنى أصرح من فوق هذا المنبر واهيب بسير برسى لورين صائحاً : حذار حذار من بطلان الصفقة . راجع جيداً توكيل المتعاقدين وابحث فى القوانين ــ « عقود المضوليين » ! . .

(تصفيق وهتاف)

سيداتى وسادتى :

ان ثقتنا فى القضاء ثقة عظيمة . وابشركم بأنى قدمت « للمجلس الحسبى » طلباً بتوقيع «الحجر» على الحكومة ، وقد حدد رئيس المجلس جلسة قريبة هى على كل حال قبل نظر الميزانية . وثقتى عظيمة بأنى سأربح الدعوى . بقى عليكم أن توافقونى فى اختيار «القيم» ومن يكون الاجدر بتولى القوامة ، ودفع الكارثة ، واصلاح المختل والمعتل ، وانقاذ حالتنا المالية

سيداتى وسادتى :

كل شىء يسير وفق المرام فى هذا الشهر المبارك المكرم . وقد استجاب الله على ما أظن دعاء الصائمين المصلين المزكين الطاهرين . بقى امر واحد ينغص عليكم وعلى عيشى وعيشكم ــ بقى امر واحد لن يغتفره لكم خالقكم وبارئكم ــ بقى امر واحد سيكون عار الاجيال القادمة ولطخة الجيل الحاضر ــ بقى امر واحد يكسر العين ويكسر الخاطر : بقى هذا الشقاق المتسرب الى صفوف الامة . بقى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس . بقى الخلاف الذى ينشب فى المعسكر وتشتعل ناره فى المعتقل ــ بقى « الشروع فى الانتحار » لغير سبب ولغير موجب ــ بقيت « الهزيمة » التى تسبق المعركة الفاصلة . ان « العيد » على الابواب فما انبلها وما اجلها فرصة تنتهزونها للوئام والسلام . ان الوطن يناديكم متوسلا بأرق الاصوات ، وأحسن الرجاء ، فان لبيتم نداءه ، واجبتم رجاءه ، عرفكم فى وقت الشدة رجالاً وابطالا . وان وليتم للوطن ظهوركم ، وتماديتم فى خلافكم حلت عليكم لعنته ــ واصابتكم جميعاً نقمته ! !

هيا . هيا . وبادروا اليه قبل أن يحمل « الدخيل » نعشه ، ويواريه رمسه ، فيسجل التاريخ انكم قاتلوه ...

ان « مصر » تحتضر والدواء فى أيدى الابناء فمن منكم يمد يده ؟ !

إيه ايتها « الرجولة » انى ابحث عنك فهل تظهرين ؟ . . .

ان « مصر » فى الانتظار !!

شبابنا في المجتمع[1]

بقلم الاستاذ محمود أبو العيون

ان الحروب والثورات التى هى أصل من أصول التخريب فى العالم ، كما قد تكون مصدر نكبة لأمة من الامم ، قد تكون لاخرى مصدر خير وبركة ، فمن يقرأ تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر ير ذلك واضحاً كل الوضوح . وهذه الحرب العالمية الكبرى أحيت عالما جديداً لم يكن مذكوراً فى التاريخ ، وأماتت أقواما آخرين ، ومصر مثلا ، كانت ثورتها العسكرية سنة ١٨٨٢ نكبة لها من أعظم النكبات فى تاريخ الامم ، نكبة قلبت أوضاعها ، وغيرت نظام حياتها الذى أقامه منقذ مصر العظيم محمد على . وكانت بركة وخيراً لأمة أخرى . وجاءت بعدها ثورة الشعب سنة ١٩١٩ ونتائجها من الناحية السياسية يقدرها دهاقين السياسة ، أما هذا الكاتب فانه لا يشك فى أن نتائجها من النواحى الاخرى المختلفة كانت من اكبر الشرور والويلات على مصر . فالناحية الدينية والناحية الخلقية والناحية الاجتماعية قد تصدعت ، وعصفت بها العواصف والارزاء . فما كنا نراه من الصفات الحميدة ، والآثار المجيدة من تلك النواحى ، أصبحت الآن لا يحلها الناس فيما بينهم محل الاستحسان ، ولا ينظرون اليها بعين القبول بل قابلوها بما شاءوا من الاغفال والاهمال

« ان الفضائل والاخلاق والآثار الادبية لا تتأثر بالظروف ، ولا حكم للحوادث عليها ، فهى هى ثابتة ، ولكن تقديرها ، ووضعها فى منزلتها الملائمة لشرفها ، والوقوف بها عند حدها ، كل ذلك يختلف باختلاف الاغراض التى تتولد فى النفوس ، والاخطاء فى الاحكام ، وعدم الانصاف فى التقدير » فالنفوس قبل هذا العهد كانت بعيدة عن الاغراض والهوى ، فكانت احكام الدين والاخلاق ، وقواعد الاجتماع التى تواضعت عليها الامة تدرك مقبولة معتدلة . أما الآن فقد غشى الناس ما غشيهم من طغيان المدنية ، وسحرهم من بهرجها الزائف ما جعلهم فى فتنة وضلالة ، فانقلبوا ساخرين بكل كمال ذاتى ، وشرف معنوى

ان الناس بما أصابهم من الشكوك والريب فقدوا الثقة فى كل شىء حتى فى أنفسهم وأصبحوا يقفون بإزاء ضرورات الحياة موقفاً حرجاً . جعلهم من بعضهم فى شبه عزلة ، لا يكاد يلوى

(١) اخترناها لفضيلته من ضمن عشر مقالات كتبت هذا العام فى صحيفة الأهرام تحت عنوان : « صيغة الاخلاق في عهد الحرية »

أحدهم على أخيه الا لمصلحة مشتركة ، ولقد تحدث صديقاً لك فى عمل انسانى ، أو تطلب اليه اقامة حق مهضوم ، فيرفع جراميزه ، ولا تكاد تقع له على ظل

الشباب المصرى الذى كان زينة الشباب ومفخرة الاجيال ، والذى تقحم الثورة افتداء لعزة الوطن من الضيم ، وشرف الحرية من الاذلال ، والذى استعذب الآلام فى سبيل العقيـــدة ، وضرب المثل الخالد للتضحية ، والثقة بالنفس ، أصبح هذا الشباب نفسه بعد الثورة والحرية أرجوحة فى يد الاهواء وعبث الايام ، فقد قداسة العقيدة ، وشرف الحرية وعزة الوطن

ان القحط الخلقى قد أصاب اكثر جماعة الشباب ، فأوهى فيهم الروابط الاجتماعية والشعور بالواجب ، وان الرذائل التى تمكنت من نفوس الكثيرين وانغمسوا فى حمأتها جعلتهم كالوحوش الضارية ، بل هم أحق منها بصفة التوحش ، فان كل نوع منها يعيش بسلام وأمان ، ولا سلام ولا أمان بيننا

أصبح الكثير من شبابنا يحذقون الملق والكذب والنفاق ، ويألفون الذلة والهوان ، وأصبحت الكفاءات والمؤهلات بمقدار ما يبذله الشاب لرئيسه من التخضع والمداهنة والرشوة ، الرشوة التى قيل فيها اذا دخلت من الباب ، خرجت الامانة من الطاق ! . وبعد ان كانت قيمة العاملين ما يحسنونه من الاعمال ، أصبحت قيمتهم بمقدار ما يقدمونه من وسائل الزلفى للرؤساء ولو غير شريفة ! و بذلك تعلم سر ايثار هذه « الامعات » على غيرها من النابهين ، وسر فقد الامانة والاخلاص فى العمل ، وسر انجاز المسائل ذات الاختصاص على يد هؤلاء الاغرار ، وظهور الفضائح والمعرات بسبب ذلك فى الدولة ، وسر كثرة الموظفين على قلة الوظائف ، ثم المحاباة أصبحت هى العلة وهى الداء

هذا الشاب الذى كان يخطب على منبر الثورة ويقول : أيها الشيوخ الواهنون الذين عشتم تحت ظل الاستعباد ، وأحنيتم رءوسكم الى الغاصبين ، وسلمتم البضاعة الى الاعداء ! دعوا الكراسى للشباب فانهم أمناء على تركة الماضى النبيل ، ورسل المستقبل الحافل بالحياة والنور

هذا الشاب ، وزملاؤه شباب الثورة ، مكنت لهم الايام ، وملكتهم كبريات مناصب الدولة فأصبحوا شراً على المناصب وعلى الاخلاق وعلى الوطن ، وكأنهم بسبب ما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا اليه من النخوة والكبرياء تمثلوا انهم تحللوا من ذمة الماضى وعهد الحاضر وتكاليف المستقبل ، وتخيلوا ان الحرية هى تحطيم قيود الذمم ورباطات الشرف ، فكانوا أسوأ حالا من العبيد الارقاء ، إلا من عصمه الله تعالى بعزة النفس وشرف الضمير

وانك لا تجد بين زمر الشباب المتعلم الا القليل ، من لا تنازعه نفسه الى فجور ، ولا تفتح له عين لريبة ، ولا يلحقه فى ذلك ذم ، ولا تناله وصمة . ولقد نظم كثير من أولئك الشباب

للمآتم والمشاين دوراً ونوادي يختلف اليها الجنسان ، وفي ساعة يغفل فيها الزمان ، تستباح كرامات وتمتهن أعراض !

ومن ذلك نشأت المشكلات العصرية ، وفيها العظات البالغات لشباب هذا البلد وشوابها . وقد تناول مكاتب المقطم الاسكندري في الاسبوع الماضي ثلاث وقائع وقعت في الثغر ، نذكر واقعة منها ففيها العبرة الكافية :

ذهب نجل اميرة ، وهو معروف بالبذخ والتبذير ، الى ناد يجتمع فيه « أبناء الذوات وبناتهم » لقضاء السهرة والرقص واللهو ، وجلس مع فتاة الى مائدة في النادي ، واذا باجنبي من كبار التجار يصل في تلك اللحظة ويطلب من الشاب ان يخلي المكان ، لان الفتاة له لا لغيره . واشتد بهما الكلام واللجاج . فانهال الشاب باللكم على الاجنبي حتى كاد يرميه على الارض لولا ان تداركه ضابط أجنبي فاشتبك مع الشاب بالملاكمة ، وتدخل البوليس ، وسيق الجميع الى القسم ، وتولت النيابة التحقيق ، أما الضابط فقبل اعتذار الشاب وانسحب من القضية التي أحالتها النيابة الى محكمة الجنح حيث يمثل الوجيهان من أعيان المدينة أمامها بعد ما ثبت للنيابة ان الاجنبي لا يتمتع بالامتيازات

وعلم مكاتب المقطم ان أهل الفريقين يسعون للصلح قبل المحاكمة حذراً من العواقب والقيل والقال

ومن البلية ان تجد نفوس أولئك الشباب قد مرضت مرضاً خلقياً ، لا أرى علاجه هيناً . فهم لا يرون عيباً في اقتراف أي شائنة تكون بعيدة عن العمل الرسمي لان تلك في نظرهم الخاطيء مسائل شخصية لا تسيء الى العمل ولا الى المجتمع في شيء ! وأعجب ان تكون حالهم على ما وصفنا ، ثم يؤمنون في وظائفهم على دانق أو سحتوت . وهل الذمم تتجزأ ، والضمائر تتقسم ؟

وفقد كثير من الشباب مضاء العزيمة وشجاعة النفس ، والدأب على الصعاب . فقلما يزاول عملا عظيما أو يعالج من الامور جسيما ، فخانه الحظ أو استعصت عليه الغاية ، الا تصدع قلبه وطار شعاعاً ، وقعد ملوما محسوراً ، وربما عمد الى الانتحار ! وذلك ضعف خلقي بعيد المدى

ولقد نضرب المثل للشجاعة ، وقوة النضال والمثابرة ، بالرومي الافاقي يفد الى هذه البلاد معدما مكدوداً ، فيظل يعالج شؤون الحياة خاسراً ورابحاً وهو ينازل الحوادث ويعارك القدر . حتى يخرج من المعمعة ظافراً منصوراً

ثم التعاون والتكافل والتعاضد والتضامن أصبحت هذه أسماء لامسميات لها في المجتمع لدى يمثله رجال الثورة وشبابها الأمناء ! كانوا كتلة واحدة . لهم غرض واحد وأمنية واحدة . هي خدمة الوطن من طريق الحرية والاستقلال . فما بالهم تفرقوا طرائق قدداً . وما بالهم أصبحوا

أحزاباً وشيعاً . وما بالهم مزقوا جسم الوطن المسكين . وأعملوا فيه السلاح وأثخنوه بالجراح . وما تلك الشهوة التي ملكت عليهم نفوسهم واستهوت أفئدتهم ؟ لقد صرنا الى شر ما تصاب به الامم من التفكك والانحلال . « فهذا البعض لا يربح الا بخسارة الآخر . وهذا القوى يدوس الضعيف . والضعيف يدوس الاضعف .وكل ميال الى ضرر أخيه . يعتبر الهفوة منه ذنباً عظيما . والزلة جرماً كبيراً . وتجـــاوز ذلك إلى الافراد فى المعاملات وفى الوظائف وفى الحالات البيتية . أصبح الرئيس لا يثق بمرءوسه ، والمرءوس لا يأمن رئيسه . وأصبح الأخ لا يأمن أخاه ، والابن يستطيل عمر أبيه ويعده بالأيام للميراث . وصار الضيف لا يأمن مضيفه ، ولا الصهر صهره . وجعـل الزوج يفكر فى التخلص من زوجه ، والزوجة تدبر المكايد لزوجها . والجار يخون جاره . والشريك يغش شريكه» . وما الى ذلك من نقض العهود ، وخلف الوعود والسلب والنهب وثلم الأعراض

ومن الغريب ان الجمهور فى هذا البلد يدرك ما وصل اليه من هبوط الأخلاق والانحلال . ويتخوف سوء المنقلب . وما من عاقل تقابله الا شكا اليك سوء الحال وطالع لك ما وراء العواقب . ومع ذلك تجد القوم لا يعملون على تدارك الخطر ورأب الصدع . وذلك لعمرى آية الهزيمة وعلامة الادبار

هذه الآفة الاجتماعية ، وهى القحط الخلقى والتحلل من قيود الأخلاق والفضيلة والدين ، ليست مقصورة على فئة دون فئة . ولا على طبقة دون طبقة بل الكل سواسية فى البلية . « وكأن الناس صاح فيهم صائح الشر فلبوه من كل مكان ، وكأن القوانين والشرائع ضعفت عن معالجة الحالة وعجزت عن صد سيلها الجارف وتيارها المتدفق »

فهل تجد ـ لا أراك الله مكروهاً ـ تفككا اكثر من هذا التفكك . وهل تجد ثلمة فى بناء المجتمع أوسع من هذه الثلمة . وهل هذا المجتمع يقال فيه مجتمع مريض يرجى له شفاء ؟ أو أنه مجتمع أصيب بالشلل والفناء ؟

وهل تلك الحرية التى أصبناها كانت علينا نعمة سابغة ! أم نقمة شاملة ؟ « الحق أبلج والباطل لجلج ! »

في الأخلاق

* نحن لسنا محتاجين لكثير من العلم . ولكنا محتاجون لكثير من الأخلاق الفاضلة
* كل شريعة تؤسس على فساد الأخلاق فهى شريعة باطلة

سعد زغلول

الازهار المداسة[1]

بقلم الامير مصطفى الشهابي

كنت البارحة أنحدر الى دمشق من داري فى سفح (قاسيون) فاسترعى نظرى جار يدوس أزهاراً ذابلة ملقاة فى الطريق ، منها ورد وخطمي وخشخاش ومرغريتا وغيرها . وتتخللها زهرات صغيرات من الفل ، وكلها قد حال لونها وفسدت رائحتها وزالت نضرتها وطاحت بهجتها . فتذكرت على الفور قصيدة مرقصة عنوانها « السجينة » لشاعرنا العربى الامريكى الرقيق « ايليا ابو ماضى » نشرها فى المجلد الخامس والستين من المقتطف ووصف بها زهرة كانت تعيش فى الحقل قريرة العين هادئة البال سعيدة بالتراب الغنى والهواء النقي والطل الندى ، ونور الشمس ودفئها وتراقص الاغصان على موسيقى الرياح ، وتطاير الفراش فى النهار وتهاوى النيازك فى الليل . فاذا بغاو من غواة الزهر يقطفها مغتبطاً بها فيضعها فى زهرية ويسجنها فى غرفة . فتألم وتتفجع وتستغيث من نظرات الفساق وأنوف النشاق وفجور العشاق . فلا رقص الكواعب فى القصر كرقص الفراش فى الحقل ، ولا المصابيح المتلألئة فى الابهاء كنور الحباحب الضعيف فى الدجى ، ولا الماء الغزير الذى تسقاه فى الزهرية كقطرات الندى فى منبتها ، ولا عطر الحسان فى عبقته كريح التراب فى فغوته . ويشتد السجن على تلك الزهرة المسكينة فتصغر وتذوى وهى فى شرخ شبابها والفصل ربيع والهواء عليل ، حتى اذا ذهب رواؤها وعز شفاؤها طرحت خارج الدار فديست بالنعال

نظرت الى الجار يطأ تلك الازهار دون أن يتعذر أو يتخشع ، فدنوت منه وبدأت الحديث بتلك القصيدة العصماء ثم قلت : تدرى ياصاح أن الازهار الجميلة النادرة نبتات يظل الزهارون يتعاهدونها سنين عديدة بالتنغيل تارة والتهجين أخرى ، ثم بالانتخاب والاصطفاء حتى تجيء كما يريدون من حيث تلوينها وتزيينها وتبريقها ، وأنهم بعد هذا يبيعون النبتة الواحدة من الصنف الجديد بعشرات من الجنيهات ؟ وهل علمت أنى قبل بضعة أيام بينما كنت عازماً على زيارة أسرة من الاسر لاح لى ألا أدخل الدار فارغ اليدين فصرت الى زهار فوالله مارضى أن يبيعنى باقة حقيرة يحملها الطفل فلا تثقله بأقل من ليرة سورية والناس فى ضيق والازمة مستحكمة الحلقات تشد على أعناق الناس وتمنع الكسرة من الرغيف عن حلوقهم ؟! وإذا استسهلت الليرة السورية فسل سهل بن هرون عنها يجبك بمثل ما أجاب الرجل الذى استعطاه درهماً وهو قوله : « لقد هونت الدرهم وهو

---

(١) اخترناها له . . .

طائع الله فى ارضه لايحصى وهو عشر العشرة والعشرة عشر المائة والمائة عشر الالف والالف دية المسلم . ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هونته . وهل بيوت الاموال الا درهم على درهم . . »

لقد عبد بعض المصريين الاقدمين اللوطس وتوهموا أن الاله (رع) يلد من زهرته . وقدسوا الجزيرة وتخيلوا (هاتور) تخرج من بين أوراقها لتجعل الناس من الخالدين . وسمى العلماء بعض الازهار باسم آلهة اليونان والرومان . واتخذ الناس كثيراً من أنواع الزهر علامات يدل كل منها على ضرب من النعوت والصفات المستحبة المستملحة. فالبنفسج للحشمة والورد للجمال وهكذا . وشبه الشعراء أعضاء الحبيب بصنوف الزهر فجعلوا الخدود كالورد واللحظ كالنرجس والشفة كالشقائق . أما بعض الهواة من الشعوب والملوك فقد خص كل منهم نفسه بزهرة أو بنبتة فكانت شعاراً له ودليلا عليه كالنخلة شعار العرب ، والاقحوان والكاميليا شعار اليابان تراها على نقودها وطوابعها ، كما ترى زهرة الآلام والزهرة الخالدة وعود الصليب على طوابع الصين . ولكم حفر النقاشون زهرة الزنبق على الأسلحة القديمة ، واعتز الانكليز بالوردة والارلنديون بالطرفيل واسبان غرناطة بالرمان وجمهورية البرتغال بالبرتقال

ولما رأيت الجار ساكتاً يصغى الى حديثى الطويل الممل استرسلت فيه قائلا :ــ

هلا أنعمت نظرك فى أوراق هذه النبتات التى تدوسها بنعالك وأدركت أشكالها العجيبة من بيضية وسنانية وسهمية ومستطيلة واهليلجية وكاملة ومفرضة الى عشرات من الصفات المختلفة ؟ وهذه الزهرات التى تعركها بحذائك ، هلا علمت أنها أجمل الاشياء على هذه الكرة وأنقاها وأحبها الى قلب الانسان بألوانها الزاهية الانيقة وأشكالها المنتظمة الرشيقة وطرق ازهرارها المتفاوتة ؟ وهل جال فى خلدك أن تدخل قبة الصخرة فى القدس أو المسجد الاموى و دمشق فترى تزاويق الزهر وتعاريج الورق فى زخرف عربى أخاذ ، ما برح ولن يبرح بهجة العين ودهشة المتأمل منذما صبغته اليد الصناع أيام كان الامويون ملوك الارض وسادة هذه الدنيا ؟ ثم هل عرجت على تدمر أو بعلبك فرأيت الازاهير كيف تنقش فى الصخر الاصم لشغف الناس بها ! أو جزت الصالحية على الفرات أو أفامية على مقربة من العاصى فلقيت بنظرة على تلك النباتات المزهرة التى كونوها من دقائق أحجار الفسيفساء ! ولكم نقش المصريون الاقدمون زهرة اللوطس وورقتها على هياكلهم وآنيتهم ونقودهم وحليهم . وكم سحرت أوراق الاقحوان فنانى اليونان والرومان فأوجدوها على أعمـدة قصورهم وهياكلهم . ولم يكتف الاوربيون فى القرون الوسطى بهذا النبات بل نقشوا على جدران الكنائس زهر النيلوفر والسوسن والبنفسج وغيرها

ومالنا والناس نبحث عن حبهم للزهر فى الحقب الخوالى ؟ افلسنا نرى فى أيامنا هذه رجالا متأنقين لكل منهم زهرة خاصة به لاتفارق معطفه البتة ؟ ونرى كواعب من فوارس النساء لايستقبلن فى منازلهن إلا والزهر فى شعورهن أو فى نحورهن أو على أكتافهن حتى على خصورهن ؟! ولله در

الذي قال : إن الزهر يتبعنا من المهد الى اللحد . فاذا ولدت استقبلوك بالزهر واذا ختنت كللوك بالزهر واذا عيدت أهدوا اليك الزهر واذا أعرست غمروك بالزهر واذا انتقلت الى جوار ربك بعد عمر طويل حملوا الزهر أمام نعشك وفرشوا به قبرك أو نثروه عليه نثراً . وأى دار كبيرة تخلو من حديقة للازهار يتولاها بستاني لبق ؟ وهل بهجة الدار غير أزاهيرها الفتانة ؟ ومهما حقرت الدار وكان صاحبها من ذوى الفقر والخصاصة فهى لاتخلو من زهرة فى حوض أو فى أصيص يبسم لها صاحب الدار كلما مر من أمامها وشاهد كأسها السندسية وتويجها النضر وأسديتها المتوائبة ومدقتها المعمورة بمباهج الحياة . ورب بيت حقير فى المزرعة الصغيرة عرشوا على جدرانه الياسمين أو الورد أو زهرة الآلام أو اللبلاب أو الظيان أو أشباهها فكستها بأغصانها المتشابكة وأوراقها المخضلة وأزهارها الفتانة حتى صيرت البيت أروع فى العين من جلال القصر المنيف . ثم لابد لى أن أحدثك عن الزهارين وفنهم فى ايجاد الزهر المبكار والزهر المئخار . وعن أسواق الزهر فى حواضر البلاد وعن بائعات الزهر ومنهن الجميلات المغريات اللواتى تكاد تفضلهن على ما يبعنه . وعن أعياد الزهر وكيف تنتهك فيها حرمة هذه المخلوقات الملائكية ليلهو ابن آدم بشقائها . وعما يستعمل من الازهار فى عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الشعانين وغيرها من الاعياد . وكل هذا يحتاج الى وقت طويل وانما نحن نتحدر الى دمشق وجارى الذى قصصت عليه هذا الحديث ساكت لم تتحرك له شفة . ولما هممت بالعودة إلى تعنيفه على وطئه للازهار الملقاة فى الطريق ما كان منه إلا أن قدم الى زهرة من الفل كانت فى يده وقال : « تمتع برائحتها اليوم وأعدها إلى غداً » ثم انصرف ما يبدىء وما يعيد . فلما كان الغد قرع على باب الدار باكراً وقال : « أين الفلة » فقلت : « ذبلت فألقيتها » قال : « ووطئتها أيضاً أو وطئها غيرك دون أن يتحرج أو يتأثم . فاعلم ياصاح أن هذا هو مصير كل حى فى هذه الدار الفانية وان كل ما تحدثت الى به البارحة عن قداسة الزهر ولزوم رعايته كلام اجوف لاطائل فيه . فالزهرة لها عمر محدود متى استوفته عادت الى التراب فاندمجت به فاغتذت بها زهرة ثانية الى أن تهرم هذه فتموت فيكون مصيرها مصير الاولى وهكذا . فأما والازهار بالغة أجلها سواء أكانت فى الحقل أم فى غرفتك أم على رأس غادة حسناء فمن البلاهة بمكان ألا تتمتع بها على الشكل الأتم . وما برح الضعيف مسخراً للقوى والحياة عراك بين الاحياء مستديم . ولو ان الانسان اقتصر على الاضرار بالازهار وعف عن ايذاء ابناء جنسه لكان الخطب أهون والبلاء أيسر . ولكن هيهات . . . »

يشم ندامای الرياحين بينهم ... وذكرك ريحاني اذ دارت الكاس
ولو كان يلقى الناس من لاعج الهوى ... عسير الذى ألقى دن هلك الناس

العباس بن الاحنف

ابراهام لنكولن

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعى

لا نستطيع أن نزعم بحق أنه فى مكنتنا إيفاء حق « ابراهام لنكولن » من البحث والتحليل فى موجز تاريخى كالذى نحاول كتابته عنه فى هذه الصفحات القليلة . ومن الحق علينا أن نعترف بادىء ذى بدىء — احتراماً للتاريخ والعلم ، واحتراماً للبطل الذى نكتب عنه ، ولأنفسنا — بعجزنا عن استيعاب حياة ذلك الرجل العظيم ، والمفكر الكبير ، والمصلح الجرىء ، التى تملأ القلوب والانظار والأسماع هيبة وروعه وجلالا . ذلك لأن حياة العظيم عظيمة مثله : فما هى لعمركم إلا سلسلة متصلة الحلقات متعددة الوجهات ، مترعة بأجل الدروس وأمتع العظات ، وليس الى حصرها من سبيل ، وليس دون الانتفاع بسنتها ، والاهتداء بسنى ضوئها ، من حد ولا نهاية . وإنما قصارى ما نرمى اليه ونرجوه لشبابنا ، وفلذات أكبادنا ، وعدة آمالنا فى مستقبلنا ، أن يلموا معنا إلمامة متواضعة ، بصاحب هذه السيرة المتواضعة ، الذى يكفيه من فخر سرمدى ، ومجد أبدى ، ما أصابه فى أخريات جهوده المتواصلة من توطيد عرى الاتحاد بين بلدان أمته ، وتحرير نصف أبناء جلدته . . . كلا بل تحريره نصف البشرية قاطبة من ربقة الرق والاستعباد ، ونير الاجحاف والاستبداد ، الى نور الحرية والاخاء والمساواة . . . آملين أن نهتدى جميعاً بهديه ، فنعمل متكاتفين متساندين على ما فيه خدمة الاوطان ومحبة الانسان لأخيه الانسان

ولد بطلنا « لنكولن » الرئيس السادس عشر للجمهورية الأمريكية فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ ولسنا نحفل كثيراً بأن نقف على سنة ميلاده بقدر حفلنا بتتبعه فى توقله ذرى المجد ، ومثابرته الدءوب فى خدمة الانسانية ، وبقدر ما نحفل بدرس عوامل عصاميته ، وتفهم صريح سياسته ، والاحتذاء باصالته ، والاقتداء بكياسته ، وبقدر ما نحفل باشباع نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من نزيه طعمته ، وبرىء وطيته ، ونبيل طويته ، وبقدر حفلنا أن نكون على غراره وقالبه ، نعيش للوطن ، ومن أجل الوطن وفى سبيل الوطن ، ونحيا للواجب ، ومن أجل الواجب ، وفى سبيل الواجب

لقد نشأ « لنكولن » فى حجر العوز والفاقة يقوده الأمل ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة

عالية ، ونفس كبيرة . فصهرته يد الزمن القاسية ، اذ ضربه الدهر بضرباته ، ورماه بنكباته ، فكونت من نفسيته النقية ، وسجاياه الرضية ، وقلبه الرءوم ، وسعة أعطانه الحدبة الرحيمة ، الرجل العظيم حقا ، والبطل النزيه السمعة الحسن الاحدوثة ، المتوثب العزيمة ، والمستحصد الهمة . كونت منه حمال الاعباء ، طلاع الثنايا . كونت منه رجلا حلب الدهر أشطره (١) . كونت منه زعيم الشعب ومعلمه ومدرب الوطن وخادمه . وكونت منه حاكم الامة في غير صلف ولا اغترار ، ولاجبروت ولا استكبار ، كونت منه أمة في رجل ورجلافي أمة ، وأخيراً كونت منه المغني الخالد للوطنية الخالدة ، والرمز الصادق للعزيمة الصادقة . كونت منه المبدأ الحق لهذا الخلق ألا وهو « الفناء الشخصي إزاء الصالح القومي »

أي شبابنا الناهض :

ليست العظمة الحقة أن يولد الرجل معها مخولا ، ولا هي في عراقة الارومة والنجار ، وسعة الثروة والعقار ، ولاهي في أن ينشأ الانسان سرياً يشار الى هيله (٢) وهيلمانه ، وطمه ورمه بالبنان (٣) ولا في أن يصيب من غفوة الدهر وغفلته قرن الكلأ (٤) ، ولا في أن يستمتع بما في الحياة من هيء وجيء (٥) . كلا وربكم ! وإنماهي فيما هو أنبل واسمى: انها في الخلق . في الكدح في العمل . ثم هي لعمركم في الايمان بما في أعناقنا جميعاً — مهما تباينت أسناننا ، واختلفت أعمالنا ، وتفاوتت مراتبنا — من واجبات نحو الوطن وأبناء الوطن

أي شبابنا الناهضين :

ليس في الفقر من هنة ولاعاب . إنما الهنة والعاب في أن يكون الرجل عالة على غيره . قعدة جثمة (٦) لا يعي مايراد ولا ما يشاد . و « ابراهام لنكولن » لم يقعد به فقر أبيه التجار المزارع المسكين الذي كان يذرع فضاء الارض عساه يجد مزرعة تقيم من أوده وتسعفه بما يسد الرمق . بل كان لآبه (٧) الصغير وهو اسم « ابراهام لنكولن » منذ ميعة شبابه وطراوة إهابه — كان له من عمله المتواصل وجده الدائم هامة الفخار وسمة الاعتبار بين اللدات والاقران . فلن يقعد بالرجل فقره بل جهده . ولن يسمو به جاهه أو ماله . وإنما تسمو به مواهبه وكفايته وفعاله

ولننتقل الآن أبناءنا الاعزاء الى مسألة أخرى جديرة باكبابكم ودرسكم ، حرية بانتباهكم وتوثب هممكم ، قمنة باقبالكم وانعامكم ، الا وهي أثر المرأة الفاضلة في تكوين الرجل الفاضل . وللمرأة الكاملة الاثر الاول في تكوين النزعة الخلقية الاولى . لما لها من اليد الطولى في امداد الوطن بجند الوطن الأصحاء ، وكماة الوطن الاقوياء ، ومحرري الوطن الاوفياء

---

(١) يقال للرجل المجرب للامور : « قد حلب الدهر أشطره » أي قد قاسى الشدائد والرخاء وتقلب في الفقر والغنى (٢) أي المال الكثير (٣) اشارة الى كثرة المال وتنوعه (٤) يقال لمن اصاب مالا وافراً لم يصبه سواه : اصاب فلان قرن الكلأ (٥) الهيء : الدعاء الى الطعام . والجيء : الدعاء الى الشراب (٦) الجثمة : النؤوم الذي لا يسافر (٧) (Abe)

فقد ماتت أم « ابراهام لنكولن » وهو لم يعد التاسعة من عمره . ماتت ولاطبيب يعالجها ولا قسيس يواسيها . ماتت فعمل لنكولن مع والده على تجهيز كفنها ، واعداد الوسائل اللازمة لدفنها

تلك صدمة عنيفة لا يقوى على تحملها قلب صبي ناشيء مثل « لنكولن » . ولتلك الصدمة بلا ريب آثارها الحسنة إلى جانب أثرها المادى السيء . فليس من شك أن لنكولن سيتذوق من بعدها معنى الاحتمال والجلد والصبر على المكاره . وليس من شك أنها ستبذر فى قلبه الكليم وفؤاده الكسير معانى الرحمة والحنان والبر والاحسان . ومع هذا فان القدر العادل لم يحرم لنكولن من عطف الأم ، وان كان قد حرمه من شخصها . ذلك انه قد حدب عليه قلب زوج أبيه الجديدة التى أتيح لها أن تعيش فيما بعد فترى بعينيها آبه (١) الذى علمته صغيراً وعطفت عليه يافعاً . تراه وهو الرئيس الأعلى للجمهورية الامريكية فى المرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة . تراه رئيساً عادلا يشرفه على الدوام أن يدعو أمته الى المساواة السياسية العادلة ، لانه يرى فى المساواة بقاء الامم وسعادة الافراد . تراه فى مركز الحاكم بأمره ، من تعنو له الوجوه وتخضع له الرقاب ، فلا يحكم الا حقا وعدلا ، ولا يسير بين الرعية تيها وعجبا ، بل كان رمز الادب اليانع ، والخلق المتواضع . تراه بين ظهرانى جنده فى حومة اوغى مواسياً ومشجعاً بلا ازورارجناب ، أو رصد أبواب ، وكثرة حجاب . . كما يفعل غيره من عتاة الولاة الذين يظنون أنهم مخلوقون من طينة غير طينة رعيتهم ، بل كان لهم نعم الرفيق والزميل . ونعم المعين والظهير ، ونعم الراعى المسئول عن رعيته

أى شبابنا الناهضين :

ان فى حب « لنكولن » لزوج أبيه معنى سامياً فلا يعزبن عن أذهانكم . وجدير بكم أن تمعنوا فيه طويلا . لقد ماتت والدته وأراد القدر أن يبنى والده من حليلة أخرى لتعمر بيته وترفه عنه متاعب الحياة . ولتضيء بنورها جوه القاتم ووكره الحالك . فلماذا يمقتها ويعمل على إيذائها ؟

إنها زوج أبيه فهى صنو والدته وبديلتها فلم لا يشب على حبها والتعلق بهـا ، اما ارضاء لعاطفة والده ، أو احتراماً لمركز الامومة المضحية التى هى رمز لها على الدوام ؟

ثم ماذنب المرأة فى ذلك الصنيع وهى أجدرعلى الدوام بالعطف والتقدير فاذكروامعشر الشباب والشابات مركز لنكولن من زوج أبيه ومكانها منه . وانظروا نظرة رثاء لمن ينهج غير منهجها ونظرة مقت وكره لتلك الحوادث الاجرامية التى تقع الفينة بعد الفينة فى مثل ذلك الموقف الذى هو أخلق بالحنان والرعاية ، وأولى بالبر والعناية

فعليكم بالتسامح والوفاء . وعمروا قلوبكم بالاخلاص والولاء ، وكونوا لآبائكم وزوجاتهم بر الأبناء

---

(١) لا راهاء لنكولن لقب Abe أثناء صغره كما اسلفنا

الاسترقاق عند المصريين وفي الاسلام

بقلم سعادة احمد شفيق باشا

لعلى لا أستطيع التفضيل بين « أحسن ما كتبته » وبين غيره لأنى ـ كما تعلمون ـ لست الكاتب الفنى الذى يعنى بتنميق العبارة وتزيين الاسلوب بانواع الاستعارات والتشبيهات والمحسنات البديعية ، ولكننى عالجت الكتابة مذ عالجتها لتحمل حقيقة علمية أو تاريخية ، ولتؤدى رأياً عن لى أو حكما استخلصته من وقائع شهدتها ورويتها أو نحو ذلك

ولئن كان قد تفضل الكاتبان الكبيران الاستاذ توفيق دياب والاستاذ جبت؛ فوصفنى أولهما بانى رجل جد يدخر للمسائل العملية ، ونعتنى الآخر بانى من أساتذة المدرسة الحديثة ـ على حد تعبيره ـ فذلك فضلهما أرادا أن يسبغاه مشكورين

وفى الحق أن كل ما كتبته عنيت به أحد أمرين او الأمرين جميعاً : أولهما عدم وجود نظير فى اللغة العربية ، ثانيهما اظهار ماخفى على كثيرين من أدق المسائل التى كان لها فى تطورحياة مصر السياسية والاجتماعية والعلمية أثر بليغ . واذا راجعتم كتابى « حوليات مصر السياسية » أو رسالتى « قناة السويس » أو غيرهما تبين لكم وجه ما أقول

كما ان كل مطلع على الجزء الاول من « مذكراتى فى نصف قرن » ـ الذى ظهر اخيراً ـ يرى أننى كما قلت آنفاً رجل لايعنى الابأبسط الحقائق لابسة ثوب الصراحة والصدق ، وان كان نشر مثل هذه المذكرات امراً غير معهود فى الشرق

على أنه اذا كان الابن البكر عادة أعز البنين عند الآباء ، وكانت ذكريات الشباب أبدع ما يهز النفس فان رسالتى « الرق فى الاسلام » ـ وهى أول نتاجى الفكرى ـ لها فى نفسى المحل الاول

كتبت هذه الرسالة تحت تأثير فكرة نبيلة انقدحت فى نفسى حين ساقتنى الظروف فسمعت محاضرة فى الموضوع من الكردينال لافيجرى فكان من أثرها تصنيف هذا الكتيب

ولئن كنت قد حررته بالفرنسية فان صديقى العزيز المرحوم الاستاذ احمد زكى (باشا) تفضل بنقله الى العربية وكان ذلك فى عام ١٨٩٤ واليكم فقرات منه :

الاسترقاق عند قدماء المصريين

كان الرقيق فى مصر عبارة عن آلة للعمل وكان أيضاً من الاشياء المعدة لشهود الحرية ومصاهر

الآلهة. فكان الارقاء بقصور الملوك وبيت الـكهان ودار المقاتلين. ثم ان الفاقة جعلت لسائر الافراد سبيلا إلى امتلاك الارقاء ايضاً. وكان الاسارى على العموم ارقاء للدولة يقومون بالاعمال والاشغال التي تستلزمها حاجات القطر او التي تدعو اليهـا موجبات زخرفته وتحسين هيئته. وفيما عدا هـذه التشديدات الخاصة بالاستخدام في الصالح العام قد تحسنت حالة الرقيق وتلطفت كثيراً، فكان يجوز رفع الامة إلى مقام الزوجة. ثم ان الاخلاق والعادات كانت تقضي بالشفقة على الرقيق والدفاع عنه. بل ان الشريعة كانت تجعل حوله سياجا يقيه من البغي والاذى فقد قضت على أن من قتل الرقيق يقتل به

الرق في الاسلام

قبل الخوض في هذا الموضوع ينبغي لنا أن نأتي بالايجاز وبوجه العموم على ذكر الاسترقاق عند الامم المختلفة فنقول:

الرق هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكا للغير. قالوا ان الاسترقاق ظهر منذ كان الاجتماع الانساني وهو قول في غاية الاصابة والسداد، فانه ظهر حقيقة عندما وقعت الاجتماعات البشرية الاولى أيام كان حجاب الجهالة مسدولا على عالم الفطرة. والذي أوجب حصول هذا الفعل هو أمر يسهل بسطه وايراده. وذلك انه لما كان العمل من أصعب الضرورات وأشقاها أخذ الانسان في البحث عما يخلصه من عنائه ومكابدته فاذا بطلبته بين يديه عند الهيئة الاجتماعية، فان القوي الزم الضعيف بالاشتغال ومن ذلك نشأ الاسترقاق

ثم جاءت الحروب وتولدت الاطماع فبثت الاسترقاق في جميع أجزاء العالم وعنـد معظم الامم، وصار الناس لايقتلون العدو بل يبقون عليه ليعمل لهم. هذا واعلم ان طبيعة الاقليم، وهي من أقوى العوامل في انحاء الجمعيات البشرية، كان لها تأثير عظيم في زيادة الاسترقاق واتساع نطاقه، حتى انه مالبث حتى بلغ عنـد الامم التي على البساطة والفطرة في جميع بلاد المشرق مبلغاً عظيما ودرجة قاصية وانتشاراً زائدا، فان ثمن الرقيق كان زهيداً وعمله مقيداً بالنظر إلى ما صارت اليـه الصناعة والتجارة من التقدم والاهمية. ولقد كان الحال على خلاف هذا المنوال عند أمم الشمال فان تغذية الرقيق عندهم كانت تكلفهم نفقة عظيمة ولم يكن لعمله كبير جدوى ولافائدة. فلهذا كان الاسترقاق في بلاد الشمال منذ العصور الخوالي أقل انتشاراً منه في جهات الجنوب من المعمورة. وهذا يدلنا على أن الاسترقاق هو من الامور الاقتصادية التدبيرية المترتبة على العمل والاشتغال. ولنبحث الآن في حالة الرقيق عند الامم المختلفة واحدة واحدة

فقيد الامة العربية (١)

للشاعر القروى

لحيٌّ برغم القبر فليخسإ الردى ... وقد سلم الغازي فلا يهنأ العدا
ولو كل موت يضمن الخلد سارعت ... اليه ملوك الارض مثنىً وموحدا
ولو كل حظ حظ غازي من العلى ... تفاءلَ بالدنيا مهلٌّ فانشدا
بنيتَ له المُلكَ الذي هو أهله ... وأطرفت ما هارون بالامس أتلدا
فمكّنت آساساً وزخرفت قبةً ... وذهّبت آفاقاً وأطلعت فرقدا
ورممت في بغداد عرشاً مهدماً ... وخلفت في الاكباد عرشاً مؤبدا
وما أنت إلا السيف أعقب خنجرا ... بلوناه في الجُلّى فكان المهندا
لدن أدّب الجبار بالصيغة التي ... تداول أسماع النجوم لها صدى (٢)
وصب على رأس السفير صواعقاً ... نزلن على أكبادنا البرد والندى
رآه وقد ضلّ الهدى فانتضى له ... يداً قدحت من عينه النور فاهتدى
يمينَ شريف تقعد الطود قائماً ... ولو شاءت اليسرى أقامته مقعدا
أذابت قلوب الخائنين وفوّرت ... دماً في عروق الانجليز تجمدا
ليرضَ عليك الله باسبط أحمد ... فانك قد أرضيت جدك أحمدا
شفيت بهذا الموقف الحر نفسه ... وزحزحت عن صدر العروبة جلمدا
وكم غضب أدنى من الحلم للتقى ... وأهدى الى المجد الرفيع من الهدى
وما شأن مَلْك سامه العبد ذلة ... وأبرق صعلوك عليه وأرعدا .!
وكم تاج ملك صار نيراً لربه ! ... وكم صولجان عاد في العنق مقودا .!
أيزعم ذو القرنين أنك عبده ... ومثلك من يلقى السلاطين أعبدا
تعود منا أن نغض على القذى ... فعودته نسيان ما قد تعودا

---

(١) اخترناها له من قصيدة في ذكرى الملك فيصل

(٢) اشارة الى وقعته الجريئة مع السفير البريطاني في بغداد وقت حادثة الاثوريين

ليعلمْ عبيد التاج أنك سيد ... تزيد به التيجان مجداً وسؤددا
وأن قريشاً أعظم الخلق هيبة ... وأكرم أخلاقاً وأشرف محتدا
تخر منيعات الجبال مهابة ... لبيت على رمل الحجاز تشيدا
زكا أصله قبل النبي محمد ... فكيف وقد ازكى النبيُّ محمدا
بتمكينه عهد من الله خالد ... على الدهر ما كرّ الجديدان جددا
تشيب الثريا قبل إنذار شيبه ... ويوشك خدُّ الشمس أن يتجعدا
أفيصل إني مرسل فيك شُرَّدًا ... يثبن اليك اللانهاية غردا
أكلفها نَوْحا فتمضي شوادياً ... أوَابيَ أن ترثيك حيا مخلدا
كأن حروف الخط أعواد جنة ... على كل فرع بلبلٌ للعلى شدا
وقلدت منها كلَّ شطرٍ مهندا ... يظل على هام العداة مجردا
إذا قرّع الراوي به سمعَ خائن ... تذوّقَ طعمَ الموت شعراً امردًا
وحسب القوافي أنها فيك أُلهمت ... لأغدو بها رب البيان المسوَّدا
فقد يهب الحق الغرابَ فصاحة ... وقد يُخرس البُطْل الهزار المغردا
سبيلك لم تسلكه الا منورا ... وسهمك لم ترسله إلاَّ مسدَّدا
وكنت لاشتات البلاد موحدا ... كما كنت في الدين الحنيف موحدا
وكنت لاجل المجد بالمال زاهدًا ... وكنت لاجل العرب بالمجد أزهدا
وكم خضت لاستقلال شعبك لجة ... وكم جبت آفاقاً وكم جزت فدفدا
بعيد المنى لم تلق مرساة مطمحٍ ... الى المجد إلا سامك المجد أبعدا
مشيت له تستبطيء البرق مركب ... وأدركته تستوطيء النجم مقعدا
أُرِحْ كبدًا حمّلتها كلَّ فادحٍ ... من الهم يعيي الشُّم لو كنّ اكبدا
طعامٌ على مضٍ وشربٌ على قذًى ... ومشيٌ على جمرٍ ونومٌ على مدى
تصبّرتَ حتى الصبرُ كاليأس قاتل ... وحتى ذممنا في الخطوب التجلدا
صعدت جبال الالب تنشد راحة ... وعدت كأن الالب في القلب صعدا
كأن كل همّ لو أنيخت (بينل) ... لعاد (يزوفاً) يقذف الجمر والردى

حزن أب

قصة مصرية بقلم الاستاذ محمود تيمور

حدثنى الراوى قائلا : ـ

كانت لنا ضيعة فى الشرقية كنت دائم التردد عليها لمراقبة أعمالها الزراعية . وكنت أعرف فيها رجلا يدعى الشيخ عساف صناعته نساج ، كثيراً ما زرته فى داره لاشاهده وقت العمل وهو يشتغل أمام نوله المتواضع البدائى . وكان يرحب بى ويقدم لى فى كل مرة أزوره فيها فنجاناً من قهوته الريفية . والرجل وسيم الطلعة وقور حلو الحديث . له لحية مقصوصة يختلط بياض شعرها بسواده ماتت زوجته منذ أعوام وخلفت له ابناً وحيداً ، هو كل عائلته . عكف على تربيته وتعليمه صناعة النسيج حتى برع فيها وأصبح ساعد أبيه الايمن . وكان شاباً جميل التكوين . قوى البنية ، تلمع عيناه ذكاء ونشاطاً . يحبه أبوه حباً عظيما ويكثر من التحدث عنه فى المجالس معدداً فضائله بفخر واعجاب !

وذهبت مرة الى الضيعة كعادتى فبوغت بخبر فظيع كان له اسوأ وقع فى قلبى . علمت بأن الابن مات قتيلا تحت عجلات القطار ! . . وقصدت من فورى الشيخ عساف فى داره لأعزيه فى نكبته فاكرم وفادتى وقدم لى كالمعتاد فنجانا من قهوته الريفية . ولكنه كان يعمل كالآلة الميكانيكية بلا روح . ولاحظت عليه شحوبا وامتقاعا فى اللون . وكنت أحس وهو يتكلم كانه ينتزع الكلمات من لسانه فى جهد . وكانه يفتش عن الموضوعات فى حيرة ، ذلك الذى كان لا تعوزه طلاقة ولا بيان . وكانت تعتريه نوبات صمت ووجوم كان يستيقظ منها مذعوراً ويلتفت حوله فى دهشة كانه يقول : أين كنت وأين أنا الآن ؟ . ثم يتابع حديثه بمشقة . وقد عزيته بكلمة صغيرة اجتهدت أن أضمنها حقيقة شعورى نحوه . فاجابنى برد ساذج عادى ، ولكن بصوت خشن ونبرات مهتزة . وكان هذا الحديث القصير هو حديثنا عن الابن وعن ميتته . ولما انتهت زيارتى هززت يده طويلا فى صمت هزة العطف والاخلاص

ومرت الايام وتكررت زيارتى للضيعة . وكنت دائما اسأل عن الشيخ عساف فيخبروننى أنه قليل الخروج من منزله . فأذهب اليه بدافع خفى وأقضى معه بعض الوقت . وكان الرجل يتهدم يوما عن يوم . فازداد وجهه شحوبا وتجهما . وقل حديثه وأصبح جد مقتضب . وتقدرت لحيته وتشعثت فى شكل منفر . وبدأت ملابسه تتهلهل وتعلوها الأوساخ

ورأيت منسجه غارقا فى صمته ووحدته وانقباضه ، وقد أكتسى بالغبار والعنكبوت . وعلمت أن حالته المالية قد ساءت وأنه باع جاموسته وطيوره

أما منزله فصار خراباً ، لايتنفس عن الحياة ، يخيم عليه الاهمال والصمت . فهو أشبه بقبر متهدم قديم غير صالح حتى ولا للاموات

وكان الرجل يزورنى فى الدوار بعض الاحيان عملا بواجب المجاملة . وكان يقضى جل الوقت صامتا منكس الرأس يجتر همه على مهل مستطعما اياه . ولم يحدث أن فاه بكلمة واحدة عن ابنه

وجاء مرة . وبعد تناوله القهوة رفع رأسه وسألنى قائلا : ألا تستطيع أن تخبرنى ياسيدى اليه بما يحس به الشخص الذى يموت قتيلا تحت عجلات القطار وما مبلغ ألمه ؟

فبوغت وحاولت عبثا اخفاء ارتباكى . ولكنى قلت له : أظن انه لا يحس بشىء . انها ميتة سريعة !

فجهر بصوته وقال فى تأكيد : يقينى أنه يتألم أشد الآلام !

واحتقن وجهه وغارت تجاعيده أكثر من الاول واحمرت عيناه المربدتان ونفرت عروق رقبته واختل تنفسه . فاحترمت ألمه ولم أجب . وظل هكذا برهة فى ثورة صامتة . ثم هدأ تدريجياً وعاد إلى خموله الاول

ومرت الايام أيضاً وتكررت زيارتى للضيعة والشيخ عساف ينحدر من سىء الى أسوأ حتى صار كالهيكل . وكان إذا سار قليلا ظهرت عليه بوادر الاعياء . وكان دائما مستغرقا فى صمته القلق وذهوله المضطرب ... حقاً لقد كانت حالته تدعو إلى التألم والرثاء . ولكن لم يكن فى استطاعة أحد أن يعمل شيئاً من أجله . ومكثت مرة فى الضيعة أسبوعا رأيت فى خلاله الشيخ عساف مرة واحدة . جاءنى عشية سفرى إلى القاهرة وكنت فى الحديقة بمفردى تاركا نفسى تسبح فى خمولها بعد يوم كله كد وتعب ، وكان السكون الفظيع يخيم على المكان

حيانى الشيخ وجلس أمامى وهو ينهج من تعب المسير . وبعد ان استراح قليلا بادرنى بقوله :

— لقد قصدتك فى حاجة ... فهل أنت قاضيها لى ؟

فقلت وقد تحققت أن الرجل فى ضيق مالى : طلبك مجاب يا شيخ عساف ... كم تطلب ؟

فنظر إلى مستغرباً وقال : لا أطلب نقوداً يا سيدى

— إذاً ماذا ؟ . . .

— أتسمح لى بمرافقتك إلى « الزقازيق » غداً ؟

فنظرت اليه فى دهشة ولم أجب ، وابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

— أريد ان أرى الدنيا . . . أن أتفسح قليلا . . . أن اتفرج على خلق الله وعلى المدينة الكبيرة التى لم أرها إلا مرة فى صباى . . . هل فى طلبى هذا ما يثير العجب ؟

وكان يتكلم بلهجة متزنة رقيقة وقد بدأ وجهه يشرق إشراقه القديم . وأمسك يدى وجعل

يلاطفها فى الحاح وهو يقول : ألا تجيبني إلى طلبي . . . ؟
فقلت له وأنا مازلت متحيراً : أجيبك اليه إذا كان هذا يسرك
فلمعت عيناه وقال : يسرني جداً . . .
ومن ثم أخذ يسامرني بشيء من طرائفه القديمة التي كدت أنساها لطول عهدي بها . وكان وهو يفعل ذلك كأنه يجلو الصدأ عن تحفة غالية مهملة ويعرضها من جديد لامعة تستهوى القلوب
ولم يطل مكوثه معي إذ حل عليه « الوخم » سريعاً فاعفيته من جلسته . وقام وهو يشكرني ويكرر لى عزمه على مرافقتي الى الزقازيق
وفى صباح الغد أعدوا لنا العربة ذات البغلتين المهدمتين . واعتلى مقعد القيادة رجل فلاح بلبدة سمراء وجلباب « مزهر » وكان فى يمينه عصا طويلة لينة يستعملها كرباجا . وصعدت الى العربة أنا وناظر الزراعة وانتظرنا مجيء الشيخ عساف . ولما طال بنا الانتظار قال لى الناظر :
ــ ان الرجل لن يأتي على ما أظن . واخشى ان يفوتنا القطار
فاجبته قائلا : وهذا رأيي ايضا . . . هلم يا اسطى
وما كادت العربة تتحرك حتى سمعنا صوتا متقطع الانفاس ينادينا . فالتفت فاذا بالشيخ عساف يجري صوبنا ــ حسبما تساعده قوته ــ وهو يشير علينا بأن نتوقف . فامرت الحوذي بأن يقف . وجاء الشيخ عساف وصعد الى العربة وتهالك على المقعد فى حالة تشبه الاغماء وهو يتمتم قائلا :
ــ كادت تفوتني هذه الفرصة . . .
وسرنا وبدأ الشيخ يستعيد قوته . وبذل مافى وسعه ليسامرنا ولكنه اخفق . اذ كانت موضوعاته مشوشة مبتورة ولهجته مضطربة مختلة . وكان ينسى نفسه فيستغرق فى وجوم عجيب . وتصيبه الرعدة بعض الاحيان كأنه مقرور او محموم
واخيراً وصلنا ونزلنا من العربة واتجهنا صوب المحطة . ثم قصدنا « البوفيه » وطلبنا قهوة وسجائر . وقل كلام الشيخ حتى اصبح نادراً . وعكف على قهوته يحتسيها وعلى سجائره يدخنها . ولاحظت عليه شيئاً من امتقاع الوجه . وكانت شفتاه ترتعشان من وقت لآخر
واخرجت ساعتي وقلت : باقي خمس دقائق على وصول القطار
فرفع الشيخ عساف رأسه وقال وهو يستعد للقيام : هلم . . .
وقمنا إلى الرصيف . وبعد قليل سمعنا هدير القطار . ثم رأيناه يهجم على المحطة هجوم الغازي المنتصر . وبينما كنت منهمكا مع الناظر والشيال باعداد الحقائب سمعت صياحا عاليا تبعته جلبة وهرج ثم شهدت ازدحاما على جهة من الرصيف وطرق سمعي هذه الجملة : ــ لقد تهشم وتقطع اربا
وهرعت صوب الزحام واستطعت ان ارى تحت عجلات القطار بقعا من الدم وبقايا ملابس ولحم آدمي مفروم . وتلفت حولي افتقد الشيخ عساف فلم اعثر له على اثر . . . !

الخطيب والجمهور (١)

للدكتور نقولا فياض

ان بين الخطيب والجمهور صلة نسب وقرابة ولكنها ليست متينة الاسباب فى كل حين ، وهذا ما يجعل موقف الخطيب حرجا ، فان الجمهور مؤلف من طبقات مختلفة وفيه العالم والأمى والقنوع اللين العريكة والعنيد الصلب الشكيمة . فاذا كان الخطيب ممن ألفوا المنابر واعتادوا على تلك الوجوه الشاخصة اليهم والعيون المحدقة بهم فقد وجد السبيل ممهداً أمامه وكان فوزه أكيداً . وإذا كان على خلاف ذلك أو هو يخطب للمرة الأولى فقد عز مطلبه ووعرت طريقه وكان من الواجب قبل كل أمر أن يستميل الحضور اليه وأن يهيء نفسه لقبول ما قد يصدر عنهم من صحة أوصحك أو مقاطعة أو غير ذلك ولا سيما إذا كان فى الحفل كثير من العامة كما يحدث فى الاجتماعات السياسية أيام الانتخابات ، وهذا أمر قليل الوقوع عندنا لعدم توافر الأسباب الداعية اليه

وربما ساء الخطيب قلة الاقبال عليه وعدم امتلاء النادى بالسامعين . فعليه أن يدافع هذا الأثر ويتغلب على غيظه ويلقى خطبته بكل ما أوتى من حماسة حتى اذا خرج الناس معجبين بما قال كان لخطابه صدى جميل فى المحافل والاندية لايلبث معه حتى يتغير اعتقاد الناس فيه فيأسف من قصر عن الحضور ويعاهد النفس ألا يدع فرصة تفوته فيما بعد لسماع هذا الخطيب

ومثل ذلك إذا كان السواد الاعظم من عامة الناس الذين لم تسمح لهم أعمال الحياة ومطالب الجهاد أن يتوسعوا فى الثقافة ، فلا يكونن هذا مثبطاً له لانه لا يشق عليه أن يستميلهم ويملك عليهم نفوسهم ولو لم يعوا كل ما يقول . فان السامع الامى كالفقير الذى يعرف أنه لا يستطيع أن يلبس الخز والديباج ويروقه مع ذلك مرأى هذا الزهو وربما حصل عليه بالتصور . فهو أى السامع يدرك أن فى كلام الخطيب ما يسمو عن مداركه أحيانا ولكن يسره أن يسمع ويرى ، وقد ترضيه من الخطيب بعض الظواهر أو الحركات فتلقى ستاراً على جهله ويمحو من ذهنه أثر السحر الذى هو فيه فيخرج مسروراً مسحوراً لان حكم الجماعات يكون عادة حسب الاهواء والشهوات والتأثيرات السطحية

وقد يقف خطيبان أو أكثر فى ندوة واحدة بأبلغ ميثكى ولم يموضوعه من كل أطرافه ولا يترك شاردة إلا قيدها . ويلقى الآخر كلاماً سطحياً لا يدل على تعمق فى الدرس ولا حتى فى

(١) حزيران ٥٨ .

البحث ولكنه يأتى ببعض النكات المستظرفة فينال من الاستحسان والتصفيق أضعاف ما نال الاول الا أن هذا الفوز عارض لايلبث حتى يزول عند ماتنقشع غيمة التاثير الخطابى وينشر قول هذا وذاك ويطلع القراء على فحواها ويسهل لكل فى خلوته أن يبدى حكما صحيحا بعيداً عن التأثيرات الخارجية

ولا يجوز للخطيب أن يحتقر العامة لان غايته فى الغالب هى التهذيب والارشاد والاصلاح ، ولا يصل اليها بالازدراء بسامعه بل هو بهذا الاحتقار يخولهم الحق ان يحتقروه . وأول مايجب عليه فى هذه الاحوال أن يتعرف الى اهوائهم ويجاريهم فى مشاربهم أحيانا فقد لاتكون بعيدة عن الصواب ، وأن يصغى الى كلامهم فالحكمة قد تاتى من فم الجاهل ، وأن يتبع المثل الاعلى الذى يريد ان يرسمه للناس فلا يأنف من عرضه عليهم ولا ييأس من تقريبهم منه

من العقبات التى تعترض الخطيب وهو على المنبر أن لا يفهمه كل انسان فتقوم المعارضة من كل ناحية لان هذا الجمهور المختلف الطبقات والامزجة والتربية والغاية يسرى فيه الف مذهب والف عقيدة والف وهم . وعلى الخطيب أن يؤلف بين هذه القوى المتباينة ليقودها فى طريقه ولايتم له ذلك إلا بالصبر والحلم وطول الاناة والتسامح . وهو يسعى الى ارضاء هذا الجمهور ولكن لا من طريق الاكراه الذى يفضى إلى الفشل . فاذا دافع عن رأيه فلا يكون دفاعه بمحاولة هدم مذهب سواه فان لكل رأى مظهراً من مظاهر الحقيقة ولم نسمع أبداً أن كل الناس خرجوا من حفلة خطابية راضين مقتنعين . وقد كان والدك روسو يقول عن نفسه : « أنا اطلب من كلامى نجاحاً لا انتصاراً » وهذا مايجب على كل خطيب أو مناظر أن يضعه نصب عينيه . وخطاب أنطونيوس فى مقتل قيصر أبلغ مثل يقدم على ذلك

وقد تكون المعارضة عن اخلاص أو سوء فهم أو حب بالظهور ، فاذا أدرك الخطيب ذلك عرف أن يعطى لكل مقام مقالا ولكل جواب حالا

أما المقاطعة فلا يجب أن تخرجه عن جادة الموضوع لانه لا يخطب بواحد بل بجماعة وليمض فى كلامه حتى النهاية إلا اذا كان حاد الذهن حاضر البديهة فيرد على من قاطعه بكلمة ثم يعود الى موضوعه. واذا لم يوفق الى سرعة الرد فليمر بالاعتراض مر الكرام ذلك خير من أن يقول قولا لامعنى له أو فيه شتيمة وسباب

اعتصب عمال السكة الحديدية فى فرنسا وعددهم يربو على ١٥٠ ألفا فحاول وزير برياں فى اصدار أمر بتعبئة عامة فكانت الوسيلة الوحيدة للتغلب على الثورة والضرب على أيدى المعتصبين سوى أن تسمت قصرة ثم . وكان ذلك فى أثناء عطلة البرلمان ، فلما حل عقد الجلسة الاولى بدورة جديدة كانت الافكار فى غليان والخواطر فى هيجان والنواب تتحفز والنواب معترضة على هذا العمل الاستبدادى فى الظاهر . وحينما بدأ بريان خطبته قامت الاصوات من بين جنبات :

«ليسقط الدكتاتور . ليسقط الكابورال» . فوقف في مكانه جامداً الى أن أتيح له فرصة ليرفع صوته فصاح بهم : « دكتاتور ؟ مسكين أنا . مالكم أيها السادة إلا ان تقولوا كلمة أو تبدوا إشارة فاترك هذا المنبر بلا أسف وأعود إلى مكانى فى صفوفكم خادماً بسيطاً لهذا الوطن » كلمات وجيزة ولكنها قوية بمعناها ومطابقتها الحال فجاءت كالماء على الجمر فهمدت حدة الثائرين وخمدت ثورة الصائحين . وأمكن بريان أن ينطلق فى حديثه مبرراً عمله فاذا بالغضب يتحول رضى والجلبة تنقلب سكوتا والنفور يعود اطمئنانا . وبعد ان كان هدفا لسهام الناقدين نزل عن المنبر بين الهتاف والتصفيق ومصافحة المهنئين . ولكن ليس كل الخطباء مثل بريان ولم يؤت سرعة البداهة كل انسان . وكم من أصحاب العقول الراجحة من يفتقر اليها فقد كان جاك روسو يقول عن نفسه : « لم أستطع عمرى ان أؤتى جواباً موفقا الا ربع ساعة بعد الوقت الملائم »

والمقاطعة فى حادثة بريان وقعت قبل أن يتكلم ولا أدرى هل تكون أشد وقعاً لو جاءت فى عرض الخطاب فكانت كالصخر الذى يلقى فى مصب السيل فيتحرف به حيناً عن قصد السبيل ! . على كل حال ليس على الخطيب من جناح إذا لم يحضره الرد فوراً ولا يلام إذا حاول الجواب فقال مالا معنى له ولا فائدة منه . مثلا قد يسمع الخطيب مقاطعاً يقول : هذا كذب! فيجيبه : أنت الكاذب لا أنا . مثل هذا الجواب أفضل السكوت عليه الف مرة

ومن أجمل ما يذكر من المقاطعة عن خطباء العرب ما حكاه صاحب العقد الفريد عن زياد عن مالك بن أنس قال : « خطب أبو جعفر المنصور فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اتقوا الله . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال : أذكرك الذى ذكرتنا به . فاجابه أبو جعفر بلا فكر ولا روية : سمعاً سمعاً لمن ذكر بالله . وأعوذ بالله أن اذكرك به وأنساه . فتأخذنى العزة بالاثم . لقد ضللت اذاً وما أنا من المهتدين . وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ولكن ليقال قام فقال فعوقب فصبر . وأهون بها لو كانت . وأنا أنذركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا نزلت وفينا انبتت » ثم رجع إلى مكانه فى الخطابة

إن السكوت والتوقف عن الكلام حينا خير من الجواب على المقاطعة اذا لم تات بمثل هذه البلاغة ، ولا سيما اذا كان المقصود منها الاضرار بالخطيب والتشفى . وهذا السكوت الدال على عدم الاكتراث بالمقاطع يعد مقدرة وترفعا محموداً . وأما اذا كانت المقاطعة للاستفادة والتعمق فى البحث فقد يستطيع الخطيب مواصلة حديثه ! كتسابا للوقت مع التفكير فى الرد فى آن واحد الى أن يحضره الجواب اللائق الموافق وهذا من وراء الغاية

ويحسن بالخطيب حينما يخلو الى نفسه أن يعيد فى ذهنه ما جرى فى الحفلة وليتذكر موقف الجمهور والمقاطعين وينظر فيما اذا كان قد أحسن التصرف ازاء هؤلاء وأولئك . ففى هذا التفكير درس وعبرة

الامبراطورية العربية[١]

وهل آن أن تتحقق

بقلم الاستاذ عبد الرحمن عزام

تكاد تكون حلما وقد كانت حقيقة ، ويكاد ينكرها أهلها ، وكانوا لايتصورون الحياة بغيرها ! أرأيت إذن كيف تذل النفوس وتتراخى الهمم ؟

كنت أتحدث مع أحد محررى « الهلال » عن الوحدة العربية والدولة المنتظرة كنتيجة لهذه الوحدة ، وكلما أفضت فى الحديث نظر الى كمن يستمع الى حلم لذيذ ، ثم سألنى أن أظهر على الناس بهذه الفكرة فلعلى واجد من يؤمن بها

وماهى بدعوة جديدة ولا فيها غريب ، بل هى الاصل . واستسلام العرب فى المشرق والمغرب للعيش بغير دولة هو الغريب !

فهأنذا أسائل العرب فى آسيا وافريقا ، بل اسائل المرتابين فى مستقبل هذه الامة العظيمة أن يذكروا ماضيهم

ليذكروا امبراطورية الامويين والعباسيين والفاطميين والموحدين والمرابطين والحفصيين . ليذكروا مئات السنين التى كانت فيها امبراطورية العرب زاهية عزيزة

ليذكروا ذلك فيؤمنوا ببعثها ، فما مات العرب وانما غشيهم النعس . وقد تضاعف عديدهم واتسعت أوطانهم

ليذكر المرتابون دولة الخلفاء الراشدين ، وقد بسطت فى عشر سنين سلطانها على ملك كسرى وقيصر

وقد كان ملك كسرى وقيصر أعرق حضارة وأكثر علما وأعظم ثراء . ولو أن رجلا ساح فى ذلك العهد ببلاد الفرس والرومان ورأى قلب الجزيرة ثم بعث اليوم ليطوف العالم ، لشهد بأن الامة العربية خلية فى مكان مهيأ لاقامة الامبراطورية أكثر مما كان عليه أسلافها وقت أن عبروا وجه البسيطة

---

(١) اخترناه له . . .

فاذا تحدثنا عن قيام هذه الامبراطورية اليوم ، فانما نستند الى حقائق تاريخية وواقعية والى قوى طبيعية ظاهرة وكمينة فى سبعين مليونا من البشر

أرأيت لو أن رجلا فى القرن السابع الهجرى رأى عمر بن الخطاب قبل عشر سنين من توليه الخلافة وأوحى اليه أن عمر سيكون بعد عشر سنين وارث كسرى وقيصر ، أكان يرتاب فيما أوحى اليه أم كان يؤمن به ؟ ومع ذلك فقد رأى الناس عمر بدويا ضالا ورأوه سيد العالم. فما بال المرتابين من العرب ينكرون اليوم أن نقول إن سبعين مليوناً تربطهم عقيدة دينية ولغة موحدة وعرف مشترك يصلحون لاقامة امبراطورية

فى أوائل القرن الماضى كان بين مرتزقة الجند فى القاهرة رجل يعيش فى عش الفوضى والاضطراب بين قوم عمهم الجهل وسادت فيهم الخرافات . ذلك الرجل لم يمت حتى أقام امبراطورية عربية

فلو أن سائحا تعرف الى محمد على بين طائفة « الباش بوزوق » من الارانطة وقيل له ان هذا الجندى سيملك مصر والسودان والشام والحجاز ونجداً أكان يسخر من ذلك القول ، أم كان يؤمن به ؟ ومع ذلك فقد رأى الناس محمد على على رأس الامبراطورية العربية

وفى أواخر القرن الماضى ظهر رجل فى جزيرة « أبا » فى النيل الابيض كان يحترف فى دنقلة وغير دنقلة تعليم القرآن للصبية ويطوف البلاد لا يؤبه له . ولم يمت هذا الرجل حتى هزم الدولة المصرية والدولة البريطانية جميعاً . وما كان أحد ليدرى مصير الدولة التى أقامها لو امتد به الاجل ، ذلك هو محمد احمد المهدى . وقد قام على أعقابه رجل من البقارة رؤى فى كردفان يسوق حماراً هو كل ما يملك ويصحب زوجته وولده . ورؤى هذا الرجل بعد عشر سنين ملكا عظيما كان بعض ضحاياه امبراطور الحبشة نفسها ، ذلك هو عبد الله التعايشى

وفى أوائل هذا القرن كان عبد العزيز بن سعود ضيفاً لاجئاً مع أبيه عند أمير الكويت . وهو اليوم يستطيع أن يعبىء ثلثمائة الف مقاتل لايعرفون لغيره امرأ

والعرب اليوم ملأوا الارض يعمرون المنطقة المعتدلة فى غربى آسيا وشمالى أفريقا وهم من أشد الاقوام بأساً . كما هم فى أمصارهم من أقربهم الى مناهل العلم والحضارة

فاذا قيل انهم على أبواب الخروج للعالم بالدولة التى تليق بعظمتهم التاريخية والحالية ظن المرتابون أننا نسبح فى حلم لذيذ

ليس بين العرب وبين بعثهم مرة أخرى إلا أن يؤمنوا بأنفسهم وأن يؤمنوا بوجودهم . فقد افتتنوا بعظمة غيرهم حتى نسوا ذلك الوجود

وليس بين العرب وبين الامبراطورية التى تمثل عظمتهم إلا أن يكونوا كاليابانيين والصينيين والروس والترك والالمان والفرس مؤمنين أنهم أمة لها حق تقرير مصيرها

وقد اخترت هذه الامم للمثل لان العرب في مجموعهم ليسوا أقل منها نضجاً ولا حضارة

ففي اليابان وروسيا عشرات الملايين من البشر الذين لا يمتازون عن البقارة في جنوبي كردفان أو الصجان في شرقي نجد. ولا يدرون من الحياة إلا أن يكدوا كما تكد النمل للعيش على غذاء من الارز أو البر. وانما هي العزة القومية والمثل الاعلى والقدوة الحسنة هي التي جعلت من هاتين الامبراطوريتين أكبر دول العالم

والامة العربية موجودة بصفات محدودة وهيئة مستقرة فهي ليست في دور التكوين. بل هي مخلوق حي كامل الخلقة وما الامبراطورية التي نتحدث عنها إلا مظهر لكائن حي ما يزال في محنة الشك في نفسه والريب من قدره

لقد أتيح لي ان اخالط الشعوب العربية في افريقا وآسيا. وبالرغم من الحدود المصطنعة التي تفصل هذه الشعوب ومن الاستعمار الاوربي الذي يعمل على حل عرى الوحدة فيها. بل بالرغم من انحدار دمائها من الاصول السامية والحامية. فان الامة العربية الحديثة هي وحدة اجتماعية وثقافية وليدة تاريخ مشترك لها خواصها الظاهرة والخفية التي تميزها عن غيرها من الشعوب والامم

وهي بحالتها الراهنة — التي هي نتيجة لعمل الاربعة عشر قرنا الماضية — جديرة بأن تحتل مكانها بين أمم العالم العظيمة الموحدة

في برقة أو نجد أو بحر العرب أو على الفرات. وفي لبنان أو في الاطلس. أمة ذات مزاج مشترك لها عقيدتها ولسانها وعرفها تجمعها الكليات وان اختلفت الجزئيات

داؤها في العراق والشام ومصر والسودان والمغرب هو الفتنة، فقد فتنوا جميعاً بعظمة الغير. ونسوا أنفسهم. ودواؤها الدعوة الى الايمان بالذات والمثل يضربه أفذاذ الرجال ليثبتوا به الايمان

قد يقول بعض الناس: اننا لانكر أن الناطقين بالضاد أمة واحدة، ولكن أنى لهذه الشعوب المنتشرة في آسيا وافريقا أن تتعاون في امبراطورية واحدة؟

فان كان هذا هو كل ما يجعل الدعوة مستحيلة فليذكر المعترضون ان للانجليز في افريقا وحدها ملكا هو أوسع من أرض الامة العربية. وفي الهند من البشر خمسة اضعاف عدد العرب يحكمهم وال واحد. وفي الامبراطورية الروسية سيبريا وحدها أوسع رقعة

ولو ذكر العرب دون آبائهم في الامبراطورية الاموية أو العباسية أو الفاطمية وذكروا مواصلات ذلك العهد ... كيف سمت الثقة بآبائهم وقصر اليأس بهم

والآن وقد قربت الى الاذهان فكرة الوحدة. هل لي ان اشير الى بعض الضرورات التي تحتم على المفكرين أن يتخذوها شعارهم اذ لا مستقبل للشعوب العربية بغيرها؟

نحن في القرن العشرين في عصر تتصارع فيه كتل بشرية ضخمة. وتتنافس بين قوى مجتمعة ... وموارد متعددة من الثروات الطبيعية. فلا سبيل لحريتها وعيشها على قدم المساواة ولا

سبيل لان يكون لأمتنا صوت مسموع فى الدنيا إلا اذا كانت لنا جبهة متراصة تعد وراءها عشرات الملايين وتستمد لها العيش والرخاء من ثروات منوعة فى الزراعة والصناعة

فمن المستحيل على الشعوب القليلة العدد المستندة فى عيشها الى غلة واحدة أن تتقدم الى الصدر فى محضر الامم الكبيرة . بل لابد أن تعيش ذيلا وعالة على غيرها

نحن فى عصر « الكارتل والترصت » وقد مضى زمن الدكان الصغير . فهل يظن العراقيون أو الشاميون أو المصريون أنهم يستطيعون الوصول الى حياة محترمة بغير الوحدة ؟ وليذكر قادة الرأى وأهل البصر ألا وجود للدولة قبل النهضة ولا بقاء لها بغير الامن والسلامة ، ولا أمن فى العصر الحاضر لغير القوى الكثيفة . وهنا يحسن بى أن ألفت مواطنى المصريين الى قول نشر للاستاذ ويجال العالم الاثرى الذى مات أخيراً . فقد قال وأثبت بشواهد كثيرة أن مصر كانت على الدوام امبراطورية إلا حين كانت تستولى عليها أمة أجنبية ، وانها اذا شاءت أن تستقل فى هذه الايام وجب عليها أن تنظر الى تاريخها القديم وتعتبر به لانها بين أمرين لامفر منهما : إما امبراطورية تستولى على طرابلس والسودان وفلسطين وسوريا واما أمة مغلوبة يحكمها غيرها وتستبد بها دولة أجنبية . وذلك لان مركزها الجغرافى ــ وهى محوطة بالصحارى المفتوحة من كل ناحية ــ يجبرها على أن تؤمن حدودها بعبور هذه الصحارى والتغلب على الشعوب القاطنة بعد حدودها . وكلما تراخت قبضتها على هــذه الامم وانحسرت امبراطوريتها وقعت فريسة للفاتحين . وقد ضرب ويجال مثلا بالاسرة الثانية عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة والبطالسة والفاطميين والايوبيين ومحمد على . وهو حق لامراء فيه . وكم كنت أشعر به وقت أن قاتلنا الانجليز على حدود مصر الغربية سنة ١٩١٦

وقد من الله على مصر الحديثة بأن بسط حدودها شرقا وغربا ، فجعلها قلبا فى جسم أمة عظيمة تمتد من الخليج الفارسى الى المحيط الاطلسى . فهى فى وسط إخوة فى العقيدة والدم واللغة فيجب عليها أن تستفيد مما أحدثته العصور الاسلامية وأن تكون فى طليعة الدعاة الى الوحدة . فليس لها سلامة بغيرها كما أنه لا حياة لبقية الشعوب العربية بدونها

والنتيجة ان الدعوة الى الامبراطورية العربية ليست حلما يلده الخيال الواسع ، بل هى تستند الى حقيقة تاريخية والى ضرورة حالة . فالحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للشعوب العربية تستلزمها . وهى الضمان الوحيد للاستقلال والحرية والسلم الداخلى والخارجى لهذه الشعوب

وأخيراً أرجو ألا يسيء أحد فهم هذه الدعوة فلست أقصد بكلمة الامبراطورية العربية غير الوحدة على أى مظهر تحققت . وليس الغرض تغلب قبيلة على قبائل أو امير على امراء أو استئثار اقليم ببقية الاقاليم وليست تصوراً لنظام دون آخر ولا هيئة من الهيئات التى تكون عليها الدولة دون أخرى . وانما أول المقصود غايته التعاون بين الشعوب العربية لتكون جبهة واحدة تسير على ضوء المثل الاعلى الذى يخرجه مزجها المشترك الى الغاية السامية التى هى جديرة بالامة الحرة الكريمة

السعادة وأركانها الاربعة[1]

بقلم الاستاذ أمين الريحاني

قلما تجد فى حياة المرء نعيما لا يحول، أو بؤساً لا يزول . فقد تجيء قسمة بعض الناس مناصفة من الاثنين . وهم مع ذلك يتذمرون . وقد يجيء النعيم راجحاً فى كفة آخرين . وهم مع ذلك غير راضين . أما القسم الأكبر من اخواننا فى الانسانية فهم الذين يحق لهم التذمر ، لو كان التذمر يفيد ، لان نصيبهم من البؤس اكبر

كيف التوصل اذاً الى عكس هذه الحال ؟ كيف السبيل الى ترجيح النعيم فى قسمة الناس أجمعين ؟ إن الحالين ولا ريب يتعاقبان فى حياة كل انسان

وليس النسيان طوع الارادة . فالمرء ينسى أيام بؤسه ما لقى من نعمة وهناء (حتى أيوب الصديق نسى ذلك) وقلما ينسى الانسان حين سعادته أنه كان من المظلومين البائسين . أى أنه ينكر فضل الزمان عند ما يقلب الزمان له ظهر المجن . قد ملأ أيوب الارض صراخاً وتذمراً لانه بعد نعمة سابقة ابتلى فى ماله وجسده . ولو ذكر الاولى لهانت عليه الثانية

ولكن الحكيم والجاهل فى هذا سواء . لذلك نطلب للاثنين حماية العلم والشرائع والدين . لان بها يعم النعيم ويخف البؤس بقدر الامكان فى حياة الانسان

أجل . إن الواجب الأول على الدين والعلم والشرائع هو أن تساعد فى تحقيق أمل المصلحين الاعلى . وهو أن يكون الخير الاكبر نصيب العدد الاكبر من الناس . ولا ريب اننا سائرون فى هذا السبيل . لا ريب عندى أن عدد الذين يتقاسمون اليوم النعيم والبؤس هم اكثر جداً من عدد أمثالهم فى أيام توت عنخ آمون . وسيزداد هذا العدد . وسيرجح فى القسمة الهناء كلما تقدمنا فى العلم وفى الاصلاحات الاجتماعية . . أما أسباب هذا التقدم فمن اهمها اصلاح الانسان نفسه . وأهم ما فى هذا الاصلاح هو أن يعلم الحقيقة الكبرى ويعمل بها . وهذه الحقيقة هى أن هناء العيش لا يقوم بغير أربعة اوجه هى : صحة الجسد . وصحة العقل . وصحة الروح . ثم اليسر أو الاستغناء . قد تتعدد الطرق الى ذلك . وقد يختلف فى بعضها الحكماء . ولكنى قدم للقارىء ما هو عندى فى أعلى منزلة اليقين . وجله ثمرة الخبرة والامتحان

---

(1) احرزناها . . .

كيف تحفظ أو كيف تستعيد الصحة والعافية :

١ ــ لا تعود نفسك الأدوية والمقويات

٢ ــ لا تلجأ فى تخفيف الم او إزالة هم الى المنبهات والمخدرات

٣ ــ لا تتعود الهوادة فيما تعتقده لازماً لصحتك

٤ ــ لا تسترسل فى الملذات . ولا تطلق العنان للشهوات

٥ ــ نم مبكراً وقم مبكراً

٦ ــ عود نفسك التنفس تنفساً علمياً بضع دقائق كل يوم . قف امام النافذة أو فى الهواء الطلق واملأ رئتيك من منخريك وافرغهما من فمك

٧ ــ كل ما تشتهى نفسك . ولا تأكل لتشبع . لتكن القاعدة انك عند ما تنهض من المائدة لا تشعر بأن لك معدة . واذا انحرف مزاجك اذكر كلمة النبي محمد واعمل بها : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء »

٨ ــ صم اسبوعاً او اسبوعين فى اول الربيع

٩ ــ عود نفسك الرياضة فى العراء كأن تتعلم السباحة مثلا او الصيد او ركوب الخيل او « التنيس » . واذا كان عملك اوحالك لا يسمح بذلك فمارس قبل النوم وعند ما تنهض فى الصباح بعض الحركات ترويضاً للجسد

١٠ ــ اغتسل بالماء البارد صباح كل يوم . واذكر وانت تنشف ان جسدك هيكل مقدس لله فاحفظه سليما طاهرا نقيا

١١ ــ امش الى عملك أو امش نصف ساعة على الأقل كل يوم تستنشق هواء الصباح فترقص الحياة فى دمك ، وينور الورد فى خديك . امش وأنت مدرك أنك جزء صحيح سليم من الكون . امش وفى خطواتك وفى قلبك خفة الطيور وطرب الطيور

رأيت ذات يوم شابين يتصارعان ، فقال المشاهدون للمغلوب : لا يمكنك أن تغلبه وهو يتمرن ، ويمشى ، ويغطس فى الماء البارد كل يوم

وهناك فى حفظ الصحة وصية أخرى ، هى الوصية الاخيرة . قد أشرت فيما تقدم الى التذمر ولم أذكر الحسد شقيقه الاول . فالتذمر اذا كنت مريضاً يزيد فى مرضك ، واذا كنت فقيرا لا يغنيك . وقد يزيد فقرك لانه يبعد عنك الاصحاب . وفيهم من يستطيع مساعدتك . وإذا كنت فى صحة فالتذمر لا يزيلها ولا يحفظها . أما الحسد فقد يذهب بكل جمال بشرى ــ بجمال الروح وجمال العقل وجمال الوجه أيضا . إياك إذن والتذمر وإياك والحسد

هذه الوصايا الصحية تعيك اذا واظبت عليها عن الطبيب ، وهى الركن الأول للسعادة أما صحة العقل وما يجىء معها من القوة واصالة الرأى والحكمة فقوامها المطالعة والتفكير .

١ ـ طالع ولو ساعة كل يوم ما يلذ ويفيد من الكتب والمجلات

٢ ـ تجنب الروايات المهيجة للاعصاب والمثيرة للشهوات

٣ ـ لا تنظر الى الحياة ومشاكلها من وجهتك الخاصة فقط ، بل انظر اليها من وجهة جارك ووجهة خصمك أيضا . واذكر ان لكل مسألة وجهين على الاقل

٤ ـ كن منصفاً فى أحكامك ، مخلصاً فى آرائك ، صادقاً فى أقوالك ، عادلا حتى فى نفسك

٥ ـ لا تدع الصغائر تزعجك ، فتضعف بتكرارها المناعة النفسية ، فلا تقوى إذ ذاك على مقاومة الكبائر المفجعة

٦ ـ ادخر من قواك العقلية والروحية لايام المحن والكروب

٧ ـ اخل بنفسك ساعة أو نصف ساعة كل يوم ، فتستريح عقليا وجسديا . واذا كنت مضطرب البال أو مكتئبا أو غاضبا فهذه الساعات تعيد اليك السكينة والرضى

٨ ـ واذكر ان فى مضمار الحياة تتبارى العقول على الدوام ، وان الفوز للعقل القوى المرن المجرب السريع فى التفكير الدقيق فى التحليل

أما الصحة الروحية فركنها الاول الايمان بالله ، ولكن هذا الايمان لا ينفع إلا إذا تمثل فى حالك ، وفيما يربطك بالحياة وبالكون ، أى فى الشوق الذى يتمثل فى الحب ، وفى الحب الذى يربطك بالحياة ، وبالامل الذى يربطك بالكون

عندما تخلو بنفسك اذن ، اجلس مستسلما مسترخيا عقلا وجسداً ، ثم اغمض عينيك ولا تفكر فى شيء ، وبعد الاستراحة ، وأنت فى فيض من الاثير الطيب ، ابدأ بتأملاتك الروحية

تأمل نفسك جزءاً من الكون الذى كله نور وصحة وقوة ، وقل : اللهم زدنى قوة وصحة ونورا . ثم تأمل نفسك جزءاً من المجتمع الانسانى الذى ينبغى ان يكون كالجزء الاول ، صحيحا سليما وقل : سأبدأ اللهم بنفسى فتصلح نفس جارى . ثم تأمل نفسك جزءاً من اسرة تقاسمها متعة الحياة ، او تدير شؤونها ، وقل : عونك اللهم فى كل ما فيه حب وتساهل وحكمة واعتدال

ولا يفوتنك ان الطمأنينة والسكينة هما من اركان الصحة الروحية ، فكن هادىء البال صلب العود فى الملمات ، كن ثابت الجأش فى الخطوب ، واذكر دائما ان ليس هناك خطب بشرى تتناهى عنده الآلام والاحزان

نفى الفقر والاتكال المادى فهو ، وان سلم الجسم والعقل والروح ، سم السعادة . وما الترياق لهذا السم غير العمل الذى ينبغى ان يكون مقرونا دائما بكرامة النفس . والثقة بالنفس ، والاتكال على النفس . واذا فشلت فى مساعيك اولا وثانيا وثالثا ، فاذكر ان لا شىء يدوم غير دولاب الحظ الذى يدور على الدوام . على انه لا يصح ان تتكل عليه فى غير امر مقرون بالعمل . واذا نجح سعيك ولا وصيت بالقناعة لان الاعمال [illegible] الآمال [illegible] . ان [illegible] لا يجد قسما من سعادته فى العمل الدائم ، كما انه يجد السعادة الكبرى فى النجاح المستمر

ملكة تدمر

من قصيدة للاستاذ شبلي ملاط

سمراء نافرة نفور الجؤذر تنمي لآل « سميدع » في تدمر
جمعت الى الحسن البيان فمنطق يسبي وصورة يوسف لمصور
الجاذبية في معانيها وان نظرت لمست الكهربا في المحجر
نشرت لواء الحسن واختالت على أترابها منه بأروع مظهر
ومشت كرائم تدمر في عرسها ينشقن ما في ثوبها من عنبر
ويمسن من لون السماء بأزرق ويتهن من لون الشقيق بأحمر
متمتعات بالنضيد الجوهري في ثغرها والبابلي المسكر
متنعمات بالحديث الكوثري كالنحل حام على غدير السكر
والقين يحملن الصنوج عوازفاً بالناي يوم زفافها والمزهر
وبنات تدمر شاخصات نحوها متأملات حسن ذاك المنظر
متغنيات بالنشيد التدمري متخشعات حول بنت المشترى
كإلهة زلفت لها كهانها بمباخر حشيت بمسك اذفر
صادت اذينة زينب فاعجب بها من ظبية صادت فؤاد غضنفر
وأذينة المشهور في غاراته طرح السلام امام طرف احور
والحب يعثر بالعروش فتنحى ويبيع تيجان الملوك ويشتري
حرب القرون فليس من متقدم كف الوغى عنه ولا متأخر
ومن المفاخر ان زينب أوتيت فوق الجمال الفذ سطوة عنتر
ما شمرت في حلبة الا تأت شأو المجلى في متون الضمر

وتمرست بالصيد ليس يهولها زأر السباع ولا ضغاء الأنمر
لا تترك النمر الوثوب معفراً الا لتتبعه بليث مخدر
حينا تعاجله بضربة أبتر حينا تعاجله بطعنة خنجر
واذا الطريدة أدبرت عمدت الى سهم تدق به قذال المدبر
عداءة ان تعد ليس يفوتها في السهل او في الحزن خف الاعفر
يغلي الدم العربي في اوداجها غليان صدر المرجل المتفجر
اخذت بزند اذينة في حكمه حتى ابتنى في الشرق عرش التدمرى
جمع القبائل حوله وأمدها بمرقرق من راحتيه وممطر
واعزها بذخائر وصوارم وعواسل وصواهل وسنور
ومشى الى استقلال تدمر ثائراً للروم من سابور قاهر قيصر
وغزا المدائن « بالعتاق شوازباً قب الاياطل داميات الانسر »
القائد الجيش اللهام كأنه « تحت السوابغ تبع في حمير »
طرب بحمحمة الجياد الضمر ثمل بصلصلة السيوف البتر
الضارب الايوان في سابوره بالمنجنيق وكل اشوس اغبر
فتهيبت روما مكانة تدمر واميرها المستأسد المتنمر
واقر غليانوس معترفا له بالتاج تاج الشرق غير مخير

***

بالسيف نال اذينة استقلاله والعز مطلبه بحد الابتر
لا يبلغ الشعراء والخطباء ما بالسيف يدرك والسنان الاخزر
من ليس يقبله أقوال فذه صماء عن رنة في منبر

القوة والعلم : هما دعامتا الحياة

بقلم الاستاذ عبد الرحمن الرافعى بك

لا أستطيع أن أعرف أحسن ما كتبت ، فقد أرى حسنا ماليس بالحسن ، وقد أخطىء فى تقدير ما أكتب ، وقد يرى القارىء ما لا يراه الكاتب . فالطلب فى ذاته فيه شىء من الاحراج . . . على انى مع ذلك اختار هنا بعض ما اذكر انى تأثرت له تأثراً خاصا حين كتبته أو قلته ، وهذا بحسب شعورى من أحسن ما كتبت . فما قلته فى مقدمة كتابى (حقوق الشعب) سنة ١٩١٢ :

« لست فى هذا الكتاب مدعيا وضع مبادىء جديدة أضيفها إلى المبادىء الخالدة التى تتبعها كل أمة تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها . تلك المبادىء التى لم تتغير منذ العصور الاولى إلى هذه الايام الى ماشاء الله ، لان طبائع العلاقات بين الناس أفراداً وجماعات هى هى واحدة لاتغير فيها ولا تبديل

فالناس منذ خلق الله العالم لم يحتفظوا على حقوقهم ولن يحتفظوا عليها الا بمقدار مالديهم من شدة وبأس وقوة . وكذلك الأمم تتصارع وتتنازع فى معترك الحياة العامة ، ولا يسود فى تنازعها الابدى مبدأ أيدته الحوادث قديما وحديثا مثلما يسود بينها مبدأ القوة . فكم ديست للامم حقوق لأن القوة تنقصها . وكم انتهكت لها حرمات لضعفها وقلة حولها . ولكم خدعت الامم نفسها وأرادت أن تعيش ضعيفة بين أمم قوية فما راعت تلك الامم فى معاملتها عهداً ولا أنجزت وعداً ولا احترمت لها حقا ولا سمعت منها قولا ، بل كان نصيبها أن توطأ حريتها وحقوقها تحت الاقدام !

ما أظلم الانسان فرداً وما أظلم الناس جماعات ودولا ! فكما انه لا يمنع ظلم الانسان عن أخيه الانسان الا القوة وأعنى بها قوة الحكومة التى تضمن لكل فرد حقه ، كذلك لا تأمن الامم بعضها ظلم بعض الا بالقوة ولا تحفظ كل أمة وجودها الا بفضل مالديها من القوة

هكذا العالم وتلك سنة الله فيه . . . . . فما أتعس حظ تلك الامم التى جهلت ذلك المبدأ ونبذته لا تجد من ينصفها ممن يظلمها حتى من أبنائها الذين هم أقرب الناس اليها . يعيشون عبيداً للقوة وخداما لها وهى تطالب بحقوقها فلا تجد من يجيب طلبها أو يصغى لندائها لان القوة تنقصها

ما أتعس حظ تلك الامم ثم ما احهلها وما أضيع اوقاتها وابعدها عن حريتها ! عبثا تتعلم . عبثا تتحضر وتتهذب . عبثا ترتقى فى الفنون وتنبغ فى الصنائع ، عبثا تجارى الامم الراقية فى مظاهر المدنية ، عبثاً تفعل كل ذلك ما دامت لا تحيط حياتها وعلومها وفنونها بسياج من القوة

فهل تغيرت تلك الحقائق منذ خلق الله الانسان ومنذ عاش جماعات فى ظل الحكومات ؟ كلا

وربك فهي باقية خالدة تنطق بها الحوادث فى بطون الايام وتنادى بصحتها كل يوم تقلبات الزمان .
فقديما حييت الأمم بالقوة . وماتت لحرمانها من القوة . وتغلب بعضها على بعض بالقوة
القوة والعلم : هذان العاملان هما الدعامتان اللتان تضمنان للامم حياتها وحقوقها

جئت فى هذا الكتاب أخاطب فئتين من الامة كانوا دائما جنود الحرية فى كل بلاد : وهما رجال الغد . وجمهور الشعب . جئت اخاطب اخوانى الشبان رجال الغد الذين أعد نفسى واحدا منهم وأعتقد ان عليهم واجبا كبيراً هم مدينون به نحو الله ونحو الامة ، وهو واجب العمل لتحرير بلادنا

✡ ✡ ✡

وألقيت خطبة فى مجلس النواب (بجلسة ١٧ مايو سنة ١٩٢٤) دافعت فيها عن حق المجلس فى اصدار قرارات برغبات تكون الزامية للحكومة . وهو موضوع ثار حوله جدل كبير فى البرلمان . ومما قلته فى هذه الخطبة :

فحق تقرير الرغبة معترف به للجمعية التشريعية . فاذا ما قال مكتب المجلس انه معترف بهذا الحق أيضا لمجلس النواب فاننا لم نتقدم خطوة واحدة الى الامام لان الرغبات التى كانت تقدم من الجمعية التشريعية كانت ذات صفة استشارية فقط. وغير معقول ان تكون سلطتنا الآن مساوية لسلطة الجمعية التشريعية ، لان هذه الجمعية لم تكن تملك السلطة القومية : سلطة الامة. اما فيما يختص بمجلس النواب فقد نص فى الدستور صراحة فى المادة (٢٣) أن جميع السلطات مصدرها الامة . وسلطة الامة ممثلة في مجلس النواب فيكون لهذا المجلس حق تقرير الرغبات التى براها متفقة مع الصالح العام ، وتكون ملزمة للهيئة التنفيذية . وهذا الحق وهذا الالتزام وان لم ينص عليهما صراحة فى الدستور الا انهما يتفرعان عن الرقابة البرلمانية او عن المسئولية الوزارية المقررة فى الدستور

لاتميل المجالس النيابية الى تضيق سلطتها بل بالعكس ان تاريخ هذه المجالس يدلنا على انها تميل على الدوام الى توسيع سلطتها . فلا يجمل بنا اذن أن نفرط فى حق تخوله لنا طبيعة الدستور . ان هذا الحق مظهر من مظاهر السلطة القومية فليس لنا ان نفرط فيه . فى هذا المجلس تتمثل سلطة الامة ومن اقدس واجباتنا ان نحافظ عليها لاننا انما جئنا هنا لنكون امناء على سلطة الامة

أرجو من حضراتكم أيها السادة أن تعطونى قليلا من حلمكم فان المسألة تحتاج لعناية كبيرة — نحن لا نشرع للوقت الحاضر ولكننا نشرع للأمة — لمدونة — للحاضر والمستقبل . والقرار الذى يصدر منا فى هذه المسألة قرار ملزم لمجلس النواب إلى ماشاء الله لانه قرار يصدر من تلقاء أنفسنا . ومثل هذا القرار خطر لانه ملزم للهيئة التى أصدرته وحكمه حكم قرار صادر من جمعية وطنية . فستريث فى الامر قبل البت فيه — فلسنا بمجلس شورى ولا بجمعية عمومية ولا جمعية تشريعية لاننا — اعتبرنا أنفسنا كذلك فكأننا لم نخط خطوة إلى الامام

روح المدنية (١)

بقلم الاستاذ انيس المقدسي

لكل مجتمع روح تتجلى فى افراده . ولكل عصر مزايا هى مقومات حضارته . ونحن الآن فى القرن العشرين وقد ملكنا اعنة الماء والهواء . وضبطنا قوى الطبيعة نديرها كيف نشاء فاتسعت لدينا الآفاق . وتقاربت بيننا الابعاد وتولد من جراء ذلك فى عصرنا روح عامة لم يعهد لها نظير فى تاريخ العمران

على ان العمران حلقات متصلة . وليست هذه الروح الا نتيجة طبيعية لتقدم مستمر أو لحركة اجتماعية خفية . تثور احياناً كالبراكين فتدمر العمائر وتقلب نظام البلدان . وتجرى احياناً كمياه الرياض السلسة فتروبها بلا جلبة أو هيجان . وهذه الحركة المندفعة تحت ظواهر الحياة الاجتماعية لم تنحصر فى عصر دون عصر أو جيل دون جيل ، بل ولدت مع الانسان وانحدرت فى صلب الاجيال وبرزت بين اقوام شتى فوضعوا لها اسماء عديدة ونعتوها بنعوت مختلفة . وما روح المدنية الا قبس من نارها الخفية التى تنبثق منها كل الانقلابات الاجتماعية والحركات الروحية

روح المدنية ! وهل للمدنية روح ؟ هوذا اصوات المتهكمين تتعالى من كل مكان . هل فى المدنية اليوم غير المظالم والاهوال وأسباب الشر والدمار ؟ قوى يستبد بضعيف . وأمة تعتدى على امة . وعلم يخدم السيف والدينار . ومظلوم يطالب بحقه فلا يجاب بغير النار ! أجل وراء كل ذلك روح فعالة تدفع البشر الى الامام . روح تتمثل فى يقظة الشعوب وتلمسها طريق الحياة وهى التى يخدمها كل خادم حقيقى للعلم ويدافع عنها كل متحمس لمبدأ عظيم . ولها فى حياة البشر برغم فسادهم الطبيعى وغرائزهم الحيوانية مظاهر شريفة أكتفى الآن بثلاثة منها :

١ — **انها ابداً تطلب الحقيقة** : فلا يقر لها قرار ما لم تر السبل حرة فى وجه المفكرين المخلصين والعمال الامناء . وكل حركة تمنع ذلك هى عدوة لروح المدنية . قام فى القرن السادس عشر للميلاد فلكى ايطالى دفعته ابحاثه الى المجاهرة باقوال مناقضة للمعتقدات السائدة . فقامت عليه القيامة وتهدده اولو الامر بالقتل واضطروه أن ينكر ما قال وأن يشهد على ملأ من الناس ببطلان آرائه ذلك لان حب الحقيقة لم يكن قد نضج بعد فى ذلك العصر فكان ابناؤه عبيداً لاوهام

(١) من خطبة ألقيت في حفلة الكبرى التي اقامتها جمعية الشبان المسيحية في يافا

وقفت حائلا بينهم وبين النور . وهكذا جثا غاليليو لاستبداد عصره . واذيق العذاب لاجل معتقده . بل هكذا عذب لاجل الحقيقة كثير من الابطال وأحرق على مذبح الجهل كثير من الحقائق . وانما يضطهد المخالفون للمعتقدات السائدة . أو الواقفون فى وجه القوى الجائرة اذا كانت روح المدنية التى هى طلب الحقيقة ضعيفة فى قلوب الجمهور فلا يكترثون لها ولا يبالون بمظاهرة اربابها

فى العلم ـ فى الدين ـ فى السياسة . هذه الروح تطلب الحقيقة . هى تكرمها فى مذهب النشوء كما تكرمها فى تعاليم الكنيسة . تنشدها فى الكليات والجامعات كما تنشدها بين الازقة والساحات

روح المدنية : تخدم العلم الصحيح المبنى على المعرفة والروية والاختبار
العلم الذى يهذب الفكر ويوسع الصدر ويخضع للبرهان
العلم الذى لايعرف وطناً غير الوجود ولايتعصب لجنسية غير الحقيقة

روح المدنية : تقدس الدين القويم المبنى على الفضيلة والمعاملات الشريفة
الدين الذى يرفع النفس الى المثل الاعلى ويملأ القلب حباً ووقاراً
الدين الذى لايعرف وطناً غير الله ، ولا يتعصب لجنسية غير الانسان

روح المدنية : تناصر السياسة الحازمة المبنية على الاخلاص للجمهور
السياسة التى تعين الامة وتخدم مصالحها
السياسة التى لاتعرف وطناً غير الحق ولا تتعصب لجنسية غير العدالة !

قيل كان علماء اكسفورد فى العصور المظلمة يغرم الواحد منهم خمسة شلنات عن كل مرة يكسر بها تعليما من تعاليم ارسطو . اما روح المدنية الحقيقية كما تظهر اليوم فتنشط حب البحث وتفتح للفكر ابواب الحرية وتعمل على ازالة الاوهام والترهات وتهيب بالانسان الى نصرة الحق والعرفان . واذا كنا نرى اليوم حتى فى اميركا الديموقراطية من يقوم على استاذ ويدينه لمجاهرته بما يخالف بعض التعاليم الدينية فى مدرسة رسمية . أو فى مصر الحديثة من يثور على شيخ لتصريحه برأيه فى مسألة الخلافة . فيتهمه بالمروق والزندقة ـ فان هناك ايضاً فى هذين البلدين وفى سواهما من ينادي : دعوهما وما يعتقدان . هناك رأى مهذب قد تشرب روح الحقيقة ونادى بتقديس الحرية الادبية

ابداً تطلب الحقيقة هذى الروح   ليست تخشى عدى او عوادى
فهى نور الحياة ان غاب ضل النا   س فى سيرهم سبيل الرشاد

٢ ـ **هذه الروح تحترم النظام وتؤثر المبادىء على الاشخاص** : الناس فى ادوار انحطاطهم عبيد لفرد أو لافراد ، هم عندهم الكل فى الكل . فلايعرفون نظاماً الامتى اجبروا عليه

ولايقدسون مبدأ الا اذا كانت وراءه قوة تناصره. فاذا ارتقوا وتنظمت حياتهم الاجتماعية تضاءلت لديهم قوة الشخص امام قوة النظام وجعلوا هدفهم فى الحياة خدمة المبادىء. قرأت لأحد صحافيينا الأدباء ان غلادستون وقف مرة امام الملكة فكتوريا العظيمة. وطلب منها ان توقع نظاماً اقره المجلس الانكليزى ولم تكن الملكة تريده فابت وقالت: لا اوقعه. فاجاب غلادستون: إن المجلس يا مولاتى قد اقره فيجب أن توقعيه. فالتفتت اليه مغضبة وقالت: مستر غلادستون انا ملكة انكلترا وأمبراطورة الهند وتقول لى يجب؟ قال: نعم يا مولاتى أنا شعب انكلترا. فكأنه يقول انا خادم لنظام هو اعظم من الملوك والسلاطين. وما الحياة لو حققت الا نضال مستمر بين روحين شديدين قوة النور وقوة الظلام ـ ثنوية ازلية وستبقى الى آخر الايام! ومن هم المصلحون العظام الذين ظهروا فى تاريخ الامم إلا افراد قلائل تشربوا هذه الروح العظيمة فاحتملوا ووضعوا باحتمالهم أسس المدنية والارتقاء. قال بعض الحكماء الاقدمين: «سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها». قول حكيم يصدق على بعض الاقطار وفى بعض الاحوال. ولكنه لا يتمشى مع روح المدنية اليوم. فهى لا تخدم سلطاناً لانه سلطان ولا تعمل لمصلحة فرد لما له من النفوذ. بل تخدم ما تحسبه النظام الاسمى وتعمل فى سبيل الخير العام. وما اوضح ذلك فيما روى من حديث خالد بن الوليد مع الامام عمر يوم عزله من قيادة الجند فبقى خالد مع ذلك يحارب ويجاهد كأحد الجنود. ولما قيل له فى ذلك قال قوله المأثور: «انى لا أحارب من اجل عمر، ولا من أجل سواه» يعيش الذين امتلأوا من روح المدنية اليوم ووقفوا حياتهم على نصرتها. كان لأحد كبار الماليين فى اميركا حفيظة على استاذ فى جامعة هارفرد فبعث الى رئيس الجامعة يقول: «انى اقدم عشرة ملايين دولار للجامعة اذا كانت تطرد ذلك الاستاذ» فاجابه الرئيس: «ليست جامعة هارفرد سلعة تباع وتشترى» ليست روح المدنية تزلفاً الى شخص او طمعاً بحطام ولا هى خنوع لذى منصب او تعلق بمقام. وانما تعد الامة امة راقية متى عرف افرادها الواجب عليهم للقوى العليا وساروا بحسب ذلك الواجب بشجاعة واخلاص

قام الامبراطور الرومانى كالغيولا وصدمته هزة دماغية ذهبت بانتظام قواه العقلية فعبث بالامة وهتك حرمتها ودنس باعماله رومة وشرفها. ومع ذلك جثا له خاصته وهم المبغضون. وعبدته رعيته وهم المستضعفون. وقد بلغ به الغرور ان جعل حصانه قصلا (عضواً فى المجلس الاعلى) فصفق له الناس استحساناً إذ لم يكن فيهم يومئذ جبابرة نفوس يحترمون المبادىء السامية ويؤثرونها على الاشخاص. وقام قديماً عتاة الامم فسخروا الناس لغرورهم. وغواة الحروب والتدمير فساقوا الالوف لاطماعهم. قام فيهم نيرونهم وفرعونهم وتيمورهم واضرابهم. ومع ذلك أقام لهم أهل عصرهم اقواس النصر ومدوا لهم أعناق الذل ورفعوهم الى مصاف الآلهة. ولماذا؟ لان روح المدنية لم تكن قد حررت النفوس فكانت القوة المستبدة عندهم كل شىء. وكأنى اسمع هامساً

يقول : هى عبادة الأبطال التى ذكرها كارليل فى كتابه واهاب بالناس الى تعظيمها والاعتصام بها كلا ليست عبادة الأبطال ايثار الشخص على المبدأ وإخضاع الحق للقوة المادية . بل هى تكريم المبادىء العليا مجسمة فى شخصية عظيمة . فليكرم القائد العظيم الذى يقوم ابان العواصف فيخلص بلاده من الخراب . وليكرم العصامى الذى يجمع الثروة بجده واقدامه ليستخدمها للخير العام . وليكرم خادم العلم المجاهد لينير الاذهان ويخضع قوى الطبيعة للانسان . بل ليكرم كل خادم . نعم كل خادم للمثل الأعلى فى الحياة

المثل الاعلى ! قد يقول المتشائمون تلك لفظة لاتكون الا فى مخيلة الشعراء والفلاسفة . فالمدنية كانت ولاتزال تحت ربقة القوة المادية . القوة التى تستبد بالضعيف وتعبث بحقوقه

والمثل الأعلى ؟ ألا ترى الماليين يهزون رءوسهم تهكما ويقولون : المال ! المال !

والساسة يتغامزون ويهمسون : الدهاء ! الدهاء !

والقادة يقلقلون سيوفهم ويصيحون : الجند ! الجند !

كلا لعمرى انما المال والدهاء والجند مظاهر المادة فى المدنية . أما روحها التى تنير الحياة وتجعل الارض جديرة بسكنى الانسان فهى التى حملها رجال الاصلاح فى كل جيل - هى روح الاديب الذى لا يرى فى الادب غير خدمة الحقيقة - هى روح الحاكم الذى لا يرى فى السيادة غير خدمة الجمهور . وهى روح المالى الذى لا يرى المال غير آلة للخير العام . بل هى روح الطبقة الراقية من الشعب تظهر فى احترامهم لانفسهم فيربأون بها عما يدنسها أو يحقرها ويحتملون لاجل ذلك ما لا يحتمله سواهم فى الحياة - هى شخصية الامة وهى حاجة الامم الشرقية اليوم . ومتى تشربت امة هذه الروح وتمكنت من طبقات المتهذبين فيها فلا خوف عليها من عبث عابث أو جور جائر لانها جرثومة الحياة ولن تستطيع قوة ان تقتلع جرثومة الحياة من قلب امة تحترم نفسها وتقدس الروح الشريفة فيها

ان فى هذه الحياة لحرباً	بين روحين لاتزال سجالا
ليس فى امة رقى اذا ما	غلبت شهوة الرجال الرجالا

٣ - **روح المدنية تدعو الى التعاون وحسن التفاهم** : فهى تدك الحواجز التى يقيمها الجهل أو حب الاثرة بين الاجناس والطوائف . وتدعو الناس الى التفاهم والتعاون بدل التناكر والتنافر . كانت الكلمة فى أول مراحل الاجتماع للعصبية اى لتلك الرابطة الدموية التى تربط ابناء العشيرة بعضهم ببعض فيتحدون بها على الغريب . وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بالعمران البدوى . ثم تقدم البشر فاجتمعت العصبيات وتكونت منها الرابطة الجنسية او الدينية . لكن الجنس لم يبق فى حدود صرفة بل امتزج بعناصر أخرى وتكون من هذا رابطة الوطن . ولو راجعنا التاريخ لوجدنا أن

حب المصلحة الشخصية وطمع الطامعين طالما جعلا العصبيات والاجناس والاديان اعداء ألداء فتصادموا وتفانوا . وما موجات الحروب الجنسية والدينية في الشرق والغرب من أقدم ازمانها الى الآن الا تجاذب لبساط السيادة وسعي في زيادة المال والحطام . ولما كانت بلادنا بسبب موقعها الجغرافي ملتقى الشعوب الـكبيرة ومصطدم المشارب والمذاهب ، اصبحت تربتنا صالحة لبذور التعصب والشقاق . وطالما ذقنا منها انواع الشقاء والبلاء . ولا تنفرد نحن بذلك فالعالم كله لايزال يئن من تأثير الاطماع الجنسية ويتألم من وطأة النعرات الدينية ، على ان الانسان قد خطا خطوة الى الامام ، فتقاربت - بفضل العلم الصحيح والتهذيب الراقي - مذاهبه وجنسياته وأصبح الفرد المتهذب يرى في الانسانية وطناً هو اشرف الاوطان . وفي عبادة الله القلبية ديانة هي فوق الاديان . ولا اعني بالانسانية مايدعو اليه البلاشفة من مبادئهم المتطرفة بل اعني الشعور العام بوجوب التعاون وتبادل المنافع ذلك الشعور الذي يجل الوطنية الحقة ويقدس الدين الروحي فيمنع الجنس من امتهان الجنس وينزه الدين عن اذية الدين

وإن شرقنا العربي لن يتقدم الا بازالة الحواجز القائمة في سبيل عمرانه . وماعمرانه الا مقدرة افراده وأجناسه على التعاون والتضافر ، فلسنا بعداليوم مجموع قبائل متعادية كما قديصورهلنا الطمع والحسد ، ولا نحن في عصرنستطيع ان نعيش فيه عيشة التخاذل والتضاغن ، نعم لايزال في الشرق كثير من عوامل التفريق ، ولـكن شمس المدنية تعلو رويداً رويداً وشعور المجتمع بالمسئولية الانسانية ينمو نمواً مطرداً : واذا ذكرت بلادنا الشرقية فليس إلا لاننا كابنائها يهمنا كل ما يؤول الى فلاحها وارتقائها . والا فالمدنية الحقيقية العاملة على تحويل الافكار الى المصلحة العامة والى اهتمام الفرد باحوال المجتمع - الى ارتباط العناصر المتباينة والشعوب المتعادية برباط الشعور الانساني ، قد نفخت روحها في جميع البلدان وفي جميع الامم الراقية ، وهذه الروح هي التي نعبر عنها بالاريحية الانسانية أو « روح الخدمة العمومية »

ومتى قويت فينا هذه الروح التي تعنى بالمصلحة العامة وتقدس المسئولية المشتركة ظهر فينا الشركات الوطنية القوية والجمعيات العمومية المنظمةوانبسطت اكف اغنيائنا في سبل المشروعات الوطنية . واتحدت الطوائف على اختلاف نزعاتها تحت علم واحد هو علم الوطنية الراقية

أيها السادة - كما ان للانسان شخصية أو روحاً هي غير جسده هكذا للمدنية التي نراها ، وقد يهولنا ما فيها من فساد وشرور مجرى داخلي هو روحها الحقيقية

وهذه الروح هي التي يخدمها العلم الصحيح والدين الصحيح . وإذا تطير البعض منا لما في البشر من ميل الى الظلم والمكر والشراسة فليطمئنوا . ان في البشر ايضاً في كل جيل ولا سيما في هذا الجيل افراداً يضحون بمصالحهم لاجل المبدأ والحقيقة والخير العام . هؤلاء هم اقطاب الدنيا الذين عليهم يتوقف العمران . وبروحهم تسير الانسانية الى الامام

شبابنا الجديد : آماله وأحلامه (١)

بقلم الدكتور على العنانى

الأبناء بالنسبة إلى آبائهم هم فلذات اكبادهم ومتجه عواطفهم ومحل عبتهم ومعقد آمالهم . ومن أجل الابناء يكد الآباء ولأسعادهم يعملون وفى تهذيبهم يجتهدون وحول نفعهم فى العموم يفكرون ثم يفكرون . وهم بالنسبة الى الوطن ذخيرته الحاضرة وروضته الناضرة وعدته فى مستقبله القريب

والآباء بحكم الأبوة وبعامل الوطنية وشعور القومية هم معلمو الأبناء وأساتذتهم . وبمقدار ذكاء المعلم وغزارة مادته ونوع ثقافته تكون قيمة التعلم ويكون مدى نجاحه . والنتيجة اللازمة لذلك أننا إذا أردنا أن نعرف نجوى شبابنا المصرى الآن ، ونوع ما يجيش فى نفسه من أمل وجب علينا أن نلقى نظرة عامة على مابين الآباء والأبناء فى مصر من صلة عقلية هى صلة التربية والتهذيب ، أو هى جماع حياتنا العقلية وصورة ثقافتنا الحاضرة فى العموم

كل جيل من الأجيال يتكون حتما ـ وعلى الأقل ـ من الاجداد والآباء والابناء والاحفاد . والاجداد أساتذة الآباء ، والآباء بدورهم أساتذة الابناء كما تقدم ، والابناء بدورهم أيضاً أساتذة الاحفاد . والحياة العقلية لأية أمة من الامم فى أقصر أدوارها هى التى تشترك فيها هذه الطبقات الاربع . وطبقة الابناء تتكيف بالكيفيات العقلية التهذيبية التى تصل اليهم من طبقة الآباء . وهم يكيفون بها طبقة الاحفاد . وهكذا مع مايتبع ذلك من طبيعة الرقى المرتكز على مجهود الامة نفسها ، أو المرتبط بتقليدها للامم الحية الراقية ، وبالاقتباس من مجهوداتها العقلية والعملية فى القديم المجهول والجديد الغريب ، أو مع ما يتابع ذلك أيضاً فى بعض الظروف من عوامل التدهور

واذا كان الاب معلم أبنائه والابن تلميذ أبيه فالمدرسة الحقيقية التى تكون الناشئين وتكيف عقلياتهم بحكم الطبيعة ليست هى المدرسة النظامية فقط التى تلقى فى حجراتها الدروس وتلقن العلوم طبق خطط موضوعة ومناهج مكتوبة وقوانين للتعلم والتعليم مشترعة . بل هى أيضاً تلك المدرسة العامة التى لا ينصرف عنها الطالب آناء الليل وأطراف النهار مطلقاً . وتلك المدرسة فى القرية هى الدار والحقل وندوة السامر وسوق المتجر . وهى فى المدينة البيت والشارع والمقهى والمسرح والملهى والملعب والمسجد والمعبد والمصنع والمتجر والمربع والمتنزه ،

---

(١) حديث... مقدمة من مقال نشر بالهلال . . .

وهى فى المدينة ايضاً دور الاحزاب ونوادى الجمعيات والاتحادات والصحيفة والمجلة والرواية والكتاب والدرس والمحاضرة . هى كل ذلك وما اليه من جميع نواحى البيئة وانواع الاجتماع

فى هذه المدرسة العامة والبيئة الجامعة يخرج الآباء الابناء ويهذب الابناء الاحفاد . والشباب يستقر فى عقليته ونزعاته ويستريح لحياته الحاضرة ومستقبله إذا كانت الامور كلها فى هذه المدرسة العامة والبيئة الجامعة مستقرة والحياة فيها منظمة ومدعمة وطريق المستقبل بها معبداً

والأمة التى تتنبه فى حياتها وتدرك وجودها وتجل فى نفسها وتسمو فى رغباتها وترنو إلى التقدم فى صفوف الامم الحية الراقية ، تعرف أن سبيلها الاول الى ذلك — ولا شك — الرقى العلمى والتهذيب الاجتماعى فتقلد غيرها فى ذلك ، وتنتج هى ايضا بعقلها وتفكيرها الخاص بها ، وتعين روح ثقافتها فى حدود قوميتها ، وتجدد مثلها الاعلى الذى به تمتاز . وهى فى كل ذلك ربما توفقت ووصلت الى النهاية فى المكانة القصوى بأسرع ما يكون أو بعد طويل من الزمن ، وربما تخبطت وسارت على غير هدى فلا تقطع شوطاً ولا تتقدم شبراً ، وكثيراً ما تؤوب إلى الوراء

وفى الحالة الأولى يكون الشباب وثاباً فى وداعة وحكمة فيهتدى ، وناهضاً فى هدوء واستقرار فينجح ، وعاملا فى ابتهاج وحبور فيفلح . وفى الثانية يعدو فى اضطراب وقلق فيضل . ويسرع فى حيرة واندفاع فيعثر . ويتحمس فى طيش ونزق فيخطىء . وينشط فى وجل وكدر فيخيب ويخسر . واذن فتوفيق الشباب وسروره واستقراره أو اخفاقه وكدره وحيرته — لا شك كل ذلك راجع الى حالة بيئته الجامعة ونوع مدرسته العامة وعقلية الآباء أساتذتها وما تنتجه هذه العقلية من أثر يكيف نوع الحياة ويصور حالة الاجتماع

فى هذه المدرسة العامة — أو البيئة الواسعة الجامعة والمرآة الشفافة الواضحة — نلمح الشباب المصرى من جهة مضطرباً فى حيرة لانها مضطربة متناقضة ، وهيمان صاديا لأنها جافة وجامدة . ونراه من جهة أخرى مملوءاً بالحماسة والنشاط لانها راغبة ومرغبة فى الحرية وشاعرة بالعظمة القومية وطافرة الى الرقى والنهوض . ودين الشباب فى مصر الحرية وشعاره العظمة القومية ومطمحه التقدم والرقى . ولقد ورث هذا بالطبع عن الآباء وغالى فيه بتأثير روح الوقت والنهوض العام . لذلك هو متشبع بالحماسة وشاعر بالعظمة ومملوء بالنشاط

ما تزال التربية العلمية فى مصر — برغم كل علاج فيها حتى الآن لاصلاحها — متشعبة متضاربة لا تفرق بين المروى الموروث والاسطورى القديم والعلم التجريبى الحديث . بل ما يزال التعليمان الدينى والاهلى فيها لا يلتقيان عند حقيقة واحدة وعقلية متحدة عامة . وانما عقليتنا — وهى نتيجة هذه الجهات المختلفة كلها — مازالت مختلفة الالوان والنزعات والمبادىء والرغبات . وكل هذا — ولا شك — من عوامل الاضطراب والقلق المحض . وماذا ننتظر من الشباب المثقف بمثل هذه الثقافة إلا الحيرة الواسعة وعدم الاستقرار !

تصدر في مصر فريق غير ناضج في الثقافة العامة مدعيا معرفة كل شيء وناصبا نفسه الى الارشاد في كل شيء أو بعبارة عامة الى القيادة الفكرية. ولا يتورع هذا الفريق مع الاسف الشديد عن التعرض لما لا يعرف ويقرر حكمه فيه. والامثلة على ذلك كثيرة جداً: نذكر من بينها تلك الدعوة العجيبة الى اشتغال الشباب المصري بأدب قومي مصري وما يتبع ذلك من اهمال جانب الأدب العربي العام! وبربك أخبرني: أين هذا الأدب القومي المصري؟ أهو أدب الفراعنة أم أدب العرب المصريين. وفي أية لغة على كل حال قد دون هذا الأدب؟

واذا كان هذا الأدب القومي المصري مدوناً في لغة العرب فأدب هذه اللغة هو أدب اللغة العربية العام منذ نهضتها الجاهلية الأولى حتى الآن. وغاية ما في الأمر أن مصر لها ذوق خاص فيه كما لسورية وفلسطين والعراق واليمن ونجد والحجاز وبلاد أفريقا الشمالية وأقطار الأندلس، من الاذواق الأدبية المختلفة. وكل واحد منها متوقف طبعاً في فهمه واستساغته على فهم الأذواق العربية الأدبية الأخرى في جميع أقطارها المترامية. وبالجملة فهذه الفكرة الزائفة والدعوة الهوجاء اليها ـ مع ما فيها من قول خلاب ونزعة وطنية ظاهرية براقة ـ ليس فيها سوى إغراء الشباب ضد الحضارة العربية والتضليل به في هذا السبيل. ماذا تكون عقليته وعواطفه مع هذا الاغراء والاضلال فيما يختص بالدين وأمه ومجد الساميين؟

بعض الصحف اليومية وبعض المجلات تنهش الاعراض نهشاً قاسياً. وتقذف في الزعماء والقادة قذفاً فاحشاً. وهذا القذف وذاك النهش ـ وهما واقعان على آباء الناشئين ومعلميهم ـ كارثة فادحة وجريمة قومية مضاعفة تضر بأخلاقنا وبقوميتنا وشرفنا ووحدتنا (المرجوة طبعاً) وهي كما تسيء الينا وتضر بنا في كل هذه النواحي تسيء أيضاً الى أبنائنا الشبان في كل ذلك

وبأي شيء يذعن الشباب والحالة هذه؟ أبالسباب أم بالدفاع؟ أم بهما معاً؟ أم بأحدهما تارة وبالآخر أخرى؟ أم يميل الى نبذ السباب والمتسابين؟ انه في النهاية من جراء ذلك لفي اضطراب وأسف وفي نفرة واختلاف وفي شقاق ونضال. وبئس النضال نضال الدفاع عن الرذيلة!

مبدؤنا واحد في السياسة والاجتماع سواء في ذلك الافراد والجماعات والاحزاب. ولكن عملنا مختلف أشد الاختلاف فيهما ومتنافر كل التنافر في هذا الباب: ننادي بالمصلحة القومية العامة ونعمل للصالح الفردي الخاص. ويرى الشبان ذلك وأي شيء يفقهون؟ أيصدقون القول؟ أم يقتنعون بالعمل؟. إنهم في الواقع لفي حيرة وفي قلق. وانهم لفي اضطراب وضيق ذرع

في كل عام يتخرج الآلاف من الطلبة. وفي كل عام يتقدم الآلاف للتعلم من الاطفال. وفي كل عام ينتقل الآلاف تلامذة وطلبة من سني الدراسة المختلفة إلى التي تليها. وفي كل عام في النهاية تزيد النسبة في كل ذلك عنها في العام السابق. ومع ذلك فمستقبل الجميع ليس باسماً، وماذا يكون فكر الشباب والحالة هذه سوى الحيرة والابتئاس والحنق على الزمان والمكان!!

يا قمر

بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

من ذا يطيق السرى والليل معتكر ومن يحنُّ له لولاك يا قمرُ
جهامة الليـل لما ارتدتَ ساحته عكستها متعةً يحلو بها السهر
ولم نكن لنرى من فرط حلكتهِ مقدار حلكة ما لا يبصر البصر
حتى ليسأل ساري الليل صاحبه هل ادلهمَّ الدجى أم قد عشى النظر
فشعّ نورك إيضاحاً لظلمته وبات يعرف كنه الظلمة البشر
فعجبْ لنورك تبدي الليلَ آيتُه وآية النور أن يعفى الدجى العكر
واعجب لقرصك يقفو كلَّ مدَّلج وإن تعارضت الوجهات والوطر
ناءٍ ـ وكل نفيس القدر منعزبٌ كما نأت في قرار العيلم الدرر
تضيء كالدرة الغراء ملتمعاً وغيهب الليل كالأمواج منهمر
سهران تمشي الهوينا مطرقاً أبدًا مشي الحكيم قد استغرقته الفكر
تجلو المشاهد في القمراء شاحبة كأن عالمها الاشباح والصور
ياليت ان حياتي كلها سمر في ليلة وسميرى انت يا قمر

البلاغة في اللغة العربية

من محاضرة القاها الاستاذ على عبد الرازق

من النتائج اللازمة لادراك الجمال فى الكلام والتأثر به أن تنصرف العقول الى معرفة أسرار ذلك الجمال والبحث عن حقيقته وعن درجاته وعن كل ما يتصل بهذا الجمال

وإذا اتجهت العقول الى هذه المباحث نشأت علوم البلاغة . فان علوم البلاغة ليست إلا هذه المباحث وما ينحو نحوها

إذن فمباحث البلاغة كما ترون قديمة وليس من البعيد أن تكون نشأتها فطرية فى الناس كما كان إدراك البلاغة نفسها فطرياً فى الناس منذ كان الانسان حيواناً ناطقاً

على أنها اذا لم تبلغ فى القدم هذا المبلغ فما لا شك فيه عندنا أن أقدم عصور الفلسفة اليونانية قد وجه أذهان الفلاسفة الى البحث فى معنى البلاغة ووجوهها وأسرارها ضرورة ما كان لفنون الخطابة والجدل والكتابة والشعر ايام إذ من شأن كبير

ومما لا شك فيه عندنا أن ارسطاطاليس قد بحث فى البلاغة ايضاً والف فيها كتاباً

وههنا ملاحظة نرجو ألا يغضب منها سادتنا الفلاسفة والمنطقيون . فلقد يذهب بنا الظن والله أعلم الى أن علم المنطق الذى ينسب الى أرسطاطاليس . قد كان بحثاً فى فنون البلاغة وعلماً من علوم البيان أكثر مما كان علماً من علوم الفلسفة وبحثاً من مباحثها . كان باباً من أبواب الأدب يدور حول صنعة القول وما يتصل بأغراض البلغاء من التأثير فى العقول بضروب البيان والحام الخصوم بوسائل الجدل ، أكثر مما يدور حول صنعة العقل ونظام التفكير الانسانى

ربما تجدون هذه الحقيقة غريبة عليكم ، ولكن قد يساعدكم على ادراكها أن تلاحظوا العوامل التى أحاطت بنشأة المنطق والتاريخ الذى وجد فيه

ليس من غرضنا أن نقيم لكم البرهان على ذلك ولا يتسع له وقتنا ، ولكن الذى يشق عليكم من هذا الرأى سيبدو لكم هيناً سائغاً اذا أنتم نظرتم فى جملة أبواب المنطق . فستجدون عندئذ أن شطراً كبيراً من تلك الأبواب ليس الا بحثاً فى مسائل تتعلق بالألفاظ والمعانى والعلاقة بينهما ، وشطراً آخر ليس الا بحثاً فى أساليب التحديد للأشياء وتعريفها وكيفية تأليف الحدود والتعريف . وشطراً آخر ليس الا بحثاً فى وسائل الاقناع والتأثير من برهان والخطابة والشعر

والجدل والسفسطة وما يتصل بذلك من كيفية تأليف الحجج وتنظيمها ، ولم يبق بعد ذلك إلا ما يذكر استطرادا وليس من جوهر المنطق فى شيء

وانه لمن غريب ما يلاحظ أن العرب قد سموا ذلك العلم بعلم المنطق ، كأنهم أدركوا أن علاقته بالكلام أقوى من علاقته بغيره . ومن الغريب ايضاً أن العرب قد سموا بعلم الكلام تلك المباحث التى أنتجها المنطق وأنتج بها نوعا جديدا من الادب واسلوبا طريفا فى البيان ومنهجا محبوبا من مناهج الجدل والاقناع خصوصا فى الدين ، كأنهم مع ما تخلل تلك المباحث من دين أو فلسفة لم يلاحظوا فيها غير أنها فن من فنون البلاغة والأدب

نعم قد جهل اليونان أنفسهم والعرب والاوربيون ما فى المنطق من أدب وفن، فخرجوا به الى حدود الفلسفة الجافة العميقة . وذلك كما جهل العرب أنفسهم فيما بعد ما فى علم الكلام من أدب وفن فخرجوا به الى حدود الفلسفة الجافة العميقة . وبذلك أصبح المنطق أسلوبا ركيكا معقداً وعلما لاخير فيه للفكر ولا للسان ، كما أصبح علم الكلام عندنا خليطا من السخف الفكرى والغثاثة اللفظية

وكذلك العلوم اذا تأملتم تجدونها « تشقى كما تشقى العباد وتسعد »

مباحث البلاغة كما ترون قديمة لا يمكن الاهتداء إلى اول تاريخها . فكل من يدرك أن فى الكلام جمالا يندفع من نفسه الى التماس معنى ذلك الجمال وسره والى البحث فى وجوه ما يزين الكلام وما يشينه

تلك هى المباحث التى يدور حولها علماء البلاغة فى كل امة ، وتلك هى المباحث التى يدور حولها بحث الفلاسفة اليونانيين ، ويدور حولها العرب منذ عصورهم الاولى ، وتلك هى مباحث البلاغة التى حيرت العقل البشرى منذ القدم والتى تواردت على حلها انظار العلماء والأدباء والفلاسفة من أهل الشرق والغرب قديما وحديثا . فياليت شعرى هل لقيت تلك المباحث من يجيء لها بحل ومن يصل فيها الى قول فصل ، ام لا يزال العقل البشرى حيث كان من الحيرة بها والشك فى أمرها ؟

ذلك مانريد ان نتحدث اليكم عنه قليلا فى بقية هذه المحاضرة

هل يمكن تحديد البلاغة ؟

قد يكون الشيء واضحا غاية الوضوح ومدركا تمام الادراك ، ومع ذلك لا يسهل الوصول لى تحديد حقيقته ومعناه . مثال ذلك الضوء والكهرباء ، فالضوء جلى مبصر لكل ذى عينين ، والكهرباء محسوسة يستخدمها الناس فى كثير من مرافق الحياة . ومع ذلك لايزال العلماء فى حيرة من حقيقة الضوء والكهرباء ! . وأيضاً كلنا نعرف الوجود معرفة واضحة ، حتى قال بعض

العلماء ان ادراك الوجود بديهى ، ومع ذلك لا يستطيع العلماء بسهولة ان يحددوا حقيقة الوجود ومعناه . وكذلك الجمال كلنا ندركه ونتأثر به ونتحدث عنه . فاما حقيقة الجمال وحدوده فمطلب لا يزال عزيزا . ذلك هو شأن البلاغة يدركها الناس بالفطرة كما قلنا ويتأثرون بها ويتحدثون عنها ، فاما اذا ما ارادوا ان يعرفوا حقيقتها ويرسموا حدودها ويتبينوا اسرارها فهم يحاولون من ذلك امرا عسيرا ويطلبون غرضا بعيدا ويدخلون فى مجال مشتبه الاعلام مظلم الجوانب . ذلك بان الناس فى مباحث البلاغة لا يجدون مقياسا ثابتا يحتكمون اليه ولا اساسا واضحا يبنون عليه ولا مبدأ صريحا يصدرون عنه ولا غاية معينة يرجعون اليها . فليست مباحث البلاغة كمباحث علم النحو مثلا مدارها على ماينطق به العرب ، ولا كعلم الطب مرجعه الى ماتقضى به التجارب ، ولا كعلم الحساب اساسه العقل الخالص ، ولكن مباحث البلاغة مذبذبة حيرى بين أيدى العلماء يردونها احيانا الى حكم العقل واحيانا الى حكم النقل واحيانا الى حكم الذوق ، ويجعلونها مرة من مباحث الالفاظ ومرة من مباحث المعانى ومرة من مباحث النظم والتأليف . فلا غرابة أن تتشعب بهم المذاهب وتتفرق بهم الآراء

روى الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين انه قيل للفارسى : « ما البلاغة ؟ » قال : « معرفة الفصل من الوصل . » وقيل لليونانى : « ما البلاغة ؟ » فقال : « تصحيح الاقسام واختيار الكلام . » وقيل للرومى : « ما البلاغة ؟ » قال « حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة . » وقيل للهندى : « ما البلاغة ؟ » قال : « وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . » وقال بعض اهل الهند : « جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة . » اه

ذلك مثال تدركون منه مقدار اختلاف الاعاجم فى ماهية البلاغة . على اننا لسنا بصدد ذلك وانما الذى يعنينا هو مذاهب العرب فى البلاغة لا مذاهب العجم . وذلك هو الذى نحن بصدد الحديث معكم فيه

مباحث البلاغة فى اللغة العربية

ان اقدم ما نعرف من تاريخ العرب وما وصل الينا من آثارهم ليدلنا على انهم كانوا يتحدثون فى مناحى البلاغة ويبحثون عن وجوه الاحسان فى الكلام منذ الايام الاولى فى تاريخهم القديم . ولقد نظن ان العرب يمتازون عن سائر الامم بمزيد العناية بهذه المباحث والانصراف فيها

ويرجع ذلك الى طبيعة العرب اولا والى طبيعة اللغة العربية ثانيا

اما طبيعة العرب فلانها لاشك من اسلم الطبائع ونفوس العرب من اصفى النفوس وقلوبهم من ازكى القلوب . ولا ريب فى ان العرب من ادق الناس حسا و ... فطرة و ... سجية

واما اللغة العربية فلأن فيها من المرونة مالا نعرف له فى لغة اخرى نظيرا . فى الكلمات مرونة تساعدك على ان تشتق من الكلمة الواحدة عشرات من مختلف الصيغ للدلالة على مختلف المعانى . وفى الجمل مرونة تساعدك على ان تتخذ من الجملة الواحدة صوراً كثيرة بالحذف والزيادة والتقديم والتأخير والتغيير والتبديل تبعا لاختلاف ما تريد الدلالة عليه من دقائق المعانى المختلفة . وفى هذه اللغة سعة لا نعرف لها فى لغة اخرى نظيراً . فهى لاتضيق بمخترع جديد ، ولا بمعنى جديد ، بل كلما احدثت لها موضوعا احدثت لك ما يناسبه من الاسماء والعبارات

من اجل مافى هذه اللغة من المرونة والاتساع مع ما اختصت به من الحركات والسكنات ، تمتاز العربية بأنها من اغنى اللغات مادة واوفرها اسلوبا وارحبها ساحة بضروب المجاز والتشبيه وسائر فنون البلاغة

ولستم تجدون اليوم فى جميع الأرض شرقيها وغربيها لغة قائمة وسعت ما وسعته اللغة العربية من صنوف الحضارة المختلفة وتقلبات الشئون عليها من نهضة وانحطاط وسلم وجهاد، ومن تجمع الشعوب فى حماها من كل لون ولسان . ثم لم يصبها من ذلك ما اصاب غيرها من اللغات ، بل خرجت من كل ما ابتليت به حية سليمة قوية ، فكانت بين اللغات الحية فى عصرنا الحاضر من غير ريب اقدمها وجودا واصلبها عودا وامجدها تاريخا . مزية خص الله جل شأنه لغة العرب بها منذ اختارها لسان دينه الخالد ولغة كتابه المحفوظ

من اجل مافى طبيعة العرب من ذكاء وصفاء وما فى لسانهم من متانة وسعة ، كان لمباحث البلاغة عندهم من الشأن اكثر مما عند الامم الاخرى، فقدكانوا منذ عرفنا لهم تاريخا يتجادلون فى الشعر ويوازنون بين شاعر وشاعر ويفاضلون بين بالغ وبليغ

وما نظن أحداً غير العرب بلغ مبلغهم فى تعظيم الكلام البليغ وتقديره ، وما نظن انك واجد غير العرب امة لعب بها البيان فاقامها واقعدها وفرقها وجمعها ورفعها ووضعها

وما نظن احدا غير العرب استطاع ان يقول فى اللسان ماقال زهير :

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته او نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وصف القلب

للاستاذ احمد الزين

من لقلب بين الجوانح عانى ... جمع اليأس والمنى في مكان
شاعر في الضلوع يخفق بالمعـ ... ـنى فيعيا عنه بيان اللسان
كم خيال له يضيق به اللفـ ... ـظ فيسمو اليه بالخفقان
وأمانيّ فيه كالزهر منها ... ما ذوى والقليل في ريعان
فهو راث لما ذوى من أمانيـ ... ـه ومستبشر بباقي الاماني
باكياً شجوه وآنا تراه ... يتغنى بعذب الالحان
قطع العيش بين خوف وأمن ... ورجاء ناء وآخر دان
فتراه حيناً يلج به الوجـ ... ـد وحينا يلوذ بالسلوان
وتراه يسيل كالماء لطفـ ... ـاً وتراه كالنار في الثوران
صمت وهو لاينى عن حديث ... مطمئن في ثورة البركان
يالسلطانه القوي ولا شيـ ... ـء عليه في الارض ذو سلطان
لاتلمني اذا تبعت هواه ... هو بعضي وآخذ بعناني
كم حداني لي هوى لم يدعني ... فيه أصغي لفكرتي وجناني
قادني للهوى ولو كان يدري ... ما يلاقيه في الهوى لنهاني
لجّ فيه فكان شراً عليه ... ليتني قد عصيته إذ عصاني
عصف الحب بالقلوب فقلب الـ ... ـليث في حربه كقلب الجبان
مصغ في الضلوع يؤلمه لمس ... غدت نهبة لصرف الزمان
فوق موج [illegible] تذهب حيرى ... كسفين تسري بلا ربان
وهي بين الاحزان تفنى ويحيـ ... ـيه حين التعمير والنسيان
حـ من صغير ميولا وهو ... ء ولم يعد [illegible] الاسـ
يرقى من [illegible] نور ... تتراءى في صورة [illegible]
[illegible] ... [illegible]

رجعة اوربا الى الاحتشام والتقيد[١]

للاستاذ محمود عزمي

شاهد المشاهدون منذ القدم وأقرهم الاجتماعيون فى العصر الحديث ، ان العالم تنتابه عواصف خلقية وتفكيرية كلما حلت به كارثة كبرى تخضعه لنوع من الحياة غير مألوف عادة . ويرجع علماء الاجتماع هذه الظاهرة الى رد الفعل المحتوم الذى يطلق الاعصاب اطلاقا بعد ان تكون قد قيدت على الرغم منها تقييدا . والحروب هى المثل الانشائية تضرب للكوارث الكبرى التى ينتاب البشرية من جرائها ما ينتابها من عواصف تتاخم الثورات فى كل شيء ، والتى يحمد الباحثون الاجتماعيون قيامها فى حياتهم اذ يعتبرونها تجربة اجتماعية لا يكتب لكثيرين ان يتتبعوا تفصيلاتها ويراقبوا تطوراتها ويستخلصوا احكامها

وقد قامت الحرب العالمية الاخيرة فى منتصف سنة ١٩١٤ وعقدت معاهدات الصلح الخاصة بها فى سنة ١٩١٩ — وان كانت مؤتمرات تسوية الصلح الحقيقى ما تزال تعقد الى اليوم — فوقعت تحت اعيننا تجربة من تلك التجربات الاجتماعية التى يلذ للباحث المحلل ان يشهدها مهما بلغت الاحزان التى تتفجر منها ، والحسرات التى تبعثها فى الأفراد وفى الجماعات بعثا . والناس مثابرون على اعتبار « باريس » عاصمة العالم كله يحسون كل مايقع فيها من حوادث ويتجلى من مظاهر ممثلا لروح العصر مؤديا للاتجاه الذى تريد البشرية المتحضرة ان تقصد اليه . وهم الى جانب هذا مثابرون ايضا على اعتبار «باريس» متفوقة على غيرها من العواصم فى مظاهر الخلاعة و « السهولة » رغم الشواهد التى يلقاها الباحث الجدى منبعثة من اواسط برلين ولندن ونيويورك للدلالة على أن ما يسند الى باريس انما هو مسند الى ظواهر أكثر منه الى حقائق مادية . ومهما يكن من أمر فان مثابرة الناس على هذين الاعتبارين تدعو الى حسبان « باريس » أكثر البيئات ملاءمة للمشاهدة الاجتماعية التى تتصل بدرس موضوع الانطلاق التفكيرى والخلقى الذى يحتم وقوع الكوارث العالمية قيامه ثم يدرس رد الفعل المحتوم الذى يلى دوره دور ذلك الانطلاق الذى كثيراً مايعبرون عنه بالتراخى ” Relâchement “

الجرأة فى الانطلاق بعد الحرب الكبرى

ولقد كانت أولى زياراتى لباريس بعد إذ غادرتها فى سنة ١٩١٢ إثر اتمامى الدراسة فيها ،

(١) اخترناها من مقال نشر منذ سنوات

كانت فى ربيع سنة ١٩٢٠ فدهشت لما وجدت فيها هذا التراخى الذى كان راجعاً حتماً الى انطلاق الأعصاب من تلك الحظيرة التى قسرت على البقاء فيها مدى سنوات الحرب ، والى اعتبار « الفردية » الذى تفشى فى الجماعة تفشياً خشى القوم أثره فى كيان الجماعة . فكنت لاترى للمجاملة مظهراً وكنت لاترى لمجرد الادب فى المعاملة مشهداً ، وكنت لاترى لتيار التلذذ والاستمتاع بكل أنواعه جسراً يقف عند حده . وكان أظهر مايتجلى اليك فى هذا المضمار تلك الهبة من جانب النساء الى التساوى بالرجال فى الزى والزينة ، والقيام بجميع أنواع الاعمال التى كانت الجماعة السابقة للكارثة الكبرى تعتبرها من اختصاص الرجل ، بل تعتبرها من التكاليف الملقاة على عاتق الرجل توقيراً للشاق أن تحل بالمرأة ، ذلك المخلوق الدقيق بل ذلك الطائر الذى لا يطلب اليه إلا أن يحلق فى جمال السماء . وكنت ترى الى جانب هذا الذى يتجلى فى ميدان « الانطلاق والتراخى » مظاهرة أخرى فى نواحى الفن وقد هجمت على مبادئه السامية نظريات « المكعبات » كما هجمت نغمات الزنوج وآلاتهم المزعجة وأنواع رقصهم القريب من البهيمية الاولى . كذلك تملكت « الانفرادية » وظائف الاعضاء عند الرجال والنساء فتحكمت فيها الشهوات المطلقة حتى من قيود الطبيعة العادية ، بحيث أصبحت العلاقات الشاذة محل مباهاة النوعين ، الى حد أن أقيمت لها الأندية ، والى حد أن كونت لاجلها الجماعات الأدبية ، لا تقبل فى حظيرتها إلا من كان متصفاً بذلك « الانطلاق المقلوب » بل أسست جماعة نشر لا تعضد غير الكتاب الذين يتصفون بذلك الاتصاف الجديد . وكذلك كان الحال فى فن العمارة الحديثة ، وفى فن التأثيث الحديث ، حيث كان عدم القاعدة هو القاعدة وفوضى الضابط هى الضابط . وكان طبيعياً مع ذلك كله أن تتجاوز تلك الروح ميادين الريبة والخلق والتفكير والفن الى ميادين السياسة وأنظمة الحكم ، فكان طبيعياً أن ترى تيار « الشيوعية » يحاول دائماً أن يحرف أنظمة الحكم المقررة

الرجوع الى التغير

وقد اتفق لى أن كنت أتردد على باريس مرة فى كل عام بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٣ فكنت أشهد تلك المظاهر سائرة فى سبيل التجلى بخطوات أوسع من تلك التى كنت لاحظتها فى سنة ١٩٢٠ ، وكنت اسمع أن التنافس فى هذا المضمار ضارب أطنابه بين باريس وبرلين الى حد أن « المتذوقين » للطراز الحديث كانوا ينتظرون أن تكون الغلبة آخر الامر لاهل الامبراطورية السابقة

تغيبت عن «باريس» ست سنوات وعدت اليها هذا الصيف فلاح لى أن فى الافق أمارات على توجه جديد يريد أن يشمل الفكر والفن والخلق والسياسة جميعاً . وأن هذا التوجه انما يقصد العودة الى شىء مما كانت تتصف به الجماعة الأوربية قبل الحرب من الاحتشام المعروض والتقيد المتعارف عليه . فشهدت تلك الامارات ميلا الى التراجع الخير ، وأردت أن أسجل مشاهداتى

كى يطلع عليها قراء الهلال الشرقيون فيدروا ان لتلك الهبة الاولى حداً قد وقفت عنده، وان هناك تراجعاً قد بدأ القوم فيه. حتى لا يندفعوا هم فى ذلك التيار الذى وقف بالفعل عند من كانوا هم خالقيه. فلا نظل مدهشين فى تطوراتنا نستمسك لنسائنا بالحجاب الذى جاءنا عن طريق الفرس وقد نبذه الفرس أصحابه الأولون بالفعل، ونستمسك بالطربوش على أنه لباسنا القومى فى حين أن اليونان أصحاب بدعته والاتراك وسطاء نقله الينا قد نبذوه نبذاً بالفعل

التقيد فى طرائق الحكم

شاهدت إذن بباريس هذا الصيف مظاهر عدة تدل على التراجع الحقيقى فى ميدان التفكير والاخلاق والسياسة، قصد التقيد بما كان شائعاً قبل الحرب من قيود مصطلح عليها لفائدة الجماعة ولمصلحة التناسق الذوقى العام

شاهدت فيما يتعلق بالحكم وسياسته وبالنظم الاجتماعية العامة واتجاهاتها ميلا الى الجد فى أخذ الأفراد والجماعات. فقد كانت الظاهرة المتجلية فى حكم وزارة مسيو «بوانكارى» أنه كان كثير التهديد بالانسحاب من الحكم، وكان كثير عرض الثقة بالوزارة كلما رأى مجلس النواب متباطئاً فى التصديق على مايقدم اليه من مشروعات. وكذلك كان حال مسيو «تارديو» وزير الداخلية ـ وهو واحد من تلاميذ الوزير الكبير «كليمنصو» ـ فقد حمل على الشيوعيين حملات صادقة لم تحل هجمات بعض النواب عليه دون استمراره فيها بحزم وعزم عظيمين. وكان آخر ماصدر عنه فى هذا الميدان مقاومته لما كان الشيوعيون يريدون إقامته من مظاهرات عنيفة فى أول أغسطس الماضى بعد أن فشلت تدبيراتهم لعيد العمال عيد أول مايو. فقد أعد مسيو «تارديو» عدته ومنع الضباط ـ ضباط البوليس وضباط الجيش فى حامية باريس ـ من أن يمنحوا اجازاتهم العادية وضعاً لقواتهم كلها تحت تصرف الحكومة يوم أول اغسطس. وأذاع أنباء هذه الاستعدادات فى مختلف الدوائر السياسية والاجتماعية فى باريس وفى غيرها من المدن الفرنسية، فكان هذا الاستعداد وحده كافياً لعدم محاولة الشيوعيين القيام بأية حركة أو أية مظاهرة فى باريس، بينما قامت حركاتهم ومظاهراتهم فى موسكو وفى برلين وفى فينا وفى غيرها

ولعل أكثر جدية من هذا وذاك تدليلا على التوجه الجديد الذى يبدو فى التفكير وفى الخلق العاملين فى أوربا هذه الايام ذلك الكتيب الذى أخرجه مسيو «شارل بنوا» العضو بالمجمع العلمى الفرنسى واسماه «أمراض الديموقراطية أو فن الاستيلاء على أصوات الناخبين وعلى منصات الحكم» فقد ضمنه من الآراء الجريئة ـ وهو ذلك الحجة فى البحوث السياسية والاجتماعية ـ ماذهب به الى حد القول فى مقدمته: «انى انصح إذن بتغيير النظام. وانى أوضح فكرتى وأحددها فأقول انى أقصد بهذا تغييراً فى شكل الحكومة، وبعبارة أوضح وأدق أقول العودة من التشكل الديموقراطى الى التشكل الملكى»

التغير فى الموسيقى وفى الفن

واذا نحن انتقلنا من ميدان الحكم والسياسة والنظم الاجتماعية الى المظاهر الفنية فانا نجد الناس قد ملت فى باريس الاقبال على « المراقص » الحديثة وعلى الاستماع الى نوع الموسيقى الزنجي الذى يرقص الراقصون على نغماته ، وأصبحوا يتمنون لو كثرت بينهم بيئات الموسيقى الانشائية ولوعادت اليهم طرائق الرقص الانشائى . ولعل النجاح الذى قابله الفنى الروسى الشهير « دياجيليف » ـ وقد توفى منذ شهرين ـ يرجع الى أنه كان يسعى فى أن يبعث على الارض الاوربية ماقضى البلشفيون عليه من فن روسى انشائى بديع في الرقص وفى الموسيقى

ثم ارجع ببصرك الى التصوير والنحت وما يعرض من آياتهما فى المعارض العامة والخاصة ، فانك لا ترى الآن غير مظاهر النظريات الفنية الجدية التى ابتعدت ابتعاداً عن ذلك التيار الجنونى الذى كان قد طغى على المعارض بعيد الحرب طغيانا بما كان فيه من ميل الى « الكوبيسم » و « الفوتوريسم » و « الداردايسم » . بل انك تجد الآن رجعة بديعة الى أحكام الفن الخالدة تطبق على موضوعات حديثة يتميز بها العصر الحاضر بلا شك . وكذلك الحال فيما يختص بفن العمارة وفن الاثاث ، تجد فيهما طبعاً الحديث من الميول والخطوط يميزها عن فن العمارة وفن الأثاث فيما سبق من عصور ، لكنك تجد فيهما أيضا ميلا الى الفائدة العملية والى الجمال الشائق ، تجد العمارات الجديدة «بسيطة» فى مظهرها لكنك تجدها قائمة على فكرة توافر وسائل الراحة كلها فيها ، فالأصول الجديدة تستلزم أن تكون النوافذ واسعة حتى يدخل الى الغرف الضوء والهواء . والاثاث هوالآخر حديث فى مظهره لكنه قائم على فكرة الاستفادة من أجزائه كلها

التغير فى الخلق

وتلك العلاقات الشاذة بين النوعين قد أخذ ظل عدم الاكتراث لها يتقلص ، فأصبحت تستمع فى كل مكان الى انتقادات مرة توجه الى «عصابات» الكاتب الشهير «اندرى جيد» ومن اليه من جماعته الخلقية والأدبية ، كما أصبحت تستمع الى عبارات الغضب يصب جامها على رأس « فيكتور مرجريت » ومؤلفاته الاخيرة . بل انك أصبحت تجد مسيو « كياب » مدير البوليس الباريسى يجرؤ على أن يمنع تمثيل روايات يعرض فيها ذلك النوع من العلاقات الشاذة التى كانت تعرض على الجمهور فلا يرى فيها منكراً ، بل ان الجمهور نفسه قد أصبح فى باريس يطالب البوليس بتحريم تمثيل هذه الروايات . وقد حضرت ليلة مغادرتى باريس فى أواخر شهر اغسطس الماضى رواية اسمها « كارنافال » قابلت على أثر تمثيلها مؤلفها فاعترف انه اضطر أن يميل بمسرحيته الى التيار الخلقى حتى لا يغضب الجمهور وحتى لا يثير غضب مدير البوليس فيحرم تمثيل القصة

خدمة الفكر في عصر المادة

بقلم الاستاذ اميل زيدان

نزاع الفكر والمادة قديم لم يخمد يوماً . ومع أن الغلبة فى النهاية للفكر ، فدون تغلبه عقبات وأهوال وضروب من الالم والاضطهاد

أجل يفوز الفكر فى آخر الامر ، ولكنه لا يبلغ القمة الا على اشلاء خدامه

كل المراحل التى قطعتها البشرية انما كانت بفضل فئة ممن فى صدورهم لهب مقدس . ولكنهم ــ واأسفاه ــ كانوا فى الغالب يحترقون ليبددوا الظلمات ويضيئوا العالمين

☆ ☆ ☆

قال برليوز الموسيقى الكبير وهو على فراش الموت : « الآن ستذيع مؤلفاتى وتتداولها الايدى ! »

هذا فى الغالب نصيب رجال الذهن وخدام الفن . فانهم ما برحوا منذ القدم مغموطى الحق لا ينالون الجزاء العادل لما ينتجون . وكثيراً ما يقضى العبقرى حياته فى شقاء العوز ، حتى اذا قضى نال من التقدير ما لو نال بعضه فى حياته لرد عنه غائلة الدهر وأتاح له العيش فى رغد وهناء

وهذا الاجحاف قد زادت وطأته كما زاد قبحه فى كنف هذه الحضارة ــ هذه الحضارة التى سخرت المادة وأقامت على أساسها صرحها العظيم فاذا بهذا الصرح يخنق روحها ويكتم أنفاسها .. فبعد أن كانت المادة هى الخادم أصبحت هى المخدوم ...

إن حضارتنا الحالية مصابة « بتخمة » مادية . فقد طغت المادة على الفكر وأصبحت الكلمة لها فى البدء وفى النهاية . فقيم الاشياء وقيم الناس مرتبة بحسب سلم حسابى مادى لا شأن فيه للعناصر الروحية . فمجال النفس لا يكاد يقدم فيه درجة ولا سمو الفكر أو رقى الفن والادب

فكم حولنا من ثراء وقح هبط عفواً ، وكم من ذهن يتألم وهو عامر بضروب الحسن الروحى . كم من « بضاعة مادية » تافهة تروج وتجلب لاصحابها أطيب المتع ، فى حين لا يجد أصحاب « البضاعة الذهنية » منفذاً لافكارهم أو متنفساً يخفف الضغط عن صدورهم !

☆ ☆ ☆

لا يسع من ينشد العدل الا أن تثور نفسه أمام هذه المظالم ، ولكن هذه الثورة لا تتعدى فى اغلب سن معينة ، ففى عهد الشباب حين يستفزنا كل ما هو جميل ويملك علينا مشاعرنا نحس

الحيف الواقع على خدام الفكر والجمال وتتألم نفوسنا لدى المحن التي تصيبهم ، حتى اذا فعلت الأيام فينا فعلها تبلدت مشاعرنا وتيبست عواطفنا وألفنا ما حولنا من صنوف الظلم

أن غضبات الشباب وثوراته الجميلة لاتلبث حتى تتحول مع السنين الى رضى بالأمر الواقع واستسلام لاحكام الزمان — وكم للزمان من حيف وإرهاق !

☆ ☆ ☆

من هؤلاء المظلومين فئة أود أن أخصها بكلمة وهي فئة الادباء والشعراء . وهل من حاجة الى تبيان شأن هذه الفئة في حياة الأمة ؟ من الناس طائفة عميت قلوبها إلا عن مطالب الجسم ، يسألونك : مافائدة الأدب وما فائدة الشعر ؟ وما سؤالهم هذا إلا كمن يسأل : لماذا خلقت الأزهار ولماذا تصدح الاطيار في الحقول ؟

خلق الانسان وله رجلان يمشي بهما على الارض ولكن له أيضاً عينين يجوب بهما أطراف السماء ، وله كذلك وجدان يحلق به في الفضاء غير المتناهي . فالنزوع الروحاني أصيل في طبيعته وليس بالخبز وحده يحيي الانسان

ثم اسمع قول جوته : ان انحطاط الادب في أمة نذير بانحطاط تلك الامة

واسمع قول الآخر : الامة التي ليس لها أدب قومي حقيق بان يعدو حدود بلادها — هذه الامة تظل محتقرة لاشأن لها في نظر الامم الاخرى

فالادب اذن لاتقتصر فائدته على ماينشره في النفوس من لذة روحية ومتعة ذهنية ، بل هو عامل خطير في تعزيز الحياة القومية ورفع شأن الشعوب

☆ ☆ ☆

ولو أن النفس تبدو للعين كما يبدو الجسم لتغير نظرنا الى الناس ايما تغير .. فكم من جميل يصبح قبيحاً ، وكم من قبيح يصبح جميلا !

ولكن سواد الناس قلما يحملون بما يجاوز حواسهم ، فهم يحكمون على ما يرون ويسمعون ويلمسون . . . على أن سمة الرجل « المثقف » انه لا يقنع بما يبدو له أول وهلة بل ينفذ بفكره الى الباطن باحثاً عن الجمال الخفي — جمال الذهن والروح

☆ ☆ ☆

حبذا العلم بدون هموم المادة ، وحبذا الفن والادب بدون رهق الحاجة . . . ولكن الاقدار قد حكمت بغير هذا ، فالعالم والفنان والاديب وسائر خدام الفكر والذهن في حين يقوم على كواهلهم رقي البشر وتقدم الحضارة ، لا ينالون عشر معشار ما يستحقون

فهل من وسيلة الى تلطيف هذا الحكم القاسي ؟

أمامنا ظالم ومظلوم . فلننظر قليلا في أمرهم :

أما الظالم فهو المجتمع أو بالحرى نظامه الذى قصر عن إعطاء كل ذى حق حقه . فكيف نهديه سبيل الصواب والانصاف؟

ليس ثمة غير وسيلة واحدة : تهذيب الرأى العام ورفع مستواه بحيث تعدل فى نظره قيم الاشياء وقيم الناس فيضع فى الرأس من هو حقيق بالرأس وفى الذنب من كان بالذنب احرى

واذا كانت الامة كالجسم فرجال الذهن منها بمنزلة الرأس ، هم الدماغ الذى ينبغى أن يسيطر على الاعضاء ويقوم لديها مقام المرشد الهادى

هكذا صور أفلاطون جمهوريته الفاضلة فقد وكل أمرها للحكماء والعلماء

ولكن الوصول الى هذه الغاية يقتضى أجيالا من التهذيب — يجب أن نروض نفوسنا على اكبار العناصر المعنوية واحلالها المحل الارفع من حياتنا . يجب أن تصبح الثقافة فى نظرنا بمنزلة الحاجة التى لاغنى عنها — وما هى اليوم الا فى عداد الامور الكمالية

وأما المظلوم فهو العالم أو الاديب أو الشاعر أو غيرهم من صرعى الحقيقة والجمال — فهل فى استطاعة الواحد منهم أن يخفف شيئاً من وطأة الظلم الواقع عليه ؟

أجيب بلا تردد : نعم فى استطاعته أن يدبر أمره إلى حد كبير . لقد ألفنا أن نسمع عن رجال الفن والادب أنهم لايحفلون بالماديات — كأن العوز زينة الفنان والاديب ، وعرفناهم يأنفون من النظام والترتيب ، فنفوسهم أبداً متمردة تأبى الخضوع والانقياد

ولكن هل يضرهم لو أنهم حسبوا لهذه الدنيا حسابا ولو ضئيلا ؟ ليقدس الفنان فنه وليقدس الاديب أدبه . . . ولكن هل يستدعى ذلك أن ينسى حقائق الحياة الاولية ؟ كلا . . . يمكنه ان يحفظ فنه أو أدبه فى منجاة من كل درن وفساد ، وفى الوقت نفسه يلتفت الى مقتضيات العيش فيمنحها قسطاً من عنايته ، بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول : انه اذا عرف كيف ينظم حياته من الوجهة المادية سهل عليه أن يحتفظ بفنه سليما وبأدبه معززاً نقياً

اذا كان للاديب أو الفنان ان يحتقر الماديات فلا يستعبدن نفسه لها ، فما الحاجة الا نوع من العبودية ، فليضمن لنفسه الكفاية اولا — بأدبه او بوسيلة اخرى — حتى اذا ضمن القدر الادنى امكنه ان ينصرف لما يصبو اليه فؤاده من مناجاة آلهة الفنون الرفيعة

والخلاصة ان المجتمع مقصر فى منح رجال الدهن مكانهم الجدير بهم ولكن رجال الذهن — ايضا — كثيراً مايقصرون فى مسايرة المجتمع وادراك مقتضيات اعيش

يجب على المجتمع ان يفهمهم كما يجب عليهم ان يفهموه

في عيد القضاء الاهلى

من قصيدة للاستاذ عبد الله عفيفى

يا منار العدل فى ساح القضاء … لا يزل مغناك مرفوع البناء
أنت نور الله فى آفاقه … للبرايا ، أنت وحى الانبياء
أنت ظل الله فى سلطانه … أنت رمز الود فيه والاخاء
لك فى «مصر» بناء راسخ … شامخ الاعراف ، خفاق اللواء
كتب الخلد على أبوابه … فى سناء الحق سطرا من ضياء
أيها المظلوم فى هذا الورى … قف ! فهذا الباب من باب السماء
إرفع الرأس ففى هذا الحمى … يشمخ الضعفى ، ويعنو الاقوياء
منطق المظلوم فيه من شبا … ويد الجبار فيه من هباء
إن هذا الحق سيف مصلت … مرهف الحدين مرهوب المضاء
لا يبالى أى رأس مسه … قد تساوى الخلق من ذئب وشاء
هم سواء مثل ما صورهم … بارىء الاحياء من طين وماء
أيها الشادى ببرلين استمع … إن فى مصر قضاة وقضاء
بلد هبت عليه نفحة … من جلال الحق تحيى من تشاء
بسط العدل عليه ظله … فتوافى كل حر واستفاء
وسرى الشرق اليه واحتمى … وسعى العلم ، وحج العلماء
ونمى الفكر بها فى روضة … فى ثراها كل أسباب النماء
حين كان الشرق بحراً من دم … ومزاجا من حتوف وشقاء
شرد الاحرار فاستنوا الى … وطن الحر ودار النزلاء
هى مصر ، لم تزل مهد الهدى … وحمى الحق ، ومشكاة الرجاء
حى ذكرى العدل فيها انها … مطلع المجد وعنوان السناء
بنت خمسين ، سمت من عنصر … أزلى الاصل ، درى الصفاء
أزهرت فى روض «عمرو» وزكت … بعد «عمرو» فى رياض الخلد
وتولاها «فؤاد» فاستوت … فى سواء تملأ الارض الفضاء
منك فى عدله أو فضله … آية للحكم أو نحكم
«عمر الفاروق» ان شبهته … و أو «الفاروق» فى العدل سواء

ضمير قلق

بقلم الدكتور منصور فهمى

اليوم لا علماً أكتب ولا منطقاً إنما هو حديث فتى مهموم فى لحظة من تلك اللحظات التى تبعث فيها النفس أعز مكنونها من الشعر والاحساس . حديث فيه تاريخ حال من أحوال نفس بشرية ، يظفر منه القارىء بجزء صغير من أجزاء تلك الحقيقة الكلية العظمى التى لو استقصيتها لوجدتها مجموعة لتاريخ الكون فى جزئياته ، وان أكرم قسم فى ذلك التاريخ ما تضمن أحوال النفوس ومنازعها

قال الفتى :ـ

انك تحسبنى يا سيدى من أهل السرور وأنصار الصفاء ، يغريك بذلك ثغرى الضحوك وارتفاع صوتى فى محافل الانس والطرب والتماس المجون فى كل إشارة وكل عبارة . على انك قد نسيت أيها العزيز تلك الاوقات التى ألبث فيها ذاهلا عن الناس وأحاديثهم فتنسدل على وجهى سحابة من الحزن ، لا تترك لناظر فيه ان يتبين علامة من علائم النشاط والامل ، ولا تبقى من إشراقه ونضارة الشباب فيه إلا بسمة خاصة أوهم الناس بها انى معهم فيما يقولون وأفكر فيما يرتأون

إنه ليخجلنى القاء ياصديقى فى جمع من الجموع وعلى مسوح السواد بينما تكون الناس راغبة فى المسرات واقفة عند أبوابها . ولقد أعمل جهدى على صد غارات الحزن المتتابعة على نفسى كما تتلاحق الامواج المرهوبة على جرف حطيم ، وحينئذ أعمد إلى البعد عن الناس حتى لاينشذ لباسى الاسود من الأسى عن سرابيلهم النضرة من السرور

كنت أومن بطهارة الحياة إيمانا وكنت أحسن الظن بالناس أيما إحسان لانى لم أخرج إلى ساحة العيش إلا من عهد كما علمت قريب . وكنت عند عهدى بالشباب تلميذاً مجــــداً كثيراً ما لابست الكتب وانقطعت للدرس ، وقليلا مالابست الناس ونظرت فى شؤون الحياة . ولقد جعل القضاء لطائفة من الكتاب الخياليين على سلطاناً . فكنت أصبو صغيراً للصور الجميلة والخلال الكريمة والاشباح الشريفة التى كانت تخرجها أذهانهم قبل ان أتصل بحقائق الحياة المرة المؤلمة

خرجت من عالم الكتب إلى عالم الناس . وكنت أتوهم ان الناس تلقونى لأعمل معهم وأكتب

تحت أعينهم صحيفة من سفر الحياة الواسع ، فأملأها برسوم الحق والواجب وآثار العمل والأمل وأصور فيها صورة الأب الصالح والزوج الوفى والوطنى الصادق والانسان العادل فى نفسه وفى الناس . وكنت أظن ان كلمات الحرية والاخلاص والفضيلة والرحمة والكمال وأمثالها مما وسعه المعجم تسعها معاملات الناس بعضهم لبعض . على اننى صدمت صدمة بالغة حين رأيت ان الناس يسيرون على خلاف ما كنت أظن وان الحياة تكاد تكون جارية لمقادير غير ما كنت أقدر وان السجايا التى كنت أظنها من صفات البشر انما هى لمخلوقات خيالية تبصرنا ولا نبصرها وترانا ولا نراها

هالنى وأفزعنى ان أرى فى الحياة مسرحاً واسعاً للنفاق والرياء والخداع والاباطيل ، وان هذه الأشباح الشنيعة قد صرعت تلك المخلوقات الشريفة التى نسميها الفضائل ، واستبدت وحدها بميدان الحياة كله

تساءلت : أكانت الكتب تخدعنى وتغير صور الاشياء فتجعل ضعفاء الحقيقة هم الاقوياء وأقوياءها هم الضعفاء ؟؟

أم هو الوجود لم يبلغ بعد فى تاريخ نشوئه طورا تنال فيه الفضائل منازلها من الكرامة والاجلال وتسير فى المعاملات كأنها الكواكب تجرى فى داراتها على سبل ممهدة فتصبح حينذاك القوة والغلبة ميزة للسجايا وحدها ؟!

ثم تساءلت : هل فترة الحياة من شأنها أن يظل فيها أشباح خيالية تتخذ وكرها فى رءوس البشر وتشبه الاملاك فى نورانية أجسامها وتغرى النفوس بالنزعات العالية ؟ أم توجد كرام السجايا حقاً عند أفراد اغنياء بأنفسهم عن الناس معتزين معممين بعداعتها يحسبهم الجهال مهزومين وهم يعيشون كآلهة الاساطير يسخرون من نعيم الناس ولهم من أنفسهم اكبر نعيم ؟

وقلت فى نفسى بعد ذلك كله هل القوى فى الحياة الاجتماعية : هو من يخضع لنواميسها من الرياء والظلم فيخدع ويظلم ، أم هو الذى يحتقرها فى قوانينها ليعيش تحت راية مبادىء أخرى تنسجها له تصوراته وخيالاته السامية ؟؟

إن منشأ همى يا سيدى هو ذلك التنازع القائم بين ما تحن اليه نفسى ونزعاتها وبين المبادىء التى يقوم عليها المحيط الذى يضمنى

أأعيش منفردا واحدا فى عالم الخيال أم أدخل إلى ساحة البشر وأخلع ثوبى الجميل الكريم ؟!

في الحركة الوطنية (١)

للاستاذ حسين شفيق المصرى

تنكب طريقك لا تسلك — فان الطريق الى مهلك
نعم أنت أعزل اعشى وحيد — تثير الجلامد لو تشتكى
وبالجزع قامت جموع الكماة — وكل على سيفه متكى
لديهم قواذف ترمى الرصاص — صواعق ما تنطلق تفتك
بأيد خلقن لسفك الدماء — وللشر لولاه لم تسفك
طغام طغاة بغاة يبيحو — ن قتل المصلين في المنسك
وعذراء آمنة تهادى — الى اين ويحك لاتهتكى
ومن قبلها هتكوا المحصنات — وشدوا عليهن في معرك
ويا طول ما تذرف العين اد — معها للذى جاء في مألك
كتاب لانبائه في الفؤاد — كوقع الشهاب أو النيزك
لما كان فى بدرشين فمزغون — فالعطف فالصف فالشوبك
فوادي القرى من رشيد فدميا — ط فالشاطئين الى الكرنك
بلاد دهاها العدو على — غرة بالموحد والمشرك
بجند كسخرة المهرجان — من الهند من برهم يضحك
وفتيان لندن من كل امرد — غر وذى الشيبة الانوك

(١) من قصيدة نظمها الشاعر سنة ١٩١٩ عقب حوادث البدرشين وهجوم العساكر على بيت الامة وهروب السيدات

جلنـــار [1]

بقلم الدكتور بشر فارس

حكى ان جلنار كانت مالكة على مدينة من مدن فارس...

ولما جن الليل انتبذت جلنار ناحية من خدرها . وكانت الجنوب قد خف هبوبها وحملت على جناحيها أريج الازاهير فنشرته فى الحجرة ، وأشعة القمر الفضية تنعكس فى حوض مزين بأجمل الزخارف . وكأن الفوارة وهى تدفع ماءه معولة لا ترتضى سلوى ولا عزاء . وكأنى بها اذا سكتت محتضر انقضت أنفاسه . وكان النسيم يداعبها ويعبث بالماء الذى تدفعه لعلها تصفر طرباً ، غير انها أضحت وقد تبين فى نغمتها الشجو والأسى . فقيما الحوض كان يرن من قبل رنين الثكلى إذ صار الآن غديراً ساكناً تألف ماؤه من أدمع منسجمات بين صفحتيها نشيج خافت

أثر منظر الحوض وصوت فوارته فى جلنـار تأثيراً بلغ بها من الاضطراب مالا تطيق . فجعلت تفكر فى حالها كيف تغير منذ الساعة التى نظرت فيها الى الامير ، وهى لم تكن لتعلم ان شعوراً جديداً آخذاً من قلبها مأخذاً بليغاً قد لطف حتى دق عن فهمها . وكانت ترنو من حين الى آخر الى الباب ، ثم تدير عينيها الى النافذة وتتبع سكنات القمر فى بساط السماء ، ثم تعود ببصرها الى الحوض فيخطر لها ان تقذف بنفسها فيه رجاء ان تسكن من لهيب جسمها ببرودة الماء

وان جلنار لكذلك والسكون منبسط فى جنبات القصر لا يمزقه الا صيحات الحراس ونبرات البلبل . إذ صر الباب و مثل بهذلك الامير العربى محجوب الوجه اكحل العينين . فنظرت الملكة اليه لحظة ، لم تقو فى أثنائها ان تحدثه كأنها ذعرت من أمر فوجئت به . وأما الامير فظل جامداً فى مكانه وجعل يصرف بصره فى زوايا الحجرة كأنما هو بائع أثاث يقيم لما تضمه الحجرة الوزن الذى يراه له . ثم ان جلنار أشارت اليه : أن اجلس قبلى . فامتثل الرجل صامتاً . فقالت له جلنار وفى صوتها شىء من الرعدة : ما سكوتك ياضيفنا ؟ قال : انما سكت اذ لايجدر بى ان أكلم الملكة ـ جعلنى الله فداها ـ قبل ان تفسح لى فى الكلام . فبسمت جلنار وأسندت رأسها الى يدها ، ثم قالت: صدقت يا أميرفزدنا . ألست القائل انك أسبق العرب فى فن الحديث ؟ قال: ذلك قلت . قالت : ايه لقد ضافنى الهم ليلتنا هذه فعسى أن تحسن الينا فنحسن اليك . قال : على ذمة لا ذقت طعاماً ولاشراباً حتى أقضى عند الملكة ـ أكرمها الله ـ ما أنا قاض ، وأما جزائى فحسبى

(١) خلاصة قصة نشرها الكاتب بالمقتطف

انى اليها جالس واياها أحدث . ثم جلس جلسته وشرع يروى قصة جميل وبثينة تلك القصة التى ظلت حديث الناس زماناً طويلا . فبسط كيف نشأ جميل فى قومه وكيف كان شاعراً مرقا مقلا . ثم انصرف الى حكايته مع بثينة وفراره من وجه الوالى ، ثم نزوله على بنى عـذرة فى الشام والحيلة التى احتالها عليـه ضيفه اذ زين له سبع كعاب متبرجات على ان تقع احداهن من نفسه . ثم خبر كيف كان المحبان يلتقيان فى الخلاء ويتعاتبان ويتراضيان ويشكو كل واحـــد ما يقاسي فيؤاسيه الآخر . ثم ذكر كيف نال الحب من قلوبهما منـالا عنيفاً لا سبيل عنه . وكيف تزوجت بثينة رجـلا غير جميل ولم تنفك ترعى لجميل الذمة والميثاق وتحفظ له فى قلبها مكانته السابقة ، وهى تحبه حباً جماً لا ريبة فيه ولا شبهة . وكيف وشى بها ظلما عند أبيها وقد كلف بها جميل وهام من أجلها ثم نهى عن لقائها . فكان يصعد ليلا إلى ربوة ليستروح النسيم المقبل من نحوها وهو ينشد الاشعار ويبكى سوء طالعه . وكيف كان يتنكر ليستطيع الوصول اليها . فاحتبسته بثينة فى خدرها ذات مرة ثلاث ليال وهو مستخف تحت ثياب متسول مسكين . وكيف كان يغنى وهو فى الركب فتسمعه بثينة من دون أترابها وتقبل اليه . ثم روى كيف ضج أهل بثينة وخشوا الفضيحة واستباحوا عند الامير دم جميل فقصدوا إلى أبيه ونشدوه الله ان يدفع ابنه عن فتاتهم . فدعاه أبوه وقال له أو ما تـكف عن حب حرة تضمر لبعلها ما لا تضمره لك ؟ فبكى جميل وأبكى من حوله ثم انطلق إلى مصر حيث مات كمداً

تلك القصة التى أبدع الامير فى روايتها ما شاء أن يبدع . وكانت جلنار تقاطعه فى مستهلها فتسأله عن هذا وتستزيده من ذاك . ثم انها ما عتمت ان لزمت السكوت وجمعت للحـديث بالها مخافة أن يفلت منها حرف . وكانت تزداد اضطراباً كلما ازداد الامير بيانا . وكانت تتبع إشاراته وكلماته حتى أمست أسير حديثه ولفتاته

وكانت حالهـا فى ذلك حال كل فتاة قضت صباها لا تلتمس السبيل إلى الحب ولا تقطع بشىء من أمره ،بل لا تعرف منه كثيراً ولا قليلا . فنشأت ساهمة بعيدة من مضطرب النزعات والاحساسات التى لابد لها أن تؤاتى النفس فى حين قد أتيح لها . وكأن قصة جميـــل وبثينة أصابت من نفس جلنار موضعاً دقيقا اندفعت منه عاطفة الحب بقوة . وذلك هو الحب الثائر الذى احتجب دهراً وتجمد فى القلب وتمكن بين جنبيه مثل الغمام المتلبد فى زاوية من السماء ربما لبث يوماً أو يومين على حالته حتى تمر عليه ريح باردة فترده مطراً

وكانت جلنار تصيح فى وجه الامير إذا هو أكبر شغف بثينة بجميل : أفى استطاعتنا معشر النسوة أن نحب مثل هـذا الحب ؟ كأنما الامر من وراء علمها فعظم عليها وقوعه . وان رثى الامير لغم جميـل واشتكى حظه استدمعت وقالت : بأبى أنت وأمى لو أحبنى جميل ما حال بينى وبينه إلا خروج نفسى .

مقتطفات

للدكتور احمد زكي ابو شادى

النجوم

بُعثرَت فى السماء حتى تَراءَى   خالقُ الكونِ مسرفاً في نظامهْ
حاكت الضّائعات من مهج الخلـ   ـق ، فكلٌّ بشعلةٍ من غرامِهْ
وتراءت حيناً لنا قُبلاتٍ   من فم الدهر في عصور ابتسامهْ
ثم حيناً تلوحُ مثلَ ثقوبٍ   خلفها الغيبُ رابضٌ فى غمامِهْ
ينفذ الشاعر العظيم اليها   حين يَخشى القضاءُ بأس اقتحامه
فإذا عادَ بعد إسرائهِ الكا   شِف أعيا الانام مغزى كلامهْ

نشوة اليأس

دعوني أناجي اليأس في نشوة اليأس   ولا توهموني أن حولى ما يُنْسى
ْعيش بأرضٍ للشياطين والاذَى   تُصبحُ في رِجْسٍ وتمسي على رِجْسِ
حرامٌ علينا مأملٌ في رُبوعها   وفيها تجلى مَصرَعُ الفكر والحِسِّ
علامَ التمادى في المنى حينما ترى   ضحايا المنى أُضحوكةَ الحظِّ والبؤسِ ؟ !
أنعلق في الآمال بالبلدِ الذى   يصولُ به من صالَ بالشر والدسِّ ؟
خفاقٌ الى الإفساد فى كل مطلبٍ   ثِقالٌ على الاحسانِ ، حَرْبٌ على النفس
يباهون بالايذاء حتى كأنّما   يبزون في الهيجاء عنترة العبسى !
عجبت لشمس أشرقت فى سمائهمْ   وقد خلقوا حرباً على النور والشمس !

فلسفة الحب عند العرب

كيف اهتم حكماؤهم بالكتابة فيه وتحليل مذاهبه

بقلم الاستاذ طاهر الطناحى

قبل أن اطرق هذا البحث كنت قد قرأت شيئاً غير يسير من أخبار المحبين ومصارع العاشقين ومحن الظرفاء الوالهين ، الذين امتحنوا بالحب فى الجاهلية وصدر الاسلام وفى عهد ازدهار الحضارة العربية فى بغداد والاندلس وفى غيره من العهود الاخرى التى اشتهر فيها أمر الحب والمحبين ، وكانت لهم سير وأخبار يرويها الرواة ويسطرها الادباء كذخيرة أدبية يسجلونها للاجيال القادمة ، ويضنون عليها من الضياع والنسيان

وما كان ليدور بذهنى أن فلاسفة العرب — على سعة باعهم — سيهتمون بالحب والبحث فيه بحثاً فلسفياً ، ويأتون فى ذلك بما لم يأت به فلاسفة اليونان الذين تناولوه بالبحث قبلهم ، خصوصا وقد رأيت ان كثيراً من رواة الآداب العربية لم يهتموا إلا بجمع سير المحبين ، جمعاً ليس فيه شىء من الفلسفة او البحث العلمى الذى يشترك فيه العقل والتفكير . وملأوا من ذلك كتباً ضخمة ، وتفرق جانب منه فى مؤلفات الادباء ودواوين الشعراء . حتى اصبح للحب من الادب العربى الحظ الاوفر . واصبحنا نرى بين أيدينا من آداب العاشقين ومن نسج على منوالهم بالتقليد ما يكاد يربو على النصف

وما كنت لأتجنى على الادب العربي لوفرة ما فيه من « أدب الحب » وأنا أعلم ان هذا النوع موجود بكثرة أيضا فى سائر اللغات ، وأن الحب قديم فى البشر ، وأنه موجود فى فطرة الانسان منذ وجد الانسان . بل هو موجود فى فطرة الحيوان . وربما يمكننا أن نقول انه موجود فى فطرة النباتات وسائر الموجودات على ما ذهب اليه « ابن سينا » — وليس هنا مقامه — فهو فى الحقيقة السبب الاقوى فى وجود الكائنات على اختلافها من حيوان ونبات وجماد

فليس عجيباً إذن ان يستوعب « ادب الحب » جانبا وافراً من الادب العربى . وأن يحرص الرواة على جمعه وتسجيله ، ولا سيما أنه حوى من جمال الفن مالا يوجد فى كثير من الآثار الادبية الاخرى . وانما العجيب أن يخلو معظم هذه الكتب الضخمة من البحث فى ماهية الحب وتعليل اسبابه ، وهل هو اضطرارى او اختيارى ؟ وهل هو داء حقا كما يزعم المحبون ؟ وكيف يحب الانسان . وكيف تؤثر الصورة الجميلة فى نفسه ، فتقع من قلبه موقعا لا يستطيع الخلاص منه ؟ إلى

غير ذلك من البحوث الفلسفية والنفسية التي أعتقد أنها لو عنيت بها معاهد التعليم لكان لتدريس هذا الجانب من الادب فائدة لا يجنيها الطلاب والمتأدبون من مطالعة سير العاشقين واستظهار اشعارهم

ولقد كدت أظلم ادباء العرب وفلاسفتهم كغيرى ممن يظلمونهم ويحكمون عليهم حكما قطيراً بلا روية ولا تفكير . وكنت قد اغرمت بالاطلاع على تاريخ الفيلسوف الاندلسى « أبي محمد على بن حزم » المتوفى فى القرن الخامس الهجرى ورغبت كل الرغبة فى تصفح مؤلفاته لعلمى بما بلغه هـذا الفيلسوف من نضج العقل وسداد الرأى وصحة التفكير ، فضلا عن سعة إطلاعه وادبه الوافر الذى يتسم به فى مؤلفاته . وقد علمت فيما قرأت له انه قد تورط فى الحب واصيب بدائه وانشأ فى ذلك شعراً كثيراً أودعه كتابا سماه « طوق الحمامة » لم يذكره إلا صاحب « نفح الطيب » إذ قال :

« قال ابن حزم فى « طوق الحمامة » انه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب «الاستيعاب» بسكة الحطابين بمدينة اشبيلية فلقيهما شاب حسن الوجه. فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة . فقال له أبو عمر : لم نر إلا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سباني حسنه ... يطيل ملامي فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسم انت عليل
فقلت له اسرفت فى اللوم فاتئد ... فعنـــدى رد لو أشاء طويل
ألم تر انى ظاهرى وانني ... على ما ارى حتى يقوم دليل »

وقد كاد هذا الكتاب يضيع لولا أن الدكتور « د. ك . بيتروف» الاستاذ بالجامعة الامبراطورية فى بطرسبرغ قام بنشره سنة ١٩١٤ ووضع له مقدمة طويلة باللغة الفرنسية . وأتيح لى ان أطلع على نسخة من هذا الكتاب الذى طبعه الدكتور «بيتروف» فى مطبعة بريل بمدينة ليدن فرأيت شيئاً جديداً فى التأليف عن الحب وأخبار المحبين ، وشاهدت فيه كثيراً مما كنت أصبو اليه من البحث فى فلسفة الحب ، وأبصرت فيه عدة ميزات لم أجدها فى غيره ، أهمها أنه اعتمد فيما ذكره على ماشاهده وحدثه به الثقات من أهل زمانه . ولقد ذكر فى مقدمته أنه الف هذا الكتاب اجابة لمن طلب منه أن يضع رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله ، على سبيل الحقيقة بلا مغالاة ولا ايراد للخرافات . وقد استشهد ابن حزم فى جميع أبواب الكتاب بشعره هو دون غيره . فلم يورد لأحد من المحبين شعراً فى هذا الكتاب وان كان قد أورد أخبارهم . وهذا يرجع عندنا أن ابن حزم قد وضع هذا الكتاب ليكون ديواناً لاشعاره الغرامية . ولكنه أراد أن يضيف الى ذلك فائدة لا توجد فى دواوين المحبين فبحث فيه عن ماهية الحب وأسبابه وتكلم عن الحب فى النوم وعن الحب بنظرة واحدة وعن المراسلة والسفراء والوصل والهجر والغيرة وأنواع العذاب والرقباء والواشين ، إلى غير ذلك مما انقسم فيه البحث إلى ثلاثين بابا

هل كتب فى فلسفة الحب غير ابن حزم من علماء العرب ؟

يقول ابن حزم فى مقدمته مخاطباً من طلب منه وضع رسالة فى هذا الموضوع أو من انتحله ليسند اليه الخطاب ويدعى أنه طلب منه وضع الرسالة : « ودعنى من أخبار الاعراب المتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا . وقد كثرت الاخبار عنهم . وما مذهبي أن انضى مطية سواى ولا أتحلى بحلى مستعار »

ويؤخذ من ذلك ان ابن حزم قد اختط فى تأليف هذا الكتاب خطة ليست لغيره . ولم يسبق لأحد من فلاسفة العرب وأدبائهم أن يختطها قبله ، لانه لا يريد ــ كما يقول ــ أن ينضى مطية سواه ، ولا أن يتحلى بحلى لا يملكه . وجدير بابن حزم وبمكانته من العلم والادب والفلسفة أن يسلك سبيلا لم يسلكه أحد قبله ، وأن يكون غيره من بعده عالة عليه ، لا أن يكون هو عالة على غيره

وقد يكون ابن حزم صادقا إذا أراد ان فلاسفة العرب لم يسبقوه الى تلك الطريقة التى انتهجها فى الكتابة عن الحب . أما إذا أراد ان احداً منهم لم يسبقه الى البحث فى فلسفة الحب أو الكتابة فى ماهيته وتحديد كنهه ، فليس ذلك من الحقيقة فى شىء . فالجاحظ فى القرن الثالث الهجرى تكلم عن الحب وعرفه تعريفا يكاد يقرب من الفلسفة وان غلبت عليه الصبغة اللغوية . والرئيس أبو على ابن سينا الف رسالة فلسفية فى « العشق » وقد كان معاصراً لابن حزم ومات قبله بنحو ثمان وعشرين سنة . وكتب غيرهما من علماء اللغة فى معنى الحب والعشق والهيام وما اليها من الالفاظ التى تتضمن معنى الحب

على اننا حباً فى الانصاف يجب ان نقرر أن كل ماقيل فى معنى الحب قبل ابن حزم عدا رسالة « العشق » لابن سينا ، كان يتناول الناحية الادبية او الناحية اللغوية المحضة او العرض دون الجوهر والصفة دون الماهيــة . ومن ذلك ما روى عن المأمون انه سأل يحيى بن اكثم عن العشق ما هو فقال : « هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتتأثر بهــا نفسه » ، وكان ثمامة بن اشرس حاضراً فقال : « اسكت يا يحيى انما عليك ان تجيب فى مسألة طلاق او محرم صاد ظبيا او قتل نملة . فاما هذه فسائلنا نحن » فقال له المأمون : « قل يا ثمامة » فقال : « العشق جليس ممتع واليف مؤنس . وصاحب ملك . مسالكه لطيفة . ومذاهبه غامضة . واحكامه جائرة . ملك الابدان وارواحها ، والقلوب وخواطرها . والعيون ونواظرها ، وأعطى عنان طاعتها وقياد تصرفها . توارى عن الابصار مدخله . وعمى فى القلوب مسلكه » فقال المأمون : « احسنت والله يا ثمامة » وامر له بالف دينار

فانت ترى ان ثمامة ــ على الرغم من استحسان المأمون لما قاله ــ لم يأت بشىء من معنى الحب وتحديد ماهيته . ولو انصف المأمون لاعطى الف الدينار ليحيى بن اكثم لانه فى الحقيقة حام حول معنى الحب دون ثمامة الذى لم يتعرض لشىء غير بعض أوصافه وأعراضه

أما ماسوى ذلك مما كتبه ابن حزم وابن سينا ومن نحا نحوهم من علماء العرب بعدهم ، فقد تناول

اصحابه طريقة اليونان فى البحث عن ماهية الحب ونواحيه الاخرى . ولكنهم توسعوا فيه توسعا كبيراً ووصلوا بفصوله وأبوابه الى الثلاثين أو ما يقرب من الثلاثين ، وساعدهم فى ذلك كثرة ما خلفه العرب من اخبار المحبين والآثار الادبية التى تتعلق بالحب

واشهر من الف فى هذا الموضوع بعد ابن حزم وابن سينا : ابن قيم الجوزية صاحب كتاب « روضة المحبين » وابو محمد بن السراج صاحب « مصارع العشاق » والتميمى مؤلف « امتزاج الارواح » والقاضى ابن سليمان التوقانى مؤلف كتاب « تحفة الظرفاء » وشهاب الدين ابن ابى حجلة مؤلف « ديوان الصبابة » . وهؤلاء عدا من ألفوا فى الحب الصوفى وفلسفته كابن العربى وابن الفارض وغيرهما

كلمة عن « رسالة العشق » و « روضة المحبين »

اسلفنا الكلام بالاجمال عن كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم . وهو أهم كتاب وضع بالعربية فى فلسفة الحب . ولا بد لنا ان نقول كلمة عن « رسالة العشق » لابن سينا وكتاب « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية المتوفى بعد ابن سينا وابن حزم بنحو ثلاثة قرون . فهما على التحقيق احسن كتب وضعت فى هذا الموضوع بعد كتاب « طوق الحمامة »

و « رسالة العشق » رسالة صغيرة الحجم لا تتجاوز عشر ورقات تكلم فيها ابن سينا عن العشق بالمعنى العام وهو الجاذبية والانجذاب . وذكر انه يسرى فى جميع الموجودات حتى الجواهر البسيطة غير الحية . وبرهن على انه موجود فى الفلكيات والعنصريات والمواليد الثلاث . وهي (المعدنيات والنباتيات والحيوانيات) . وتكلم عن عشق الظرفاء والفتيان للاوجه الحسان . ثم تكلم عن الحب الالهى فى بحوث فلسفية عميقة

أما كتاب « روضة المحبين » فهو يقرب من كتاب « طوق الحمامة » وقد نهج نهجه فى بعض الابواب واقتبس منه وذكره فى غير موضع واحد . الا انه اوسع مادة . وقد انتحى الناحية الدينية فى كثير من المواضع . واستشهد بعدة آيات واحاديث . وانفرد ببعض البحوث الفلسفية كبحثه عن الحب (هل هو اضطرارى او اختيارى ؟) وبحثه عن لذة الحب وانها تابعة له فى الكمال والنقصان كما انفرد بالبحث اللغوى فى اسماء المحبة (وهي خمسون اسما) ونسبة بعض هذه الاسماء الى بعض . « وان العالم العلوى والسفلى انما وجدا بالمحبة » . وفى هذا البحث يقرب من ابن سينا . بل هو ينقل كلام ابن سينا فى رسالته مع شيء من الشرح والايضاح وايراد بعض الآيات والاحاديث

ماهية الحب

اختلف فلاسفة العرب وعلماؤهم فى تعريف الحب وبيان ماهيته بالمعنى الروحى لا الحيوانى . وقبلهم اختلف علماء اليونان واضطربوا فى تحديده . وقد عمص على بعضهم حتى عرفوه بأنه مرض وسواسى يشبه الماليخوليا ، يجلبه المرء الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور

والتماثيل. وقال بعض الفلاسفة: «العشق طمع يتولد فى القلب ويتحرك وينمو ثم يتربى ويجتمع اليه مواد من الحرص، وكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج والتمادى فى الطمع والحرص على الطلب، حتى يؤديه الى الغم والقلق، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته الى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها اليها. ومن غلبته السوداء يحصل له فساد الفكر، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون وتمنى مالا يتم، حتى يؤدى الى الجنون. وحينئذ ربما قتل العاشق نفسه أو ربما مات غما، وربما نظر الى معشوقه فمات فرحاً أو شهق شهقة فتختنق روحه أو تنفس الصعداء ففاضت نفسه. وتراه اذا ذكر له من يهواه هرب دمه واستحال لونه»

وعرفه ارسطو وأتباعه بانه اتفاق أخلاق وتشاكل صفات وشوق كل نفس الى مشاكلها ومجانسها فى الخلقة القديمة قبل هبوطها الى الاجساد

وذهب ابن حزم الى أنه استحسان روحانى وامتزاج نفسانى بين اجزاء النفوس فى أصل عنصرها الرفيع. وليست علته حسن الصورة الجسدية، وإلا لوجب ألا يحب إلا جميل الصورة، مع اننا نجد كثيرين يؤثرون قبيح الصورة ولا يجدون محيداً لقلوبهم عن حبه، كما أن التجانس فى أصل الطباع وائتلاف الارواح هما داعية الحب. ثم يقول ابن حزم ماخلاصته: فان قال قائل لو كان هـذا كذلك (أى امتزاج نفسانى وائتلاف روحانى) لكانت المحبة بين المحب والمحبوب مستوية إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال! فالجواب عن ذلك أن نقول هذه لعمرى معارضة صحيحة ولكن نفس الذى لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الشواغل الجسمانية والطبائع الارضية، فلو تخلصت من هذه الشواغل لاستوى المحب والمحبوب فى المحبة. وكلما كثر التشابه زادت المودة وتأكدت، فانظر هذا تره عياناً وقول رسول الله (ص) يؤكده: «الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وقول أحد الصالحين: «أرواح المؤمنين تتعارف» ولهذا ما اغتم حين وصف له رجل من أهل النقصان كان يحبه، فقال: «ما أحبنى إلا وقدوافقته فى بعض اخلاقه»

وروى عن افلاطون ان بعض الملوك سجنه ظلما. فلم يزل يحتج عن نفسه حتى اظهر براءته وعلم الملك انه له ظالم. فقال له وزيره: «أيها الملك قد استبان لك انافلاطون برىء فمالك وله؟» فقال الملك: «لعمرى مالى اليه سبيل غير انى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ماهو» فأدى الوزير ذلك الى افلاطون. قال افلاطون: «فاحتجت أن افتش فى نفسى واخلاقى عن شىء اقابل به نفسه واخلاقه مما يشبهها فنظرت فى اخلاقه فاذا هو محب للعدل كاره للظلم فميزت هذا الطبع فى فما هو إلا أن حركت هذه الموافقة نفسه، فأمر باطلاقى. وقال لوزيره: «قد انحل كل ما أجد فى نفسى له». وذلك يؤيد أن التجانس فى أصل الطباع يؤدى الى المحبة. والى هنا نختم هذا الفصل الذى يعطى القارىء فكرة عامة عن هذا الموضوع. وخير لمن يريد التوسع فيه ان يرجع الى مصادره التى وصفناها. فسيجد مايقنعه بأن اسلافنا لم يألوا جهداً فى تناول كل مفيد طريف

روح فيّاض (١)

بقلم الاستاذ امين تقي الدين

...يا رُوحَ «فيّاض» أطلّي ساعةً ... أستوح منك لساعة موضوعا
فبِم الإقامةُ في الجسوم كأنها ... صورٌ على لوحٍ تمرُّ سريعا
لما تخذتِ من الضيا لكِ هيكلاً ... أنّى تركتِ الهيكلَ المخلوعا
صاحبتهِ خمسين ملء إهابهِ ... فنزلتِ رحباً وارتعيت مريعا
وطواكِ في صدرٍ نشرت به المنى ... شتى المعاني غاية ونُزوعا
تتبينَ من عينيهِ سحراً رائعا ... في كل جارحةٍ جرى ينبوعا
وملكت شيمة قلبه فتدافعت ... فيه المروءة مبدأً وصنيعا
وجريتِ فوق لسانه فبيانه ... آيٌ تنث وشارداتٌ توعى
وأويت مسمعه فكنت سياجهُ ... من كلّ نافرةٍ تسوء سميعا
وعهدتهِ يزهى ويمرحُ عابثاً ... أو يستكنُّ تواضعاً وقنوعا
يهب الجزيل و يستنيمُ الى المنى ... و يعفُّ ذا عوزٍ ويخشى الجوعا
وعلى غراركِ قد طبعتِ شعورَه ... نخلقت منه الشاعرَ المطبوعا
ما كنتِ إلا شمسه ياليتهُ ... جارَى بآيته النبي يسوعا

* * *

« فياض» هذي نفثة لو لم تردْ ... شعراً لسالت أدمعًا ونجيعا
إن الاديب إذا وقفتَ بقبره ... أمطرتهُ مما بكيت رَبيعا
إنا لفي بلدٍ أفاد نفوسنا ... أدبا ليوقدهنَّ فيهِ شموع
فاذا زهونَ حرمن مقعد شمعة ... و إذا انطفأن فقد نسين جميعا
لم يبق لي إلا البيان فيا كهُ ... وكفى البيان لدى الاديبِ شفيعا

---

(١) من قصيدة في تأبين الاديب الشاعر المرحوم الياس فياض

١

أحزان الانسانية
فى مستشفى المجاذيب بالعباسية

بقلم الاستاذ احمد الصاوى محمد

أراها من أحزان الانسانية وأذهب اليها كأنى ذاهب الى صلاة تقام على روح صديق راحل حتى اذا جئتها لم أجد دمعة حرى ، ولم أجد الا ابتسامة على الشفاه ، وضحكة تملأ الأفواه !

عجيب !.. يرى شكسبير أن الذى يسرق منه شىء لم يشعر بفقده فكأنه لم يسرق منه شىء البتة .. فهل هؤلاء الذين سلبت منهم عقولهم هكذا ؟ لا ريب !.... وإلا كيف هم فى هذا الجذل كله ؟ ومع ذلك فان بعضهم ثائر ! وإن بعضهم موتور !.. وإن بعضهم يطلب الخروج ويلح فيه ويكتب له العرائض !.. ويطلبه البعض أحياناً فى رفق وحياء . ويطلبه الآخرون فى خشونة ووقاحة وسباب . فهى حالات تتعاقب

وعندما جئت الدار وقت الظهيرة تفضل مديرها الدكتور محمد فؤاد بك بمصاحبتى ساعتين طويلتين .. وأحسبنا دخلنا وخرجنا من مائة باب ، جميعها تفتح لنا ثم تقفل من ورائنا . وهذه الدار مناطق . ولكل منطقة رجالها أو نساؤها من النزلاء

سبحان الله ! لم أشعر بأن هؤلاء مرضى كغيرهم سواء بسوء . لأن المريض برجله أو ضرسه أو ظهره ليس كمسلوب العقل والرشاد . ليس كمحروم النور الذى نرى به الأشياء ونفهمها ونمجد منها ما يستحق التمجيد ونحذر مافيه ضررنا ونتجنب الوقوع فى الزلل ونحسب حساب الحاضر والمستقبل معاً

إن هؤلاء المرضى أناس مثلنا ومع ذلك لم يعودوا منا . لأن لهم دولتهم القائمة برأسها التى لم تعد أرضية ولا سماوية . هى شىء بين بين . ألم تقل لنا تلك السيدة التى تمشط شعرها فى الشمس وهى تتكلم الفرنسية والانكليزية : « أفلا تسمعون تلك الاصوات المنبعثة من هذه السموات ؟ ! » فقلنا لها : « أجل !... » إى وربى !.. ليت هذه السموات تسمع أصواتنا نحن المنبعثة من أعماق قلوبنا بالدعاء لك أيتها السيدة المكودة بالشفاء !...

وهى تعود فتسألنى بالانكليزية : « أين الناس الأشرار ؟ » فقلت لها : « الله يصرفهم !.. » ودخلنا البهو الخاص بالنساء . وهو حسن الأثاث . وفيه بيانو وفيه الصحف اليومية

والمصورة . فاستقبلتنا سيدة من نزيلات الدار منذ عشرين عاماً . . تطوى الغسيل وترتبه بشكل لا يدع سبيلا الى الشك فى عقلهـــا . وكان فى يدى ورق أدون به بعض الملحوظات . فبادرتنا بقولها : « أهلا بكم فقد أتيتم تكتبون محضر الخروج . واخوتى واخواتى وابن خالتى سيأتون اليوم لهذا الغرض ويأخذوننى »

ونحن نغادرها . نراها اليوم للمرة الأولى والأخيرة . لن نأخذها معنا ولن تخرج على يدينا وليس أهلها آتين اليوم لهذا الغرض ولا غداً . وسيطول بقاؤها هنا بقدر تعلقها بالحياة

وهذه المرأة العربية . التى كانت يوماً ما مليحة . وربما قيل فى حبها شعر ونثر . ها هى الآن بعيدة بعداً شاسعاً عن عالم الحب والشعر والامانى . وهى مع ذلك قريرة العين راضية بما قسم الله لها : « البركة فيكم . . بزيادة . . مادامت طرابيشكم فى الدنيا . . احنا مبسوطين »

والله ياخالة ليست بالطرابيش تقدر الرجال . . . ولكن الحمد لله على حسن ظنك . . .

تلك المرأة العربية راضية بما كتب لها . وهذه الجارية ساخطة تنذر بالويل والثبور . وكانت تغسل . . . والعمل كالغسيل أو الخياطة أو ترتيب الفراش من العلاجات النفسانية المفيدة فى هذه الحالات . . . فما رأتنا هذه « الدادة » وسمعت ملحوظة من الدكتور فؤاد بك عن الغسيل حتى ثارت : « معلهش . . . انا الجارية الزربونة أم ديل . . . أوريكم ياباشاوات مصر »

ولما كنا لحسن الحظ لسنا من باشوات مصر فقد كان التهديد موجها لسوانا . وها نحن قد أبلغنا انذارها للذين يحملون هذه الرتبة الرفيعة . . . ولا أحسب أن فيهم من تحدثه نفسه بزيارة هذا المستشفى . . فعند ما يصير الانسان باشا أحسبه ينسى أحزان الانسانية

وهذه تزغرد ، وأخرى تعدد . النساء هن هن فى كل مكان . . . أصوات مرتفعة وانفعال شديد . . . بسبب وبلا سبب . . . ولا مؤاخذة

وأنت ياجدة . . . من أين أنت ؟ أحسبك شركسية . فما أشد بياض بشرتك حتى كأنها اللبن . . كم بقيت هنا ؟ . . يالله ! . ٢٧ عاماً ؟ . . وارحمتاه لك . . سلخت ربع قرن وأنت تحزنين الربع الثانى ؟ . فى هذه الدار ؟ . فى هذه القاعة ؟ . . لا تحيلين عنها الا اليها ؟ . الله معك يا جدة . . . انى أفهم شكواك : « الى جناب المدير . . أطلب الانتقال الى القسم الثانى لانه انظف وغذاؤه أحسن . . ولا بأس بأن تدفع فرق السعر شيكا على البنك من مالى الخاص »

وهو كذلك . . . لقد طيب خاطرك لأنه أطيب الرجال . . .

هذا بقية عنبر النساء . ونحن فى ساعة الغداء . وهن يأكلن بسكون أشد من سكون تلاميذ رياض الأطفال . . ما أشد اختلاف ملابسهن وهيأتهن ! . . ترى . . هل يتذوقن هذا الطعام أو هل يجدن له طعما ؟ ؟ كم من مرة أكلن مع أولادهن وأزواجهن وأحبابهن ؟ ؟ أما اليوم فيأكلن وحدهن أو يأكلن مع ألف شخص يلعب برءوسهن ويأخذ اللقمة من أفواههن . . من

يدرى . . . انهن اجتمعن من أقصى البلاد الى أقصاها ليتناولن هـذا المزيج من الطبيخ واللحم والأرز فى صحن واحد أو صحنين من الالومنيوم ؟ يجلسن الى هذه الطاولة من الخشب ويقمن عنها دون أن تكون لهن ارادة واضحة أو رغبة ظاهرة . ربّاه من ظلم الأيام . . ان تلك الابقار التى نراها تعود فى المساء من المراعى والحقول لتدخل الدار فتجد علفها بانتظارها ، كانت تخور من أول الحى بالتحية ومظاهر الابتهاج . . أما هنا فدمى ميكانيكية أو أحجار شطرنج تنقل كما يقضى النظام ويأمر . . .

وهناك . . أصوات . . « يا الله يافاطمة . . تعالى نشوف عريسك . . . »

أين هو عريس فاطمة ؟ ؟ وكيف هو ؟ ؟ من سكان هـذه الدار أو من قرية فاطمة أو منـا نحن ؟ ؟

لعلهم سيزفون فاطمة قبل غروب الشمس . . . فقد كانت أترابها فى عجلة يرددن النـداء ويحثثن الخطى

وهؤلاء اللواتى يردن الدخول الى حظيرتهن فيفتح لهن فؤادبك بمفتاحه : « تفتح لنا ياجناب المدير ؟ . . . وهل نحن قدر هذا المقام ؟ . ربنا يخليك . . وتعمـل طيب اكتر لو سمحت لنـا بالخروج . . . »

كل فرد هنا فى حالة التمنى والابتهال . . ولـكن أهذا وقف على هذه الدار ؟ ؟ السنا نحن اكثر أمانى وأوسع مطامع من هؤلاء الذين كل مطمعهم الخروج والانطلاق من أسر هـذا المرض العصبى الفظيع ؟ اليسوا هم أحق منا بتحقيق أمانيهم ليتحرروا من عبودية هذا السجن الذى ضربه الله عليهم فعزلهم عن سائر البشر وجعلهم لا من الانسان ولا من الحيوان ؟ ؟

أجل . . . ليتهم ياخذون من امانينا لمن هم أولى النـاس باجابة الدعاء . . . أما نحن فـماذا يجرى علينا لو وقفت الاستجابة لنا مؤقتاً ؟ ؟ يطول مرضنا بضعة اسابيع اوتتعطل درجتنا بضعة شهور ، أو لا تربح ورقة اليانصيب قبل العيد ، او لايتم بناء بيتنا هذا العام او يرزقنا الله ببنت بدل غلام ؟ ؟ نعم . . ماذا يضرنا من ذلك لو عرفنا أن جانباً من عذاب الانسانية سيرفع عن اخوان لنا فى هذه الانسانية عانوا كثيرا لغير ذنب جنوه ؟ ؟



قصيدة أبي الهول

للاستاذ محمد الهراوى

جمع البأس فى همامة نفس ... جسم ليث يقل هامة انسى
جاثم فى مكانه غير جاث ... ليس يجثو سوى الذليل الاخس
ملك فى العراء من غير تاج ... مستفيض الجلال من غير لبس
تتهاوى العروش وهو مكين ... فوق عرش موطد فوق أس
مرت الاعصر الخوالى عليه ... وتمر العصور وهو ابن أمس
نهضت. كفها الحوادث منه ... وانثنت عنه بعد عجز ويأس
صنع قومى وهل يفاخر الا ... وارث المجد أو عصامى نفس؟
أخرجته الاكف آية صنع ... يوم لا صنع غير صخر وفأس
تركته على الخلود دليلا ... للذى يطلب الدليل بلمس
قام عند الاهرام حارس مجد ... لن يطوف البلى عليه بطمس
رافع الرأس تحت شبه مجن ... باسط الكف فى براثن طلس
شاخص للزمان منه بعين ... لم تذق فى حياتها طعم نعس
قامة تقصر النواظر عنها ... ودعام يزرى برضوى وجلس
أمم الارض قد توالت عليه ... وتولت من كل دن وجنس
أقبلت فى مدارع البغى صبحا ... ثم دالت والبغى مغرب شمس
طمحت تستقل بالنيل ملكا ... فاحتواها من دونه بطن رمس
وترى خلفه مصارع قوم ... هبطوا مصر فى مواكب عرس
يا محط الرحال كم من وفود ... حملتها اليك أحداج عبس
من بنى العرب والبنود شكول ... أو بنى الفرس تحت ظل الدرفس
أو بنى الترك فى جنود سلم ... أو رجالات بونبرت الفرنسى
كل وفد علت منه مناه ... فى تناج أو فى اشارات خرس
طال منهم لديك اطراق ساه ... سابح الفكر فى خيال وهجس
ساورتهم منى فتسخر منهم ... بابتسام عليه صبغة ورس

يا وفود الآفاق ماذا لديكم   من أمانى ذات دلس وولس
فاهبطوا مصر مكرمين ضيوفا   لا غزاة على كتائب حمس
واطلبوا الخير وافراً بأياد   واطلبوا النـاس بالولاء الأمس
يا أبا الهول أنت جلس الليالى   منـذ كانت وما سواك بجلس
قل لذى القوة الغشوم رويداً   كل ما فى يديك منحة خلس
سيرد الزمان ما كان أعطى   منح الدهر رهن رد وحبس
رب عار فى يومه عن ثياب   كان بالامس رافلا فى الدمقس
يا خطيب الزمان لم تأل جهداً   ان تصون الزمان من كل دلس
قمت فى الناس قبل بعث نبى   يعظ الناس فى أذان ونقس
أنت وحى السلام تخطب فى النـــاس وهم عنـه فى طعان ودعس
شهد الله ليس فى الناس رأس   يصلح الناس من خبال ومس
ضاع فيهم كتاب كل نبى   وهدايات كل شيخ وقس
فرقتهم مطامع وأمان   فى صفات من الطبائع شكس
لو تطيق الـكلام كنت خطيباً   فوق سحبان فى البيان وقس
مبلغ الظن ان صمتك يأس   بعـدما بح كل صوت وجرس
أرسل النفس فى خبايا أبى الهو   ل تذكرك والحوادث تنسى
إيه يا نفس ههنا السر خاف   فتقريه بالبنـان الخمس
وأبينيه فالحـديث رجوم   عنه والناس بين ظن وحـدس
قد أرى فيه والفؤاد دليلى   شبه دنيا تعيد فيه وترسى
صور للعصور مختلفات   ماثلات على ترائب ملس
صورت فى فؤاده مقلتاه   ما رآه فى كل جيل وحرس
مثلما صور الرسوم طباقا   فوق ألواحه الزجاج الشمسى
فترى فيه للحوادث مرآة   تريك العصور معنى لحس
يا أبا الهول والمسمى عظيم   لا تشاب الاسماء فيك بلبس
أنت للظالمين طالع نحس   وعلى مصر طالع غير نحس
ما حسبنا الاهرام غير عرين   قمت عن أهله بحرس وعس
اودع الله بين جنبيك سراً   قد عرفناه باختبار ومرس

كل دار أقمت فى جانبيها أبد الدهر لا تحول بدرس
صورت فيك لابن مصر معان حار فيها الورى على طول درس
علم قائم على ذروة المجـــد وطود على المفاخر راس
شامخ الرأس غير افطس أنف عن رءوس شوامخ غير فطس
جمع الحكمتين بأساً وعلماً فى حمى اروعين جسم ورأس
صابر للزمان طرداً وعكساً لم يحل فيه بين طرد وعكس
مستلينا على كرامة نفس مستحيلا مع الخطوب لبيس
سلس الخلق فى المكارم لكن ذو صفات على المكاره شمس
يقظ العين حين ظنوا فقالوا هو فى النوم غاطس أى غطس
يا تراث الآباء قد شد ما ها ج حديث الآباء منك بهمس
فيك من سرهم أشعة نور كل جيل يعود منها بقبس
فيك بعض العزاء ان ذكر المجـــد قديما وفيك بعض التأسى
لا تلم أمة أكف العوادى جردتها من كل حول وبأس
لم يقصر بنو الكرام ولكن لليالى أدوار نعمى وبؤس
كذب الزاعمون انا أناس الفوا الغبن واستناموا لوكس
وارتضوا خطة الهوان وساروا من وراء الشعوب ذيلا لرأس
لا وعى مسمع الزمان حديثاً مثل هذا ولا حوى صدر طرس
غضب الحق ان يقال بنو مصـــر سوام تباع بيعة بخس
نحن نسل الملوك من آل فرعـــون ونسل الاشراف من عبد شمس
فاسألوا المالكين من آل مصر مثل مينا وخفرع وكيوبس
كيف مدوا على الورى ظل حكم مستمد من فوق عرش وكرسى
نبىء الناس يا أبا الهول انا امة كالحديد صلب المجس
لم يعبنا انا بلتنا شعوب وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذقناه سوءاً بيد الله كل كأس بكأس
فاسألوا الروم ما دها الروم فينا واسألوا الفرس عن مصاب الفرس
امم تلك ذات ناب وضرس قد مضغنا ما بين ناب وضرس
فنيت كلها ونحن بقينا من حمى الله فى حضيرة قدس

عبد الرحمن الناصر

في يوم سمورة

بقلم الاستاذ حبيب جاماتي

أخذ كل من القواد والأمراء مكانه حول عبد الرحمن الناصر وقد استوى فى مجلسه فى صدر القاعة ، وتطاولت الاعناق نحوه ، وشخصت الابصار اليه ، وكل من الحاضرين يسائل نفسه : « أى حادث جلل استدعى هذا الاجتماع ؟ »

القى عبد الرحمن نظرة على ابطاله ، وعندما أيقن انهم جميعاً قد لبوا دعوته ، وأسرعوا إلى مجلسه ، وجه اليهم الخطاب قائلا :

ـــ لقد دعوتكم يا رفاقى فى الجهاد وأعوانى فى تثبيت دعائم هذا الملك ، لكى أفضى اليكم بما عولت عليه وعزمت على القيام به نحو حصن من حصون الاعداء المنيعة ، وقلعة من قلاعهم المتمردة ، وأظنكم قد أدركتم أى حصن أعنى وأية قلعة أقصد . .

وسكت لحظة . فتبادل الامراء والقواد النظرات . ثم القى أحدهم ، فى وسط ذلك السكون هذه الكلمة : « سمورة ! »

فابتسم عبد الرحمن الناصر ، ورفع يده إلى لحيته ، وجعل يعبث بها باصابعه قائلا :

ـــ لقد أصبت ياهشام . إياها أعنى ! فقد استولى العرب على الاندلس من أدناه إلى أقصاه . وخضع لهم حكام المدن وغطارفة الجبال . وضربت الاتاوة على المقاطعات النائية . والبلاد تتمتع الآن بما تصبو اليه من راحة وهدوء وعزة واطمئنان . لكن شيئاً واحداً ينغص على الآن عيشى ويملأ ليالى بالاحلام المزعجة والافكار المقلقة . فان « سمورة » مدينة الجلالقة ومعقلهم الحصين لاتزال متمردة علينا . رافعة لواء العصيان قائمة على جبلها الاشم ، تتحدى جيوشنا الجرارة ، وتردها عن أسوارها المنيعة خائبة خاسرة . فهل يجمل بعبد الرحمن الناصر أن يغض الطرف عما أصاب جيوش العرب من فشل واندحار ، أمام جبل سمورة ، وأن تردد الاجيال المقبلة أن ملوك الاندلس قد عجزوا عن استرداد هذه المدينة ، بعد أن طردهم منها الاسبان واعتصموا فيها مكابرين مفاخرين ؟ يا أمراء العرب وقواد الجيش لقد دعوتكم للاسترشاد برأيكم . فما قولكم فى إعادة الكرة ، ومهاجمة سمورة . واقتحام أسوارها ، ودخولها عنوة ، أياً كانت خسائرنا وأياً كانت قوة المدافعين عنها ؟

تشاور الحاضرون فيما بينهم، واستحسنوا رأى عبد الرحمن، فنهض واحـد منهم وهو أكبر الجميع سناً وقال :

ـــ ان رأينا هو رأيك يا أمير المؤمنين فان شوكة الجلالقة تزداد يوماً عن يوم. وينبغى لنا أن نقضى عليهم وأن نتدارك الخطر ونضربهم الضربة القاضية، قبل أن يستفحل أمرهم ويتعاظم شرهم. فاذا شاءت ارادة أمير المؤمنين سرنا غداً بمائة الف من رجالنـا البواسل لفتح سمورة ونصب أعلامنا فيها !

فطفح وجه عبد الرحمن الناصر بشراً وقال :

ـــ لا عدمتكم أنصاراً. اعدوا اذن للملحمة القادمة عدتهـا، وموعدنا فى مثل هذا اليوم من الاسبوع المقبل !



بعد أن تدفقت جيوش العرب على الاندلس ودكت حصونها، واجتاحت مدنها، ومزقت كتائب المدافعين عنها، ظل ثلاثون من صناديد الحرب، معتصمين فى « أعالى الجبال » فى مكان اطلقوا عليه اسم « الصخرة » يقتاتون من العسل وجذور الاشجار، ويأبون الاستسلام للغزاة الفاتحين . . .

قابل العرب عصيانهم بالاحتقار فتركوهم وشأنهم، وما كانوا ليطلعوا فى ذلك الوقت ان اولئك الابطال الثلاثين، سوف تتكون منهم نواة جيش عظيم، يعيد على العرب الكرة بعـد الكرة، ويسترجع منهم المواقع الحربية موقعاً بعد موقع !

أصبحت تلك « الصخرة » وكر القومية الاسبانية، وبركان الوطنية المتأجج، وخرج أولئك الثلاثون من مكمنهم فانضمت اليهم فلول الجلالقة المبعثرة، وجعلوا يهاجمون الحصون والقلاع والمدن، وتمكنوا فى سنة ١٣١ هجرية الموافقة لسنة ٧٤٨ للميلاد، بقيادة ملكهم « الادفونش » الكاثوليكى من استرجاع سمورة وقلعتهـا من العرب، واحتفظوا بها منذ ذلك الوقت، وعبثاً حاول العرب اخراج المعتصمين فيها، فقد تحطمت هجماتهم على أسوارها كما تتحطم الامواج على الصخور، وظلت المدينة الحصينة تسخر طوال تلك السنين من الجحافل المسيرة لاخضاعها. وظلت قلعتها الشامخة رابضة فوق جبلها الشامخ. كأنها وكر من وكور النسور، يهرأ باسراب الزرازير !

وعندما تولى عبد الرحمن الناصر خرج عليه أعمامه ومعهم فريق من كبار الزعماء و قواد الامراء. فاضطر الخليفة الاموى إلى ترك الجلالقة وشأنهم للقضاء على اعدائه فى الداخل واتخلص من كانوا ينازعونه الملك والسلطان. فاشتد ساعد أعدائه وانضم اليهم بعض الخوارج من عرب كاسحق بن أمية وغيره، فجعلوا يكشفون لهم عن عورات المسلمين ويساعدونهم على النيل منهم ؟

لكن عبد الرحمن الناصر تغلب على اعمامه وأنصارهم. فاستتب له الامر. وعاهد نفسه على بسط سلطان العرب من جديد على البقاع والامصار التى أضاعها عليه انهماكه فى الشؤون الداخلية

والحروب الاهلية . وأول ما فكر فيه وعزم عليه انتزاع سمورة الحصينة من الجلالقة المتمردين وبذل قواه في هذا السبيل

* * *

استيقظ أهل سمورة مذعورين . ونهضوا خائفين على أصوات الاجراس والنواقيس وهى تدق بالتواتر إيقاظاً للناس منذرة بالخطر القريب والويل الداهم

وانقض الخبر من فوق أبراج الكنائس والحصون على السكان انقضاض الصاعقة . وقد أرسله الحراس من مكامنهم في جهات المدينة الاربع : « العدو ! العدو ! »

وبدت رايات العرب وأعلامهم في السهول والوديان . وقد انتشروا فيها على مسافات شاسعة . وطلعت الشمس من وراء القمم والآكام . فسطعت تحت أشعتها السيوف والدروع والرماح . وهب نسيم الصباح يحمل الى المدينة مع أريج الحقول والغابات صهيل الخيول وجلبة الجنود !

وأيقن القوم أن ذلك اليوم سيكون من الايام الدموية الهائلة وأن مستقبل مدينتهم سيطرح في حلبة الرهان ! فاستعدوا للمقاومة . . . واستعد العرب للهجوم . . .

وكان القواد يسيرون في طليعة جيشهم ، ومن ورائهم مائة الف من أبطال الحرب المغاوير ، بين مخترط سيفه ، وشارع سنانه ، وقد اختارهم عبد الرحمن وأعد كتائبهم لانه كان يعلم أن في سمورة رجالا أعزة النفوس عركتهم الحوادث ودربتهم الحروب ، وأنه لن ينال منهم منالا ولن يتمكن من إخضاعهم إلا إذا نازلهم بخيرة جنوده وصفوة قواده ، عملا بالقول الحكيم : « لا يفل الحديد غير الحديد ، ولا يغالب الصنديد غير الصنديد ! »

والتحم الفريقان في معركة دامت طول ذلك النهار ، بيعت فيها الارواح رخيصة ، وسالت فيها الدماء جداول ، وطوحت الطوائح بسمورة المنيعة فدخلها العرب فاتحين منصورين !

لكنهم أهملوا الحصون كعادتهم ، وانتشروا في المدينة مهللين مكبرين ، ولم يعملوا على تأمين أنفسهم بالاستيلاء على القلاع والآجام جميعها ، عملا بقولهم المأثور : « كل محصور مأخوذ ! » فاعتصم المقاتلون من الجلالقة وراء تلك الجدران المنيعة ، واجتمع زعماؤهم للتشاور والمداولة

وكان ساعدهم الايمن ومرشدهم المسموع الكلمة ، في ذلك الظرف العصيب ، قائداً من أشهر قواد العرب الخارجين على عبد الرحمن ، وهو اسحق بن أمية ، الشجاع المحنك !

رسم ذلك العربي المحارب في صفوف أعداء أمته خطة لانقاذ سمورة من الفاتحين وطرحها على بساط البحث أمام زعماء المدينة المقهورة فاقروها جميعاً ، وعزموا على وضعها موضع التنفيذ عندما يرخى الليل سدوله على الاسوار . . وفي الساعة المعينة ، انقض الجلالقة من جديد على العرب الذين أهملوا وسائل الحيطة بعد النصر . فاخذوا على غرة منهم . ولم يقووا على صد المهاجمين . فتراجعوا أفواجاً أفواجاً . مسرعين إلى الخندق المحيط بالمدينة لاجتيازه والعودة إلى السهول ، فتمكن خمسون

الفا من عبور القنطرة القائمة عليه وسقط خمسون الفاً منهم صرعى فى حومة القتال !

وأراد الجلالقة أن يعبروا الخندق وراء الهاربين ، للقضاء عليهم . فاعترضهم اسحق بن أمية ــ وقد هاله ما أصيب به العرب من خسائر جسام وآخذ نفسه على ما بدر منه ــ صائحا بهم :

ــ إياكم أن تلحقوا بهم ! فان العرب لم يعبروا الخندق ويسرعوا الى السهل إلا لكى يقيموا فيه كمينا لاستدراجكم ! إنى أعرف منكم بعاداتهم وتقاليدهم . فارجعوا الى المدينة وا كتفوا بما أحرزتم اليوم من نصر عظيم !



أدخل ذلك الانهزام الشنيع الحزن إلى قلب عبد الرحمن الناصر . وظل منذ ذلك اليوم المشئوم يفكر فى أخذ الثأر ، لانه كان يأبى أن يسجل على نفسه العجز الذى سجله أسلافه على أنفسهم ، وأن يوصم بما وصموا به ، وأن يطوى الصفحة المجيدة التى دونها فى تاريخ العرب والاندلس ، دون أن يغسل ذلك العار الذى لحق جيشه فى سمورة ، ويمحو أثره بانتصار باهر وفتح مبين

وكأن الاقدار شاءت أن يكون عونه فى أخذ الثأر من أهل سمورة ذلك الرجل نفسه الذى كان من قبل عوناً لهم على صد العرب عن أسوارهم : اسحق بن أمية !

فقد عاد ذلك القائد المغوار الى حظيرة الواجب . بعد معركة سمورة بأيام معدودة وطلب العفو والامان ؟ وتقرب من الخليفة الذى عرف قدره وأحله فى حاشيته المحل اللائق به ، فاصبح اسحق ابن أمية ، بين مساء وصباح ، موضع ثقة عبد الرحمن وأمينه ونجيه

وكما رسم اسحق من قبل للجلالقة خطة الدفاع وطرد العرب من مدينتهم المجتاحة ، فانه رسم فيما بعد ، وبالاشتراك مع مولاه عبد الرحمن الناصر ، خطة هجوم جديد للاستيلاء على المدينة ودك أسوارها واقتحام حصونها

أدرك الخليفة أن وجوده لابد منه فى الميدان ، فعزم على قيادة جيشه بنفسه . وفى صبيحة يوم من أيام شوال سنة ٣٢٧ هجرية الموافقة لسنة ٩٣٨ للميلاد . وصل ذلك الجيش الى السهول الممتدة أمام سمورة . وانتشر فيها انتشار السحاب فى السماء !

سار عبد الرحمن الى الجلالقة فى هذه المرة بمائتى الف مقاتل من بواسل الابطال والفرسان ، ولم يأبه لتشاؤم المنجمين الذين قالوا له ان جيشه سينهزم لانه بلغ سمورة بعد كسوف الشمس بثلاثة أيام . بل أعد للهجوم عدته . ورتب للقتال جنوده . وما طلع فجر الغد الا وقد دكت الاسوار وأسلمت الحصون وسقطت الآجام وفتحت القلاع أبوابها . فدخل عبد الرحمن الناصر مدينة الجلالقة واحتاط لكل مفاجأة وانتقاص



سكر العرب بخمرة النصر ، وراحوا ينزلون باولئك الاعداء الالداء أنواع الانتقام وقد عجز قوادهم عن كبح جماحهم بعد ذلك الفوز المبين !

ترك عبد الرحمن الناصر جنوده وشأنهم وقد أطلقوا لثوران غضبهم العنان ، وامتطى صهوة جواده . وانطلق ومعه بعض اتباعه متجولاً فى ميدان القتال ، باحثا عن جريح يواسيه وحزين يعزيه وتائه يعيده الى أهله . . .

طرق أذنيه وهو مار تحت أسوار المدينة نحيب طفل يبكى . فانصت . ثم ترجل وقصد الى مبعث الصوت . واذا به أمام وليد لا يزال فى لفائفه مطروح بين الاعشاب فى اخدود ضيق تحت جدار متهدم . . .

فالتقطه عبد الرحمن واحتضنه وجعل يبذل له من تدليل ودهدهة ما يستطيع بذله رجل عرف كيف يحب رعيته وابناءه

فسكت الطفل وارتسمت على ثغره ابتسامة الاطمئنان . وركن الى ذلك الصدر القوى كما يركن العصفور الى عشه . فحمله عبد الرحمن الناصر على جواده ورد عليه طرف ردائه . واستمر فى جولاته فى السهول والهضاب . . .

ثم قصد قبل غروب الشمس الى مضرب فسيح نصب امام تلك القنطرة التى شهدت من قبل انهزام العرب وشهدت فى ذلك اليوم انتصارهم . وهناك جلس الخليفة يحيط به امراء جيشه فى ابهة المجد وعظمة الملك ، وأمر ان يؤتى اليه بأسلاب المعركة . فمر الجنود امام مولاهم وقائدهم يسوقون الاسرى افواجا افواجا والسبايا جماعات جماعات . وفجأة علا فى الخارج صراخ ونحيب وحدثت فى باب المضرب جلبة استرعت اهتمام عبد الرحمن وخاطب الحراس سائلا : « ما الخبر ؟ »

وقبل ان يلاقي سؤاله جوابا شقت صفوف الجنود امرأة فاقدة الصواب وقد حلت شعرها ومزقت ثوبها وأرسلت صوتها بالنواح والعويل ، فوقفت فى وسط المضرب صائحة :

— أين هو ملك العرب ؟

احاط بها الحراس من كل جانب . لكن عبد الرحمن ردهم عنها قائلا :

— دعوها ولا تزجروها . ! . هل بينكم من يعرف من امرها شيئا ؟

فقال احد الجنود :

— رايناها منذ ساعات يا امير المؤمنين تروح وتجيء بين الجثث والاطلال ، تارة تركض كأن بها مساً من الجن وتارة تكب على الارض تفحصها وعلى الاشلاء تقلبها ، ثم تنهض حائرة يائسة ، وتنقلب من جديد راكضة معولة . فجئنا بها اليك يامولاى مع من جئنا بهن من سبايا الحرب

خاطب المرأة سائلا : أنا ملك العرب ! فمن أنت وما دهاك يا امرأة ؟

فحدقت اليه بعينين يتطاير منهما الشرر وينبعث منهما الحقد والغضب . وقالت :

— أعد إلي ولدي ياقاتل النساء وذابح الاطفال ! أهذا هو العدل الذي تحمله الينا والأمان الذي تعدنا به ؟ . . ان جنودك يطلقون أيديهم في السلب والنهب ويشتتون في العراء من لا تتناوله سيوفهم من السكان . ويفصلون بين الاخ واخته والرجل وزوجته والام وطفلها ! امن أجل هذه الاعمال يسمونك « الناصر » يا عبد الرحمن ! أنعم به إذن من نصر وانعم به من لقب !

فقطب الملك جبينه ونظر الى المدينة وقد اندلعت فيها النيران وارتفع منها الصياح . ثم نظر الى تلك المرأة المذعورة وخيل اليه ان الضمير قد تجسم فيها وجاء يؤنبه على الفظائع التي يرتكبها جنوده في مدينة ذنبها الوحيد أنها دافعت عن حريتها وابت الخنوع والاستسلام !

والتفت الى من كانوا يحيطون به من القواد وقال :

— احملوا الى الجند أمري بالكف عن الارهاق واضربوا عنق كل معاند مخالف !

ثم خاطب المرأة السمورية بلهجة الرحيم الشفيق ، قائلا :

— خففي عنك يا امرأة . انى اؤمن سكان هذه المدينة على ارواحهم وأموالهم فاطمئني

فقالت المرأة والزفرات تخنقها :

— وولدي ؟ . طفلي الرضيع الذي انتزعه جنودك الاجلاف من بين ذراعي فانتزعوا معه روحي من بين جنبي ؟ اتعيده الي ياعبد الرحمن ؟ ام انك تحلل ما تحرمه الشرائع وترضى بأن يرتكب جنودك ما ينهى عنه المسيح وينهى عنه محمد ؟ أعد الى ولدي اذا كان في صدرك قلب يختلج لشعور الاب ويعرف حب الوالدين !

— ان قلب عبدالرحمن يا امرأة ليس بالقلب المظلم الجوانب كما تظنين . . . وقد تكون العناية الالهية هي التي قادتك الآن الي . انظري ! ألا يكون هذا الطفل ولدك ؟

قال الخليفة هذا ، ورفع طرف ردائه عن الطفل الذي حمله معه الى ذلك المضرب ، والذي كان نائما مستكنا بجانبه ، ووضعه امام المرأة الحزينة

وكأن الرضيع أحس بأنه على مقربة من أمه ، فجعل يصرخ فرحاً مسروراً . .

فارسلت المرأة صيحة سرور وطرب واندفعت نحو الطفل تغمره بالقبلات وتغسله بالدموع ، ثم خرت على وجهها وسجدت شكراً . وقالت :

— انك ايها الملك لأعلى الملوك نفساً وارحمهم قلباً وأكرمهم خلقا . فليرزقك الله عمراً طويل الآباد ، وليرع بعين عنايته أبناءك من بعدك وأحفادك من بعد أبنائك !

وكتب عبد الرحمن الناصر في وصيته أنه حكم الاندلس خمسين سنة ، منها أربعة عشر يوما يعدها « الايام السعيدة » في حياته الطويلة

وذكر أن أحد تلك « الايام السعيدة » هو ذلك اليوم المشهود — « يوم سمورة » — الذي هزم فيه الاعداء ، واستولى على تلك المدينة خصينة ، وأعاد الى الام السمورية حريبة صغيرها المفقود

ثروت باشا [1]
يعود الى أرض آبائه

بقلم الاستاذ خليل ثابت

وفى مساء السبت أغارت على حمى الدنج تنازعنى فتصرعنى وأقارعها فتقرعنى وأجالدها كما يجالد العدو المرهوب الجانب حتى ضاق الصدر ووهن العظم ، فانطرحت كما ينطرح المجاهد وقد خارت قواه ولم يبق له من الحيل سوى بث الشكوى وترديد البلوى والتمسك بحبل النجوى . وما أضعف الانسان : . وخيم الظلام على الوجود وطلع القمر من خلال سحب دقيقة يستشف بعض مافى هذا الكون من أسرار السعادة والهناء وأسباب الحزن والاسى والشقاء . فى تلك الساعة دخل الناعى يقول : «مات ثروت باشا» فغمغمت كمن يستوعب النبأ ، فاعاده على مسمعى وكنت قد صرت فى البرزخ بين اليقظة والمنام ، فاذا بى فى غمرات من أحلام مزعجة وخواطر مفزعة ومناظر تنبو عنها العيون ، لا أخرج من غمرة حتى أخوض أخرى ولا أنجو من بلية حتى أبلى بشرمنها ، وبحار وأمواج وارتفاع وانحدار وضوضاء كضوضاء يوم الحشر ودوى كمن وضع فى أذنيه أنامله العشر ، ثم رأيت فيما رأيت جمعاً كثيراً واقفاً على شاطىء بحر لاأعرفه ورجالا يصعدون من البحر يحملون كنزاً نفيساً يحرصون عليه حرصاً عظيما فدفعوه إلى هؤلاء الواقفين فتسلموه واجمين وهم مقطبو الوجوه منقبضو الصدور ، ثم رأيت ثروت باشا باسما كعادته وعيناه تحدقان فى الناس من وراء نظارتيه وقد انبسطت اسارير وجهه بالرزانة والسكينة اللتين اتصف بهما . وهنا أبدلت لوحة الرؤيا فتعاقبت المناظر وكلها شدائد لم أصدق ان طلع الفجر للخلاص من كابوسها . ثم أشرقت ذكاء وأفاضت أشعة النور والرجاء فحمدت الله على أن ما رأيت لم يكن سوى اضغاث أحلام ونسج مخيلة نسجته حمى الدنج ومزقته أنوار النهار . وبعد قليل جاءت الخادمة بصحف الصباح كالعادة فى أيام الاحد فوقع بصرى على خطوط سوداء ضخمة وقرأت من بعيد اسم ثروت باشا فى رأس تلك الخطوط ، فصفقت صفقة الاواه وقلت لاحول ولاقوة إلا بالله . لقد كان الامر حقاً ولم يكن حلماً فيالضيعة الدكاء ومواهب الرجال والحكمة وسداد الرأى ! ويا لمصاب مصر فى موت أبنائها الافذاذ . كل نفس ذائقة الموت وكل ذى حياة شارب كاس المنون . ولكن هذا الموت جمرة تكوى نفوس الاحياء وجذوة توقد نار الاسى فى حنايا الضلوع

(١) مقتبس من مقال نشر بالمقطم

ومخادع الافئدة ،فلا تقوى الدموع على اطفائها الى أن يمن الله بالعزاء . وأى عزاء يلتمس فى مصاب قومى عظيم ؟ ومن يعزى المحزون اذا عم الحزن الجميع وكان الباكون جميع أفراد الشعب ؟ وأين السبيل الى دفع الالم ، ألم ضربة فجائية انقضت من عالم الغيب على هامة أمة بأسرها لولا اليقين بالله والشعور الوطيد ؟ فان هذا الراحل الكريم فقيد البلاد كلها لم يمت بالانتقال من عالم الشقاء والفناء الى عالم الخلود والبقاء ، ما دامت مصابيح أعماله تبعث انوارها على ضفاف النيل شاهدة بخدماته الجليلة وأعماله العظيمة وما حباه الله من فضائل وسجايا وقفها على قومه وعشيرته جواداً غير مقتر ولا ضنين، فخلف لهم ارثا ثميناً وترك تركة عظيمة يتمتعون بها هم وأولادهم وأحفادهم من بعدهم إلى ما شاء الله ، وضرب للعاملين المثل الاعلى فى التفانى فى الخدمة الصحيحة والاقدام على جلائل الامور ومواصلة السعى للنفع والخير ، لا يلهيه لهو ولا يوهن عزيمته فشل ولا يثنيه عن قصده صعاب ولا عقبات

مات ثروت بعيداً عن وطنه الذى أحبه فخسرت مصر بموته ثروة عظيمة وشعرت فى الحال بعظم خسارتها .وشاطرها هذا الشعور غيرها من الامم المتمدنة التى عرف أقطابها فقيد مصر الراحل فاكبروا فيه هذه المواهب التى تجلت من نعومة اظفاره ، فاحرز بها قصب السبق على الاقران فى مقاعد الدرس والتحصيل ، حتى اذا شب وبرز الى حلبة العمل تخاطفته المناصب متدرجة به صعوداً فى سلم الارتقاء والعلاء الى مقام الوزارة والزعامة السياسية . وكانها العناية أعدته بما خبر من شؤون الادارة والقضاء ومعالجة مشكلات الزمان والتمرس بحوادث الدهر لما كانت تضمره لمصر من طريق تنكب به عن حياة ماضية سئمتها الى حياة جديدة تصبو اليها ، وفيها مطلع عصر طافح بالامل والرجاء وعصور تليه ، ويكون فيها تحقيق الامانى واقامة صروح النهضة القومية على القواعد التى وضعها العاملون المحنكون الالباء ، وعاد ثروت الى أرض آبائه وأجداده ، فحملوه وهو المتصف بالتواضع وحب العزلة والسكينة . على الاعناق وساروا به فى هذه الشوارع التى عرفها والتى أحبها صبياً ويافعاً وشاباً وكهلا والتى سعى سعيه المشكور ليطلق فيها نسيم الحرية والاستقلال يملأ الصدور وتخفق به القلوب . ومشوا بثروت الهوينا فى وسط بحار الجماهير الزاخرة الآسفة الباكية وهى الجموع التى كان ثروت يسهر لتنام ويطلق الراحة فى النهار لتستريح

وحملوه تحت رايات مصر المنكسة حزناً عليه واعترافا له، وهى الرايات التى كان يطمع أن يراها تخفق الى جنب رايات الدول المستقلة حتى اكتحلت عيناه بهذه المنظر المشتهى فى غير موقف واحد وفى غير مكان واحد ، فاعتزت بمساعيه مصر ورفعت رأسها فى مجامع الشعوب تطلب النور الساطع والهواء الطلق ، كما ارتفعت بنودها وألويتها الخضراء منادية بأفصح لسان أن مصر عرفت كيف تضع أساس صرح مجدها واستقلالها وستعرف كيف تمضى فى البنيان.ومشى وراء نعشه عظماء مصر من أمراء البيت المالك ووزراء الدولة وسفراء الدول وجمع لايحصى من أقطاب الامة وكرامها وممثلى هيئاتها وطبقاتها وهم يرددون الحسرات ويصعدون الزفرات ويحصون ما حوى النعش من كريم السجايا وعظيم مزايا

ويعددون ما أصاب الكنانة بفقد من ادخرته لليال يفتقد فيها البدر وملمات يبحث فيها عن ذوى الرأى السديد . فاهتزت الكنانة بوفاته وارتجت أرجاؤها بنعيه ، وأقبل الذين تظلهم سماؤها يعربون عما تكنه النفوس من عواطف الاجلال والاحترام بما فى طاقة البشر من مجالى التكريم وعرفان الفضل والجميل لهذا الراحل الذى نقش اسمه على لوحة تاريخ مصر الحديث نقشا لا يمحوه تعاقب الايام وكانت فى كثير من الأحوال المحور الذى يدور عليه

كان الناس فى أمر ثروت رجلين : فرجل لا يعرفه ولا يخالطه فيبنى رأيه فيه وحكمه له أو عليه بما يسمع عنه وما يقال له ، ولكن هذا الفريق كان يدرك أن ثروت من رجال مصر المعدودين وانه رزق من الحنكة السياسية مالا يرزقه سوى قليل من الخلق . ورجل عرف هذا الوزير الكبير فى مواطن القضاء والادارة والسياسة فكان يكبر مافطر عليه من الذكاء واتقاد القريحة وسعة الحيلة فى معالجة الامور ورحابة الصدر فى تلقى الحوادث . غير أن هذا كله كان مسدولا عليه ستار من السكينة والدعة ورقة الخلق وشىء من حب العزلة ومقت الظهور مقرونة بحياء فى الطبع . وكانت هــذه الاخلاق تتجلى فى مظاهر شتى كاحجامه عن الخطابة الا فى مواقف نادرة مع أنه كان منشئا بليغاً وخطيباً مجيداً . يذكر ذلك والعهد قريب الذين سمعوه يرثى سعدا والذين طالعوا هــذا الرثاء فى الصحف فقد كانت خطبته هذه آية من آيات البلاغة وحسن الاسجام علاوة على ماوعت من سمو العواطف وصدق الوفاء .فهذا الميل الى العزلة ونفوره الفطرى من الكفاح والنضال كانا ينقصان من مقدرة ثروت على تقلد الزعامات مع توافر سائر أسباب النجاح فيها له .أما حنكته السياسية فقد صارت أشهر من نار على علم وحقيقة لا يختلف فيها اثنان بل صار اسمه عنوانا لهــا فلا يذكر الا مقرونا بها فى الاذهان .فان مساعيه التى انتهت باعلان استقلال مصر بعدما أصرت الحكومة البريطانية اصرارها المعروف على التمسك بنظام الحماية ــ ان هذه المساعى التى كللت بالنجاح بما عززت به من الحجج الدامغة والأدلة الساطعة والبيانات المقنعة أكسبت ثروة شهرة ذاعت فى الخافقين وأحلته محلا رفيعا فى عيون أقطاب البريطانيين بدليل مالقى من حفاوتهم به واجلالهــم له فى زيارتيه لبلادهم وعاصمتهم فى صيف ١٩٢٦ وصيف ١٩٢٧ . ولايتسع المجال هنا للبحث فيما اصبح من حقائق التاريخ الشهيرة . ولا بد أن ماسيظهر من الذى خفى حتى الساعة من تلك المساعى وما ذلل فيها من عقبات سيزيد فى شهرة ثروت ويقضى برفع مرتبته السياسية فى العيون ويضاعف حسن تقدير جهده فى خدمة وطنه وقومه. أما مساعيه الاخيرة لعقد اتفاق بين مصر وبريطانيا فهذه لاتزال مذكورة بتفصيلها لقرب العهد بها وقد دافع فيها عن قضية مصر دفاعا محكما دل على صدق وطنيته وسعة خبرته وشدة ذكائه وبعد نظره وحمل اقطاب الحــكومة البريطانية على التسليم بنظريات وقواعــد ما كانوا يسلمون بهــا من قبل . واذا كان لم يفز بما اشتهى فلأن أوان الفوز للجانب المصرى لم يكن قد آن

الله والشاعر

من قصيدة للاستاذ علي محمود طه

من عبراتي صغتُ هذا المقالْ ومن لهيب الروح هذا القلم
ملأتُ منه صفحات الليال فضمنتْ كلَّ معاني الالم

يارب ما أشقيتنى في الوجود إلاّ بقلبي : ليته لم يكنْ !
في المثل الأعلى وحب الخلود حملته العبء الذي لم يهنْ

خلقته قلباً رقيق الشغاف يهيم بالنور ويهوى الجمالْ
حلّتْ له النجوى ولذّ الطواف بكعبة الحسن ووادى الخيال

بعثتَه طيرا خفوق الجناحْ على جنانٍ ذات ظلٍ وماء
أطلقته فيها قبيل الصباحْ وقلت : غنِّ الارض لحن السماء

فهام فى آفاقها الواسعه النور يهفو حوله والندى
مصفقاً للضحوة الساطعه ومنشداً ما شاء أن ينشدا

إن جاء صيف أو تجلى ربيعْ حيّاهُ منه عبقريُّ الغناء
وكم خريف في نشيد بديعْ تظل ترويه ليالى الشتاء

قيثارة تصدر فى فنها عن عالم السحر ودنيا الخفاء
على الصدى الحائر من لحنها يستيقظ الفجر ويغفو المساء

مشت على الامواج انغامها والارض قيد النشوة المسكره
كأنما ترقص احلامها في ليلة ترقية مقمره

عزاؤها شعر به أهزج في نغم مستعذب ساحر
ما يحزن العالم أو يبهج إلا على قيثرة الشاعر

الطاووس

للدكتور زكي مبارك

الطاووس طائر ذو جناحين ، ولكنه لا يستطيع النهوض ، لان ريشه عبء ثقيل . وهو طائر ذو كرامة ينفر من الابتذال . وهو الطائر الوحيد الذى رأيته فى حديقة النباتات فى باريس يتعفف عن هدايا الزائرين . فقد تلقى اليه قطع الحلواء فيتعامى عنها فى أنفة وكبرياء

وريش الطاووس مشهور بالحسن . ويكاد صدره يفعل بالناظرين ما تفعل الصهباء بالالباب . وليس شيء يجل عن الوصف بقدر ما يجل صدر الطاووس . والناظر الذى الف ذوقه أن يقتات من الحسن لايدرى كيف يواجه تلك الفتنة العجيبة التى وهبها الله لذلك الطائر العزوف

ولقد طال ارتيادى لوادى الطير فى حديقة النباتات ، وكان الطاووس فى كل مرة هو أفتن ما أرى . ولكن كان يضايقنى منه شيء واحد : هو تعقله . والتعقل هو أشد مايؤذينا من أهل الجمال

غير أنى دهشت فى الزورة الاخيرة : فقد رأيت الطواويس كلها فى فرح يشبه الجنون لتوديع الشتاء واستقبال الربيع . ولأول مرة رأيت كيف يعجب الطاووس بنفسه . وكيف يفهم أنه من أجمل المخلوقات : رأيته وهو ينشر جناحيه فى زهو واختيال ثم يدور على قدميه ليراه الزائرون من جميع الجوانب . وفى هذا ما يدل على أنه يشعر بجماله . وأنه بذلك مفتون

وله لحظات يقوم فيها برعشات كهربائية يسمع لهاصرير يشبه حفيف الريح بين الاوراق . وأقول يشبه فقط ، لان تلك الرعشة الكهربائية التى يقوم بها الطاووس تعرض على الناظرين ألواناً فتانة من ريشه الجميل . وهذا الجانب من زهو الطاووس يدق عن الوصف والتمثيل . ولا يدرك قيمته إلا من يراه . ولا يملك جمهور المتفرجين إلا جملة واحدة يكررونها فى تواتر وانجذاب ، إذ يقولون : ما أجمله ! ما أجمله !

الطاووس طائر دقيق الذوق . وله عواطف واهواء ، وهو فى عالم الطير يشبه الشاعر فى عالم الانسان

ليس للطاووس قلم يستهوى به أهل الجمال كما يفعل فريق من الكتاب والشعراء . وليس لديه قيثارة يغزو بها القلوب كما يفعل الموفقون من أهل الفنون . ولكنه يملك تلك الرعشة الكهربائية حين يبسط جناحيه ، فهو يتقرب بها الى من يهوى فى عالم الطواويس

فياليت شعرى وقد فهم كيف يكون الغزل ، أهو أيضاً يفهم كيف يكون الأسى وكيف يكون

الانين ؟ وهل كتب عليه يوماً أن يرى كيف تكون حسناته ذنوباً عند بعض الاسراب ؟

انى لاحنو على الطاووس . فهو فيما رأيت يعنى نفسه فى نشر محاسنه وتظهر فى سيماه علائم القلق فى سبيل الوصل . فان كان هو أيضاً يخفق كما يخفق بعض الناس فليست الدنيا اذن إلا دار شقاء للجميع !

بك بعض ما بى أيها الطائر الجميل . وليس لدى بعض مالديك من آيات الحسن والاشراق أنت تملك ذلك الريش الاخضر البراق . وأنا أملك ذلك القلم الاسود المقصوف . فيا بعد ما بيني وبينك حين تقوم النفائس والاعلاق !

كلانا غريب فى هذه الديار . ولكن الحسان تسعى اليك أسراباً اسراباً فى الضحى والاصيل . أما انا فأتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب ومن بستان إلى بستان . ثم أعود وليس لدى ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ما قال المعذبون من شعراء الوجدان !

وسلام الله على كل ساهر الجفن مفطور الفؤاد !

باريس في أول ابريل سنة ١٩٣١

ليالى سنتريس

ليالى النيل واللذات ذاهبة　　وجدى عليكن أشجانى فاضنانى

لو يرجع الدهر لى منكن واحدة　　فى سنتريس ويدنى بعض خلانى

اذن تبين دهرى كيف يرحمنى　　من ظلم همى ومن عدوان أحزانى

☆☆☆

كم ليلة فى جوار النيل ساجية　　قضيتها بين غادات وولدان

أعارض البدر فى اشراق طلعته　　بأغيد مشرق الاوصال ريان

وأستبيح من اللذات ما رسمت　　اهواء صب غوى اقلب شيطان

وأسلم اللوم تلحانى قوارصه　　اسراف لاه طروب الروح جذلان

☆☆☆

وذى دلال هو الدنيا وزينتها　　يردى الاسود بطرف منه نعسان

كأنما فعل عينيه بعاشقه　　فعل المدامة فى أعطاف نشوان

شربت من ريقه راحاً مشعشعة　　بجالس الحب لم تمزج بسلوان

وكم حبيب براح الريق أسكرنى　　وكم جميل بورد الخد حيانى

الادب والحياة

لا حياة للآداب العربية ما دام كتابها وشعراؤها وخطباؤها لايرون المرأة فى حرية وصراحة ولا يتأثرون بجبروتها فى ميدان الحياة

وما دام شباننا يسمعون عن المرأة كما يسمعون عن الغول والعنقاء. ولا يرونها حين يرونها الا قذرة دنسة فى بيوت الوجس والبغاء فهيهات أن تتفتح أذهانهم أو تزهر قرائحهم أو تظهر على آثارهم الادبية مسحة التيقظ والتفكير. وتلك الرءوس التى تتولى هداية الشرق فى هـذا العصر لا تدرى مع الاسف الشديد أن الصلة وثيقة بين الادب وبين الحياة ـ ان لم يكن الادب روح الحياة ـ وأنه لا أمل فى أن نرى لكاتب قصة جيدة مادام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة التى تلون الوجود بشتى الالوان، فتحيله تارة جحيما يرمى بالفزع والهول، ثم تعيده حين تشاء جنة وارفة الظلال. وكيف تكون لنا آداب قوية تمثل فضائلنا ورذائلنا وحلمنا وجهلنا وطيشنا ورزانتنا وعقلنا وجنوننا، ونحن نحرص على الطيبة والاستقامة فى غيرفهم ولا تبصر، أسوة بغلف القلوب من سماسرة الاديان وأدعياء الاخلاق!

إنه لا حياة للآداب الا اذا شغلتنا بأنفسنا، وحدثتنا عن مطامعنا وأهوائنا وعيوبنا ومظان الخير فينا. وأرتنا كيف نحب وكيف نبغض ومتى نقدم ومتى نحجم. وعلمتنا كيف نجد وكيف نلهو ومتى نقسو ومتى نلين ... أما الادب الذى يصدر عن رجل مشعوذ معتوه، كل احساس فى رأيه إثم وكل إدراك عنـده فسوق، فهو أدب ميت سخيف لا يقوى به عقل ولا يسمو به خيال (١)

فى سبيل المجد

جنت على الليالى غير ظالمة	انى لأهل لمـا القاه من زمنى
ف رأيت من الاخطار عادية	الا بنيت على أجوازها سكنى
ولا لمحت من الآمال بارقة	الا تقحمت ما تجتاز من قنن
أحلت دنياى معنى لاقرار له	فى ذمة المجد ماشردت من وسن

---

(١) مقتبس من مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره »

مذهب العلم الحديث في الدين وأصله[1]

بقلم الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

مقدمة في العلاقات بين العلم والدين

يقول اميل بوترو Emile Boutroux العالم الفرنسى فى كتابه « علم ودين » Science et Religion المطبوع فى باريس سنة ١٩١٧ ما يأتى :

« إن أمر العلاقات بين الدين والعلم حين يراقب فى ثنايا التاريخ يثير أشد العجب ، فانه على الرغم من تصالح الدين والعلم مرة بعد مرة ، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التى بذلوها ملحين فى حل هذا المشكل حلا عقلياً ، لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم الكفاح ولم ينقطع بينهما صراع ، يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فحسب . على ان هذين النظامين لم يزالا قائمين ، ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم ، فقد تحرر العلم من هذا الرق ، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك ، وأخذ العلم ينذر بفناء الاديان ، ولكن الأديان ظلت راسخة ، وشهد بما فيها من قوة الحياة عنف الصراع » صحيفة ٣٤١ - ٣٤٢

ولسنا نريد أن نعرض لتاريخ العلاقات بين الدين والعلم على مر العصور وما تناوبهامن سلام وحرب ، فان ذلك بحث يطول وليس هو مما قصدنا اليه فى هذه المحاضرات . على انه قد يكون غير خلو من المناسبة لغرضنا أن نشير الى موقف العلم والدين فى أيامنا هذه معتمدين على كتاب « اميل بوترو » المذكور آنفاً الذى يقول : « ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين ، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمى والروح الدينى . وليس يعنى العالم أن يكون الدين لا يثبت فى عقائده شيئاً غير متفق مع نتائج العلم ، فان هذه الدعاوى التى يجعلها الدين عقائد يتعلق الايمان بها تقيد الفهم والوجدان ، وهى فى الجملة تدل على اتصال الانسان بنوع من الاشياء يعجز علمنا الطبيعى عن إدراكه ، وفى ذلك ما يجعل العالم ، ان لم يرفض هذه الدعاوى نفسها ، رفض الاسلوب الذى يسلكه المتدين فى الأخذ بها ، والمتدين

(١) اخذناها من محاضرات القاها الاستاذ فى الجامعة الاميركية ببيروت

من ناحيته اذا وجد بجميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة بل مثبتة بالعلم يكون حينئذ أبعد شيء عن مسالمة العلم ، فان هذه الشئون إذا شرحت على هذا الوجه فقدت كل خواصها الدينية »

البحث في تحديد الدين وبيان أصله

١ ــ بداية الاهتمام بهذا البحث وصلة ذلك بتكون علم اللغات

ندع هذا الصراع وتاريخه لنتجه إلى ناحية أخرى من نواحي البحوث العلمية الحديثة فى الاديان ، هي التى نقصد الى دراستها وهى ناحية تعريف الدين

والمراد بتعريف الدين تعيين الخصائص التى لابد لكل دين منها ، والتى لا يسمى الدين ديناً إلا بها . والبحث فى تعريف الدين مرتبط أشد ارتباط بالبحث فى أصل الدين وجرثومته الأولى ، فان حقيقة الشيء هي العناصر المكونة له فى أبسط مظاهره ، وقد نهضت همم العلماء لهذا البحث منذ نحو قرن من الزمان

تكون فى القرن التاسع عشر علم اللغات وأدى تعاون الباحثين فى ألسنة البشر ـ منذ أحدث أدوارها إلى اقدمها أى دور التكوين الأول للغة ـ الى معرفة العناصر المؤلفة للغات الانسانية

هنالك رأى الباحثون أنه يمكن على هذا المثال ادراك عناصر الفكر الانسانى وجراثيمه دينياً كان ذلك الفكر أم غير دينى . أما ما وراء التكون الأول للغة فهو لايتصل بتاريخ الانسان وان كان مما يهم الباحث فى طبائع الاجسام

ذلك بأن الانسان هو اولا وبالذات مفكر ، واللغة أول مظهر من مظاهر تفكيره

ويزيد على ذلك « ماكس مولر » Max Mulluer فى كتابه « محاولة فى تاريخ الاديان » Essais sur l'Histoire desReligions قوله : « ويمكن ان يقال فى الدين ما قيل فى اللسان من ان كل جديد فيه فهو قديم وكل قديم فيه فهو جديد ، وانه منذ بداية العالم لم يوجد قط دين كله مبتدع . وإنا لنجد عناصر الدين وجراثيمه مهما سمونا فى تاريخ الانسانية الى أبعد مدى مستطاع ، وتاريخ الدين كتاريخ اللغة يرينا فى كل مكان الواناً متتابعة من التأليف المستحدث بين عناصر اصلية قديمة » . ثم يقول ماكس مولر : « وإنى لاشك فى أن يكون قد آن الأوان لوضع خطة ثابتة لعلم الدين كالخطة التى وضعت لعلم اللغة »

وإذا لم يكن تم وضع هذه الخطة لعلم الدين لعهد « ماكس مولر » فى أواخر القرن التاسع عشر فان علم الدين لما يقم إلى اليوم على خطة ثابتة . على ان جهود الباحثين فى تاريخ الاديان لا تزال متواصلة فى تعرف أصل الدين ووضع تعريف له جامع مانع على حد تعبير المناطقة

ولا يزال الباحثون منذ القرن الماضي يحاولون أن يضعوا للاديان شجرة أنساب كالتى وضعوها للغات

٢ ـ البحث اللغوى في المعاني المتعارفة للكلمة الاوروبية الدالة على الدين وفي أصل المادة اللاتيني

ومما استعانوا به على مقصدهم تعرف أصل المادة التى تدل على دين، وتتبع المعانى المعروفة لكلمة «دين» نفسها. والكلمة التى تقابل عند الأمم الأوروبية لفظ «دين» العربى هى «رلجيون» Religion المقتبسة من اللغة اللاتينية. وقد اختلفوا فى مبدأ الاشتقاق لصيغة «رلجيو» Religio اللاتينية، على ان اكثر المتقدمين يردها إلى مادة تفيد معنى الربط الشامل لربط الناس ببعض الاعمال من جهة التزامهم لها، ولربط الناس بعضهم ببعض، ولربط البشر بالآلهة

بل يحاول بعض متأخرى العلماء أن يجعل مأخذ الكلمة شاملا لمعنى الربط وما اليه كالجمع، هذا مع اختلاف الأقاويل فى اللفظ الاول الذى هو مصدر الاشتقاق

وكلمة «رلجيو» Religio اللاتينية تدل فى غالب استعمالاتها على معنى الشعور بحق الآلهة مع الخشية والاجلال. أما كلمة «رلجيون» Religion الحديثة فتطلق على معان ثلاثة:

١ ـ نظام اجتماعى لطائفة من الناس يؤلف بينها اقامة شعائر موقوتة وتعبد ببعض الصلوات وايمان بأمر هو الكمال الذاتى المطلق وايمان باتصال الانسان بقوة روحانية أسمى منه حالة فى الكون أو متعددة أو هى الله الواحد

٢ ـ حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن اعمال عادية تتعلق بالله

٣ ـ احترام فى خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة

ولعل هذا المعنى الأخير هو أقدم هذه المعانى. ولئن فصلت هذه المعانى ليسهل تحليلها فان الغالب ان يدل اللفظ عليها مجتمعة مع غلبة المعنى الأول فى بعض الاحوال، وغلبة المعنى الثانى أحيانا

٣ ـ مذاهب البسيكولوجيين في اصل الدين

وقد رأينا أن من معانى الدين المتعارفة معنى يجعله من موضوع علم الاجتماع، ومعنى يرده الى علم النفس. أما الذين درسوا أصل الدين من الوجهة «البسيكولوجية» فمنهم من يرى أن جرثومة الدين تتولد من الادراك المغروز فى فطرة الانسان للعلية والمعلولية بين الاشياء

ومنهم من يجعل أصل الدين شعور الانسان بانه تابع لغيره وليس مستقلا

ومنهم من يرد أصل الدين الى ما يلقى فى روع الانسان بالفطرة من وجود لا يتناهى

ومنهم من يرى أن الدين ينبعث من نزوع الى الزهادة فى الدنيا

ويقول بعض علماء النفس ان هذا الحدث من احداث الحياة «البسيكولوجية» ليس بسيطاً يمكن رده الى سبب واحد بسيط من هذه الاسباب

٤ ـ مذاهب الاجتماعيين

وأما علماء الاجتماع فهم يرون ان الدين لا يخلو من معنى العاطفة النفسية، ولكنه لا يخلو أيضا من الاتصال بشؤون الجماعة. بل ينتهى الامر بالعلماء الاجتماعيين الباحثين فى تاريخ الاديان وأصولها الى اعتبار الصبغة الاجتماعية فى الدين أقوى وأرسخ من كل صبغة سواها

مناظرة الهمذاني و « الخوارزمي » [1]

بقلم الاستاذ كامل كيلاني

أما أثر هذه المناظرة فى « الهمذانى » فقد أوجز « الثعالبي » فى قوله : « فلما تصدى الهمذانى لمساجلته ، وتعرض للتحكك به وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الاقبال على أموره ، ودرت له أخلاف الرزق ، وأجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجو للهمذانى »

وأما أثرها فى الخوارزمى ، فكان كما يقول الثعالبي نفسه : « أنف من تلك الحال ، وانخذل انخذالا شديدا . وكسف باله . وانخفض طرفه . ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره ونفذ قضاء الله فيه »

والحق أن هذه المناظرة كانت أشبه بمبايعة قهرية من الخوارزمى للهمذانى . فقد انتهت المعركة بمثل ماتنتهى اليه هزيمة الملوك ، وانتقل تاج الشهرة من رأس الى رأس ! ولعل أصدق مثل ينطبق على ماحدث بين الهمذانى والخوارزمى هو مثل السلحفاة والارنب المشهور ، حين تراهنا على السباق الى غاية ، فتهاون الارنب ــ اعتمادا على سرعته ــ وجدت السلحفاة لتعوض مافات من قوتها

فقد كان الخوارزمى ــ حينئذ ــ شيخا قضى عمره بين حل وترحال ، ومضى على غلوائه فى الاضطراب والاغتراب ــ كما يقولون ــ وشرق بعد أن غرب ، وخبر الدهر وأهليه ، وتعرض لكيد الرؤساء وغضب الزعماء ، فلما تصدى الهمذانى لمناظرته ــ وهو حينئذ فى سن الشباب استخف به ولم يعد العدة لمناضلته ، وكأنما كان يتمثل قول القائل :

« عذرت البزل إن هى غالبتنى   فما بالى وبال ابنى لبون »

ولم يكن زهد الخوارزمى فى مساجلته بأقل من دموع الهمذانى بها وتحرقه اليها . لانه كان يرى فيها أكبر فرصة للظهور . الا ترى إلى الهمذانى يبدأ بالتجنى على الخوارزمى وتقريعه واتهامه بالجفاء والكبر . فيرد عليه الخوارزمى رداً كريما يختمه باظهار خطأ الهمذانى فيما ذهب اليه من توهم الجفوة ، فلا يكون للهمذانى شاغل إلا استثارة الخوارزمى وتنقصه وعيبه ، فى كل ناد ومحفل مرتقبا الفرص لمناضلته وقهره ، ليصل بذلك الى الشهرة من أقرب طريق . فاذا بدا له أمل فى الاجتماع به ، حرص

(١) صفحات مقتبسة من مقال مسهب للكاتب

الهمذانى على تعجل الفرصة وسعى جاهدا إلى تحقيقها ــ خشية أن تفلت من يده ــ كما ينم على ذلك قوله : « واتفق أن السيد أبا على نشط للجمع بينى وبينه فدعانى فأجبت ، ثم عرض على حضور أبى بكر الخوارزمى فطلبت ذلك وقلت : « هذه عدة كنت استنجزها ، وفرصة لا أزال انتهزها »

فتجشم السيد أبو الحسين وكاتبه يستدعيه ، فاعتذر « أبو بكر » فى التأخر ، فقلت : « لا ، ولا كرامة للدهر أن نقعد تحت حكمه أو نقبل خسف ظلمه ، ولا عزازة للعوائق أن تضيعنا ولا نضيعها وتعيينا ولا ندفعها ، وكاتبته أنا أشحذ عزيمته على البدار ، وألوى رأيه عن الاعتذار ، وأعرفه ماقى ذلك من ظنون تشتبه ، وتهم تتجه »

وهنا يقول الهمذانى : « وقدنا اليه مركوباً لنكون قد ألزمناه الحج وأعطيناه الراحلة ، فجاءنا فى طبق أف ، وعدد تف

كل بغيض قده اصبع وأنفه خمسة أشبار ! »

ولم يكد يستقر به الجلوس حتى بدأ يستثيره الهمذانى ويتحرش به الى أن زج به فى ميدان المساجلة ، وأنشده الهمذانى أبياتا كلها تهكم به وزراية عليه وتنقص لأدبه

وقد أجاز الخوارزمى بيتا للمتنبى كما اجازه الهمذانى وعاب عليه الهمذانى ما فى نظمه من قافات مكروهة ، فلما بدأ الخوارزمى يعيب عليه قوله :

« يا أحمقا ! وكفاك ذلك خزية جربت نارمعرتى هل تحرق ! »

وينعى عليه صرف كلمة « أحمق » أمطره الهمذانى سيلا من السباب ، فقال : « وأما أحمق فلا نزال يصفعك لتصفعه ، حتى ينصرف وتنصرف معه ! »

ومن العجيب ان الهمذانى يسبه دون أن يقف فى سفاهته عند حد . ومن غير أن يراعى فصل الرجل أوشيخوخته ، ثم لا يخجل أن يقول له بعد ذلك :« ياهذا انالادب غير سوء الأدبوللمناظرة حضرنا لا للمنافرة ،فان نفضت عن هذا السخف يدك ، وثنيت عن هذا السفه قصدك ، والا تركت مكالمتك . . » الخ . فاذا انفض المجلس طفق الهمذانى يروج فى كل مكان أنه انتصر على الخوارزمى اىما انتصار ، وخذله أيما خذلان . ويرسل اليه ــ فى نفس الوقت ــ رسائلالشوقوالمجاملة والتحرق الى اللقاء . ويوفد رسلا يصلحونه وإياه ! ولكن الخوارزمى يبعث اليه من يقول له : « قد تواترت الأخبار وتظاهرت الآثار فى انك قهرت . ولاأشك فى أن هذ التواتر عنك صدرت اوائله . والخبر اذا تواتر به النقلقبله العقل.ولابد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء نتناظر بمشهد الخاصةوالعامة الخ..»

وإذن فقد بلغ الهمذانى إربته ، واهتاج الخوارزمى فاندفع الى طلب المناظرة ــ بلا تدبر ولا روية ــ فبعث اليه الهمذانى بكلام ظاهره اعتذار ، وباطنه احتثاث على المناظرة واستنفار اليها

ومرت الأيام ، ثم جاء اليوم المشهود ، وعقدت المناظرة فى دار الشيخ أبى القسم المستوفى الوزير ، بمشهد من القضاة والفقهاء والاشراف وغيرهم من سائر الناس. وهنا يبكر الهمذانى فى الحضور

ليتملق من حضر ويتردد الى الشهود ــ بكل ما فى وسعه ــ ويدبر خطط الدفاع والهجوم تدبير الحاذق الذكى

قال : « وكنت أول من حضر ، وانتظرت ملياً حضور من ينظر الخ . » فاذا رأى من بعض الحاضرين شيئاً من الانحراف عنه ، تقرب اليه متملقاً ، كما فعل مع الشريف السيد أبى الحسين ــ حين رأى منه جانب الاعراض ــ فقال له من كلام طويل :

« فان كنت أبلغت غير الواجب ، فلا يحملنك على ترك الواجب ، ثم ان لى فى أهل الرسول (صلى الله عليه وسلم) قصائد سارت فى البلاد وطارت فى الآفاق ، ولكنى أتسوق بها لديكم ، ولا أتنفق بها عليكم ، وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين ادخرتها لا للدنيا ! »

فقال للهمذانى : « أنشدنى بعضها » فأنشده الهمذانى شيئاً مما قاله ، فاذا حدث ؟ نترك للهمذانى نفسه روايته ، فهو يقول : «فلما أنشدت انحلت له العقدة ، وصار سلماً ، يوسعنا حلما . الخ . » وبذلك أصبح الشريف من أنصار الهمذانى ومؤيديه . وجاء الخوارزمى ــ بعد أن تكامل العدد وتمت المؤامرة ــ فقوبل بفتور . ولم يكد يجلس فى مكانه الجدير به حتى طلب اليه الهمذانى أن يتخلى عنه الى غيره ، ووافقه الحاضرون على لباقته وحذلقته . ولقد أخطأ الخوارزمى أشنع الخطأ حين رضى بالبقاء والمناظرة فى مجلس مشبع بروح الخصومة واللدد . وليته اتبع قول ابن المقفع فى وصف صديق حازم : « وكان لا يدلى بحجته حتى يجد قاضيا فهما وشهوداً عدولا » اذن لأمن عواقب هذا الاندفاع والتسرع ، ولكن :

« ألا يا قوم للعجب العجيب   وللغفلات تعرض للاريب »

ولكن كيف انهزم الخوارزمى فى المناظرة ؟ ليس لدينا غير مصدر واحد نعتمد عليه فى ذلك هو رواية الهمذانى نفسه ، وهى رواية خصم عن خصمه لا تقابل بغير الحذر والانتباه . وقد تعمد « الهمذانى » ــ بلا شك ــ أن يسجل فيها انتصاره مضاعفاً ، بأسلوب جديد من أقوى أساليب الدعاية . ولو كان لدينا مصدر آخر لتكشفت لنا جوانب كثيرة تعمد الهمذانى ــ بلا شك ــ أن يخفيها عنا ، ليزعم لنفسه الفوز كاملا والانتصار حاسما . على أننا نلمح فى كلام الهمذانى نفسه انه قد انتصر على الخوارزمى انتصاراً ، الهزيمة خير منه

وقد ذكرنا للقارىء طرفا من تلك الاساليب العجيبة التى سلكها الهمذانى للتغلب على خصمه الخوارزمى الأديب الكبير وابن أخت « الطبرى » المؤرخ الكبير . وهى أساليب نعدها دروسا قاسية فى التهافت المستنكر على الشهرة وعواقبه ! . فقد رأيت انه لم يدع وسيلة من وسائل التهويش وتملق الحاضرين وارضائهم الا أتاها . فلما انتهت المناظرة وأراد تسجيل ماحدث فيها ــ كماشاء له الهوى ــ طفق يكيل المدح كيلا لكل من له خطر من الحاضرين حتى يأمن أن يكذبوه فى شىء مما رواه . وطفق الهمذانى وأنصاره وخصوم الخوارزمى يذيعون فى كل مكان أن الخوارزمى قد انهزم شر

انهزام .ولكن هل كانت الهزيمة حاسمة ؟ ذلك ماترتاب فيه رغم مايؤكده لنا الهمذانى ، اويصوره لنا فى روايته التي ليس لدينا مصدر سواها . ونحن نعتقد أن الهزيمة ــ ان كانت ثمة هزيمة ــ لم تكن وسائلها شريفة ، وليست تنقص من فضل الخوارزمى ، فقد كانت كل كلمة يقولها « الهمذانى » تقابل بالاستحسان ويعرب الحاضرون عن رضاهم عنها بالقول والاشارة وانبساط الاسارير . وقد أحسن الخوارزمى فى وصف خصمه بالشعبذة فلم يعن أحد بقوله . مع أنه وصف صادق لادب الهمذانى ــ فى ذلك الحين ــ فقد طلب من مناظره مثلا : أن يكتب كتابا خاليا من الحروف الدواطل، وآخر أوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها جيم ، الى آخر هــذه الامور التى لانرى فى وصفها أصدق من كلمة الشعبذة

الشتاء في باريس

بقلم الدكتور بشر فارس

رُبَّ فجرٍ تسوّر الـ ... همُّ فيه الى الفضا
فنضا الكون من صبا ... حَةِ جنبيْهِ ما نضا
وانزوى البلبل اللعو ... ب عن الورد معرضا
حسِب الوردُ أنه ... مال وارتد مبغضا
فذَوَى مطرقاً عبو ... ساً وسرعان ما قضى
غضٌّ من سَيْرِهِ النسيمُ ... وقد رنَّ مُرْمِضا
كفن الوردَ بين أعـ ... طافهِ ثم أعرضا
وإذا البلبلُ انبرى ... موجَعَ الجنبِ ممْرَضا
لثم الوردَ نادماً ... ثمَّ في فيصه مضى (١)

---

(١) مضى في فيض فلان أي شيع جارته

الطابع العلمي (١)

بقلم الاستاذ فؤاد صروف

ما الغرض من التعليم والتهذيب ؟ لماذا ننفق الاموال ونشيد المعاهد ونستدر اكف المحسنين ، ونقضي الاعوام نذوق في خلالها صنوف الآلام العقلية ، ثم نخرج من المدرسة ونحن ندرك ، إذا كنا على شيء من العقل ، مدى جهلنا ؟ ما الغاية التي يرمي اليها الطالب وأبو الطالب ، بل ما الغرض الذي يبغيه الرئيس والاستاذ ؟ ألكسب يبغي الاول العلم أم للزينة أم للمقام الاجتماعي أم للنفع العام ؟ وهل يطلبه الثاني لتقويم الاخلاق أو لاخراج عمال للحكومة أو لاعداد جنود للوطن أو معلمين للمدارس أو تلاميذ يذيعون فكرة ويروجون لدعوة ؟

من الواضح ان نوال التعليم يختلف باختلاف الغرض منه . ما أكثر الاغراض وما أعظم الاختلاف بينها ! فالمربي الانكليزي المشهور ــ الدكتور ارنولد ــ كان يرى الوداعة العقلية غاية التعليم القصوى . وهي صفة لن تستطيع العثور عليها في « رجل أرسطو العاتي » إن غرض نيتشه يختلف عن غرض المعلمين المسيحيين ، فهو يربي « للقوة » وهم يربون « للمحبة » ! ثم ان الالمان والايطاليين واليابانيين يرون في كل طالب جندياً يناضل في سبيل الوطن ، والاميركيين يطلبون « النجاح العملي » ، والانجليز الدقة في تأدية الواجب على حساب الذكاء ، حتى إذا اتفق الباحثون على العناصر التي يجب أن يشتمل عليهما الخلق الكامل ، اختلفوا في نسبة هذه العناصر بعضها إلى بعض . فالواحد يقدم الشجاعة والاقدام على الحرص . والثاني يطنب في القوة العقلية . والثالث يضع الدعة واللطف في المقام الاول . والرابع يرفع الواجب نحو الامة فوق الواجب نحو الذات . فعلينا ان نعرف الغرض الذي نرمي اليه معرفة واضحة الحدود والمعالم لكي نتمكن من السعي الى تحقيقه سعياً مجدياً



كان النشاط العقلي والجسدي أظهر الصفات في رجل اليونان الامثل . وكان التراخي الجسدي ، والتفكير الذي تغلب عليه صفة التأمل الهادىء ، اظهر الصفات في رجل الصين الامثل . فكان السياسي اليوناني إذا غلب على أمره في بلده وطرد منه لا ينزل على حكم الدهر عليه . بل يتزعم حفنة من المشردين امثاله ويصلي الجماعة التي أذلته نار الحرب . أما المثقفون الصينيون فكانوا اميل إلى التأمل

(١) اختارها الكاتب من محاضرة القاها في جامعة بيروت الاميركية بدعوة من جمعية « تهذيب الشبيبة » سنة ١٣٣٠

والتشكيك والتمتع بمجالي الجمال الهادىء . وكان موظفهم اذا خرج من منصبه ينطلق إلى عزلة على قمة جبل لينظم اشعاراً في مسرات الحياة القروية

فالتعليم الصيني أنتج «استقراراً» . ولعل هذا ما ينتظر من تعليم قائم على الريبة والشك . وأما التعليم اليوناني فانتج تحولا وحرباً ، لان المعتقدات التي نعتقد في صحتها بكل جوارحنا ونؤيدها بكل قوانا ، لا تحملنا على الاستقرار بل تدفعنا الى الكفاح في سبيلها . لذلك قضت الحضارة اليونانية على نفسها بايدي أبنائها . أما الحضارة الصينية فاستقرت على ما هي عليه آلاف السنين ولا تزال تنتظر من يقضي عليها من الغرب أو من أبنائها المثقفين بأساليب الغرب

وكان التعليم اليوناني جرثومة الحضارة الغربية الحديثة ، حملها العرب بعد ما تعهدوها بكل أساليب العناية والنماء ، حتى اتصلت أخيراً باليابان ــ جارة الصين ــ فجعلها اليابانيون أساساً لنهضتهم الحديثة ، ولكنهم جعلوا «المجد القومي» غرضاً لهذا التعليم الدينامي ، فاخضعوا له كل قوى التلميذ الجسدية والعقلية والروحية

وكلا الموقفين ــ أي كلا التعليمين ــ تعليم الصينيين في الطرف الواحد وتعليم اليابان في الطرف الآخر ، خطر على العمران الحديث . فالاول يتمادى في التشكيك والريبة حتى يفضيا به الى الجمود ، والثاني يتمادى في التحكم والايمان بتحكمه وقوته حتى يصبح أبناؤه وهم كالقنابل المنطلقة

أما والارتقاء المتزن هو غرض الحياة الاسمى ، فالتمادي في التشكيك المفضي الى الجمود ، لا يجدي نفعاً في ميدان كفاحها . أما وقد أصبح العمران بفضل العلم والصناعة معقد التركيب محكم الترابط دقيق الاحساس ، فالتمادي في التحكم ــ الذي يجعل الثورة والحرب سبيل الارتقاء الوحيد ــ مبعث خطر يهدد الحضارة بالانقراض

فغرض التعليم يجب أن يكون : «الايمان بأن الحصول على المعرفة مستطاع الى حد ما ولكنه صعب كل الصعب . وان جانبا كبيراً مما نعرفه أو نحسبه معرفة يحتمل أن يكون خاطئا . وأن هـذه الاخطاء تصحح بالاختبار والدرس . كذلك علينا أن نعلم الطالب أنه حين ينطلق في عمله اليومي ، لتحقيق رغائبه ، يجب أن يكون بالغ الحـذر ، حيث يحتمل أن يكون الخطأ اليسير باعثا على ضرر عظيم . ومع ذلك فلا بد أن تكون غرائزنا ورغائبنا أساسا لكل اعمالنا . وهذه الحالة العقلية ــ حالة الحذر الدائم واليقظة المستمرة لحفظ التوازن بين ما تقضي به النوازع وما عليه العقل ــ حالة دقيقة كل الدقة . انها تحتاج الى أعظم جانب من ثقافة العقل ورياضة النفس . ولكنها على دقتها غير متعذرة على من يرضى ان يبذل في سبيلها جهداً خالصا . هي في الواقع الطريقة العلمية ، بل هي صميم الطابع العلمي

«ان المعرفة كـكل اطايب الحياة صعبة المنال . ولكن مناها ممكن . اما المتحكم فينسى "صعوبة . واما المشكك فينكر الامكان»

فى استقبال سعد

خطبة للسيد محمد الغنيمي التفتازانى

يا سعد

حيتك دنيا مصر ، فليحيك باسم أولاد الرسول وحفدة البتول واحد منهم

يحييك معجباً بما أسلفت لوطنك العزيز من جهد لا يذهب خيره ولا يضيع عند الله ولا عند الناس أجره ، ذا كراً لك مواقف تكشفت منك عن عزمة وجلادة وصلابة إرادة

أيها الرئيس الجليل

لقد كنا نتتبع ما يطالعنا به البرق والبريد معا من أنباء جهادك ، فاذا دعوت آمنا ، واذا صرخت لبينا ، مخلصين فى ذلك كله للوطن ، متمنين النجح لأوطاننا العربية جميعا ، لأن الاسلام لا يعرف وطناً ولا اقليما ، وانما هو وطن شامل لجميع أهله ، والعربية كذلك تجمع شتات الناطقين بها دون تفريق بين دين ودين ولا تمييز بين فريق وفريق

وحسب المتجرد لعقيدة ينصرها أو لمبدأ يدين به ما يحسه من الغبطة بالفناء فى عقيدته أو مبدئه فناء كما يعرفه أئمة الصوفية يمحق الأنانيــة الفردية ويبقى على الروح التى هى المظهر الاقدس للموجود الأول

ذلك لان ماقد نصل اليه بالصبر من النجح فى القضية المصرية يعتبر نجحا وفوزاً للشرق كله . وما مصر الا تاجه الوضاء ومناره الهادى وسجل مجده وفخاره

أيها الرئيس الجليل

ليهنك يوم لم تطلع مثل شمسه على ملك من الملوك الصيد ولا على فاتح من ذادة الثغور . ولو أتيح مثله لبعض المشترعين لكفل لهم بقيا شريعتهم ولضمن لهم خلودها . ولو طلع مثله بما كان لك على أحد من هداة آل البيت عليهم السلام فى ابان دعوتهم وجدة أمرهم وزهو طالعهم ، لكان من خلفهم الآن المتوجون عن رضى يدين به المسلمون ، ولتربع فى دسوت رعاية البشر منهم الآمرون والناهون . وها نحن الآن وقد نقشنا صورتك الشيخة الفنية على صفحات مهجاتنا نقش المدى على رقاق الاكباد محوطة بآية من كتاب الله الكريم نزلت فى اسلاف آل محمد عليهم السلام وهى لك اليوم : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً »

واشد ما كنا نغتبط بما تحرزه من الفوز فى ميادين النضال السامى ! لأن هذا الفوز ليس ...

رجع أمره الا فوزاً للامة التى تمثلها أنت وموكلوها من أعضاء وفدها

لقد جدت الامة على أن يكون وفدها هو الناطق بلسانها . وعبثاً حاول اللورد ملنر أن يصل إلى بغيته من مفاوضة أحد من رجالها ، ورده الكل إلى الوكيل المفوض ، مبينا له أن الوفد وحده هو صاحب الحق فى التحدث عن القضية المصرية جملة وتفصيلا . وما كان أشد اغتباطنا يوم ترامى الينا أن الوفد الذى هو فخارنا القومي نزل عند رأى الامة فى تحفظاتهـا على تقرير لجنة اللورد ملنر وتحامى أن يزج بنفسه فى مفاوضته على غير وضح رأى الامة !

أجل أيها الرئيس الجليل

انا انما نغتبط بأن يكون الوفد كما تريده الامة مرجعاً لقضيتها وحكما لاطرفا فى هذه القضية . ولو أن التحفظات قبلت من الطرف الآخر لكان هذا القبول داعيا إلى امضاء المعاهدة . ولكن لابد أن تكون هذه التحفظات موضع بحث إلى جانب اندادها من الضمانات التى يطالب بها الخصوم. وما دام مرجع الأمر الى الاقناع والاقتناع فستكون محبتك هى الظافرة حين الرجعى الى قويم رأيك . ولا أظن دليلك على احقاق الحق الا موفقا حين يلجأ الى قويم حكمك

أيها الرئيس الكريم العظيم

انك ووفدك مأمونو الايراد والاصدار بعيدون عن كل ظنة ، ولذلك كان الاعود على كرامة الامة بالتوقير والاجدى على الوطن بالاكبار والاليق به اعتزازاً ، أن تتلاحم الصفوف ، وأن تتناسى الاحن وتختفى الاحقاد ، وأن يشد الله بك وبأصحابك العضد ، حتى نصل إلى غايتنا من السيادة والحرية فى بلادنا

وهنا يجب أن ألبى داعى الله عند قوله الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . يجب أن يتناصح الجميع تناصحا ينتفى به الزهو ، وتمحق به الكبرياء ، لنكون جميعاً ادنى الى الصواب منا الى الخطأ

أيها الرئيس الجليل

ان مصر طواعية لا كراهية ، مدفوعة بدافع الحب والاحترام ، لا بدافع الرغبة والارغام ، قد استحالت كلها مظاهرة ، وحفت من حولك تستقبلك وتحييك وتهنئك بتوفيق الأوبة السالمة وتفديك ، ثقة منها بسداد رأيك ونقوب ذهنك ونبل مسعاك . فكن لها كما خلقت عارياً من كل ثوب الا مجدها مجرداً من كل نصير الا جندها

وقد عانت مصر من آلام فرقتك فى سبيل نصرة قضيتها من الصبر على بلاء العاصين الظالمين ماوكل الى الله أن يعوضها منه الامن والطمأنينة ، وأن ينشر فى ربوعها العدل والسكينة . وقد أصبحت مصر ولله الحمد والمنة وليس تحت سمائها من أهلها من لا يعمل لاعلاء منارها

شعر الاخاء والاخوان

من مقال للاستاذ عبد الله عفيفى

الاخاء والاخوان

وذلك فن من الشعر قال فيه المصريون عن علم ، وقالوا عن عقيدة ، وقالوا فيه عن فطرة ووجدان

والمصرى اليف بالطبع ودود بالفطرة ، أنيس بالغريزة . يوثق حبل الاخاء ويستوثق به ، ويصفيه ويصفو له ، ويجتليه ويحن اليه

لذلك قال الشعراء المصريون أحسن ماقيل فى مواتاة الاخوان ، وفى معاتبة الاخوان . وفى شكوى الاخوان . لأن الرجل الصافى الأليف يكثر الشكوى والعتاب اذا لمح ظلا من نبوة الود وتبين أثراً من انحراف الصدق

وحديث الاخاء والاخوان فى العهد الفاطمى حديث شائق طريف . فيه متعة للنفس وفيه راحة للروح . وفيه فرجة للصدر ، وفيه ظرف وأدب ، وفيه علم وفن ، وفيه ايضاً اذكاء للحزن وتهييج للحسرات على ما نراه من فساد الاخاء والاخوان فى هذا الزمان

والحق انى ماقرأت حديث الاخاء فى الشعر الفاطمى ، وما ذكرت تآلف الناس وتواصلهم أفراداً وطوائف ، وفرقاً وجماعات فى ذلك العهد الذى باد اثره وانقضى خبره - إلا أحسست لوعة مبثوثة من الحزن على ما أجد من الغل والحقد والفساد والشنآن فى اخوان الزمان

ان اكثر ما قيل من الشعر الفاطمى قيل فى وصف الاخوان ، ومدح الاخوان ، وموادة الاخوان ، ودعوة الاخوان للاخوان . فاذا التقوا تذاكروا الشعر وتجاذبوا الشعر ، فكان للروية منهم نصيب وكان للبديهة منهم نصيب

وكانوا لا يلتقون الا على بساط روض او تحت ظلال دوح أو فى رحاب مسجد أو منازه دير أو على شاطىء بحر او نهر او بركة أو غدير . وفى كل موطن من تلك المواطن يموت الحقد وتفنى الضغينة . وفى كل بقعة من تلك البقاع يفيض الشعر وتثمر القريحة . وهم من انفسهم وافئدتهم فى روضة زاهرة بالالفة مثمرة بالاخاء لا يعصف بها الاثم ولا تعبث بها الاهواء

والعهد الفاطمى عهد المواسم والاعياد . فما كان الناس فى القاهرة يفضون من عيد الا الى موسم ، وما كانوا ينتقلون من موسم الا الى عيد ، وفى هذه المواسم والاعياد كان الناس يجدون

فنونا من الأنس والبهجة والسرور تروح عنهم ما كانوا فيه من عمل دائب وجهد شديد ، وكان الخليفة او نائبه يستقبل الناس فى هذه الاعياد طوائف وجماعات ، وكان الشعراء أكثر الناس ابتهاجاً وأوثقهم ألفة واجتماعا وأخصبهم نجعة وارتياداً فى هذه الايام . فقد جرى بعض خلفاء هذه الدول على تسجيل صور الشعراء ومراثيهم وأعطياتهم فى ديوان خاص . وانما حدثتك هـذا الحديث لتعلم أن طبيعة الحياة فى ذلك العهد الكريم كانت تدعو الى توثيق الالفة وإحكام أواصر الاخاء بين الاخوان

أما الآن ، وقد طغت المدنيـة المادية على العقول والقلوب ورانت الشهوات المادية على العقائد والآراء ، واستذلت المطامع والمنازع أعناق الرجال ، فأين تجد الصفاء والاخاء ؟ وممن تطلب المودة والوفاء ؟ !

وفيم يجتمع اخوان هذا الزمان ؟ ! أهم يتذاكرون الشعر ويتجاذبونه . ؟ أهم يتناقلون الادب ويتسامرون به . ؟ أهم يتعاونون على غوث اللهيف وعون الضعيف من اخوانهم أو على رعايته فى أهله وبنيه ان كان مات عن أهل وأبناء . ؟ . . . لا . . لا هذا ، ولا بعض هذا ، ولا ما يشبه أن يكون ذلك

هم لايتذاكرون الشعر ، ولا يتناقلون الأدب ، ولا يتعاونون على البر والتقوى ، وإنما يجتمعون ليعبث الحاضر فى الغائب ، ويسطو الفاحش على الوادع ، فاذا نهض من جماعتهم واحد كان ذلك الواحد المسكين هو الغرض الذى يتعاورونه ويتعاونون عليه

أشد ما تحتاج اليه جماعات الاخوان فى هذا الزمان : النبل ، والرجولة ، وعفة الغيب ، ونقاء الصدر ، وصفاء الضمير ، وان أكبر عيبك عند أحدهم أو عند جماعتهم أن يرزقك الله نباهة فى الاسم ، أو كرامة فى المنزلة ، أو اقبالا على جد العمل ، فهو يرى من حقه ومن واجبه أن يدافع تلك النباهة بالـكذب والوقيعة ، وأن يصيب تلك الـكرامة باللغو والمفسدة ، وان يكدر ذلك العمل الجاد باللغط والبهتان . ولقد تصاحب الرجل عشرين عاماً أو تزيد ، ثم تتركه خمسة أيام أو تنقص ، فاذا به قد عاث فى غيبتك وولغ فى كرامتك ، ومد لسانه كشباة العقرب يطعن به الاديم الصحيح وينفث به السم الدفين

أساس هذا الضيق فى الخلق ضيق الاجتماع . فالرجل عندنا اما لزيم النساء فى المنزل يجاذبهن الحديث عن طول امرأة وقصر أخرى ، وعن نصفة امرأة وخيبة أخرى ، وعن الخلاف الذى شجر بين امرأة وأخرى . واما رهين المشارب العـامة المنثورة فى أحياء المدينة وعلى مفارق طرقاتها حيث الضجيج واللغط والضيق والزحام وفساد الجو واختلاط الجماعات . فاما منازهنا ومراتعنا وفسحات وادينا ومسارح نيلنا فقد خلق كله لغيرنا

فى تأبين امير الشعراء

من قصيدة للاستاذ بشاره الخورى

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره ... فسدرة المنتهى أدنى منابره
وامسح جبينك بالركن الذى انبلجت ... اشعة الوحي شعرا من منائره
إلهة الشعر قامت عن ميامنه ... وربة النثر قامت عن مياسره
والحور قصت شذورا من غدائرها ... وارسلتها بديلا من ستائره
أتراب مريم تلهو في خمائله ... ورهط جبريل يحبو في مقاصره
والملهمون بنو هومير ما تركوا ... لما أهل لهم سجعاً لطائره

* * *

قال الملائك من هذا فقيل لهم ... هذا هو الشرق هذا ضوء ناظره
هذا الذي نظم الارواح فانتظمت ... عقدا من الحب سلك من خواطره
هذا الذي رفع الاهرام من ادب ... وكان في تاجها اغلى جواهره
هذا الذى لمس الآلام فابتسمت ... جراحها ثم ذابت في محاجره
كم فى ثغور العذارى من بوارقه ... وفي جفون اليتامى من مواطره
سل جنة الخلد كم ودت أزاهرها ... لو استحالت عبيراً في مجامره
وصادح الطير لو سالت حناجرها ... مع الصباح نشيداً فى مزاهره
والزهر لو كن ازراراً مفضضة ... على الذيول الضوافى من مآزره
شوقي سلوا الافق هل ثارت عجاجته ... لما نوى المتنبي في مغائره
شوقي سلوا البحر هل جنت عواصفه ... لما كبا بابن سينا جد عاثره
شوقي سلوا الليل هل كانت كواكبه ... لما قضى غير شوك في نواظره
في مأتم الشعر والاقلام مطرقة ... فان ارادته غصت في محابره
ما بلدة سعدت بالنهر يغمرها ... بكل أزهر حالى العود ناضره

بالبلبل المتغني في ملاعبه والسنبل المتثنى في غدائره
بالحقل ترعى به القطعان هانئة والنحل يرضع من ثديي أزاهره
يستقبل الفجر أهلوها بغرته ويغرقون الليالى في سرائره
ناموا على سرر الاعراس وانتبهوا على صباح بكى الطرف غائره
على ما تم من طير ومن شجر خرساء كالقبر غرقى في دياجره
يا للرزية ! . . غال النهر غائله وغار في لهوات من هواجره
فلا الصباح ضحوك في شواطئه ولا المساء لعوب في جزائره
وأسلم الزهر أجيادا منضدة للشوك جفت على دامي أظافره
والناس في غمرة عمياء لا وتر لناشديه ولا نجم لسامره
ما الخطب بالنهر مجرى الروح في بلد فرد رقيق حواشي الذكر دائره
كالخطب يدوى له كون بجملته اذا أصاب الردى شعباً بشاعره

* * *

يا مصر ما انفتحت على حسن إلا وأطلعت الفاً من نظائره
ولا تفتقت الافكار عن أدب إلا وأنبت روضاً من بواكره
لبنان يا مصر مصر في مآتمه كما علمت ومصر في بشائره
هل كان قلبك إلا في جوانحه أو كان دمعك إلا في محاجره
أو كان منبت مصر غير منبته أو كان شاعر مصر غير شاعره
شوقى أتذكر اذ عاليه موعدنا عنا وما نام دهر عن مقادره
واذ طلعت علينا أصفرا وجلا كالنجم خلف رقيق من ستائره
ونحن حولك عكاف على صنم في الجاهلية ماضى البطش قاهره
وأنت تحت يد الآسى ورأفته وبين كل ضعيف القلب خائره
ولابتسامتك الصفراء رجفتها في مثلها من كليل الطرف حائره
سألتنيه رثاء خذه من كبدى لا يؤخذ الشيء الا من مصادره

تجارة مصر قبل الحملة الفرنسية [1]

بقلم الاستاذ احمد حافظ بك عوض

لم يكن من الممكن مع حكومة كحكومة المماليك أن تنمو التجارة ، أو تتسع المعاملات الداخلية والخارجية ، وقد سبق لنا أن شرحنا فى هذه المقدمة أن مصر لم تعد بعد طريق التجارة الشرقية القادمة من موانئ آسيا الى أوربا ، بعد أن اكتشف طريق الرجاء الصالح . ولو كانت على ضفاف النيل حكومة عادلة ، لفضل التجار ارسال متاجرهم عن طريق البحر الاحمر ، ونقلها من السويس الى الاسكندرية بدلا من تعرضها لاخطار البحار العظمى حول افريقية وواسع المحيط الاطلانطيقى (وسنزيد هذه النقطة ايضاحا عند الكلام على تجارة الهند) . . ولو أن الحكومة العثمانية ، بعد فتح مصر ، فكرت فى صالح نمو التجارة ، وقدرت خسارة مستعمرتها الجديدة ، من اكتشاف طريق الرجاء الصالح ، خصوصاً وقد حاربت بأساطيلها البرتغال الذين كانوا يهددون تجارة مصر ، كما سبق لنا بيانه ، نقول لو أن الحكومة العثمانية فكرت فى هذا الامر ، وأعادت حفر خليج أمير المؤمنين (الذى احتفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب لنقل المؤونة الى الحجاز ، والذى أمر بردمه ، فى سنة ١٣٤ هجرية ، الخليفة المنصور أبو جعفر ثانى الخلفاء العباسيين لكى يمنع وصول الامداد الى العلويين الذين طالبوا بالخلافة فى المدينة المنورة) ـ لسهلت للتجارة النقل بحراً من الهند الى أوربا ، عن طريق مصر . ولكنهم لم يفعلوا هذا ، ولم يتمكنوا من نشر سيادتهم البحرية فى المياه الهندية . وزد على ذلك أن مظالم المماليك وتعديهم على التجار الاوربيين الذين كانوا يأتون لشراء حاصلات مصر ، وما يصل اليها من الممالك الشرقية الاسيوية بطريق القوافل ، كانت من أكبر الضربات على التجارة المصرية . ولقد انحط مقام الاسكندرية حتى لم يبق فيها من السكان إلا ثمانية آلاف وزاد الطين بلة فيها أن الحكومة العثمانية احتكرت لنفسها الجزء القديم من الميناء وهو الجزء الذى يصلح لرسو السفن . فكانت السفن الاجنبية القادمة بالمتاجرة وللشراء مضطرة أن ترسو خارج الميناء الجديد معرضة للروابع والزعازع . وروى مؤرخو الافرنج (فى سنة ١٧٦٦) أنه بينما كان على بك الكبير يحارب الدولة هبت ريح عاتية أغرقت اثنتين واربعين سفينة كانت راسية فى ميناء الاسكندرية ولم تكن الاسكندرية متصلة بالنيل بقناة تنقل لها الماء العذب ، وكانت هناك قناة مرسومة فى الخرائط الفرنسية وهى الترعة المسماة بالمحمودية ، نسبة الى السلطان محمود ، ولكن

(١) اخترناها من كتاب « فتح مصر الحديث »

اما كانت توصل المياه إلا زمن الفيضان فقط ، فكان اعتماد سكانها على مياه الامطار

وحاول جماعة من تجار الانكليز تسيير القوافل بين السويس والقاهرة لنقل المتاجر الهندية الى عاصمة القطر ، ثم نقلها بواسطة النيل الى دمياط أو رشيد . ولكن مظالم المماليك وتعدى العربان على القوافل أوقف تلك المشروعات التى كانت تساعد على نمو التجارة المصرية . وليست هذه الاقوال لكتاب أوربيين حتى يتهموا بالتعصب لقومهم ، فان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى يقول فى ترجمة مراد بك : « فأحدث المترجم ديواناً خاصا بثغر رشيد على الغلال التى تحمل الى بلاد الافرنج وسموه ديوان البدعة . واذن ببيع الغلال لمن يحملها الى بلاد الافرنج وغيرها . وجعل على كل أردب ديناراً خلاف البرانى (يعنى الرشوة والمغارم) . والتزم بذلك رجل من أعوانه الموصوفين بالجور وسكن برشيد وبقيت له بها وجاهة وكلمة نافذة ، فجمع من ذلك أموالا وايراداً عظيما . وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس وطمعهم فى الاقليم المصرى . بعد ما أضيف الى ذلك من أخذ أموالهم ونهب تجارتهم وبضاعتهم ، من غير ثمن . واقتدى به أمراؤه (أمراء مراد بك) وتناظروا فى ذلك وفعل كل منهم ماوصلت اليه همته واستخرجته فطنته » وقال عنه أيضا: « واختص بالسيد محمد كريم السكندرى ورفع شأنه بين أقرانه فمهد له الامور بالثغر وأجرى أحكامه به . وفتح له باب المصادرات والغرامات ودله على مخبآت الامور ، وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الافرنج . حتى تجسمت العداوة بين المصريين والفرنسيين » الخ . وقال فى ترجمة السيد محمد كريم المذكور : « وقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك بالثغر فزاد فى المكوسات ومصادرات التجار ، خصوصاً الافرنج »

ومن رأى « جودت باشا » فى تاريخه أن الذى دعا الفرنسيين للحملة على مصر هو ما أتاه المعلم نقولا النصرانى الذى جعله حسن باشا قبودان رئيساً للقلونجية (البحارة) فى الترسانة التى شادها هذا بالجيزة لانشاء السفن . فانه بعد أن اشتد نفوذه وعظم شأنه أكثر من التعدى على سفن الأسلام والافرنج معا . وكانت نتيجة ذلك كله أن مصر تدهورت الى هوة الخراب الاقتصادى الذى تجرعت منه الامرين . وقاسى منه أهلها الجوع والعراء والمظالم نحو ثلاثة قرون من الزمان . حتى اضمحل شأنها وفقدت منزلتها التى كانت لها فى العالم القديم والحديث . وحتى هجرها أهلها ، وهى البلاد التى لايحب أهلها هجرها . ولا غرابة أن تتضاءل مصر فى ثلثمائة عام حتى تعود خيالا لما كانت عليه من قبل . وحتى ينقص عدد سكانها من نحو ١٥ مليونا الى نحو مليونين ونصف . ولكن بالرغم من كل هذا فانه بقيت لمصر تجارة ترد اليها بالقوافل من اليمن وبلاد الحبشة وسوريا شرقاً ، وطرابلس وتونس والجزائر والصحراء غربا . فكان يرد من اليمن البن وبهارات الهند والاقمشة الهندية الجميلة . ويرد من الحبشة الصمغ والعاج والريش . ومن دمشق الاقمشة الحريرية المشهورة . ومن بلاد الغرب والصحراء الصوف والجلود والتمر وما أشبه ذلك

العبقرية

بقلم الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

ليست العبقرية في بيت أحكم سبكه ، وفصح لفظه ، وبلغ إيجازه ، وآنس السمع مجازه ، وأضاء كالشمس معناه ، وساق مثلا ، وحمل حكمة . فكائن من أبيات ، قد اشتملت على هذى الصفات ، ولم تقترب من العبقرية قيد فتر ! . لكنها من وراء ذلك : انها روح القائل في قوله ، إنها الحياة سرت في كلمات ، إنها القول من كلام الناس وليس من كلام الناس ، إنها المقاصد قد رمى فقرطس راميها ، وغزا فآب بفتح في القول غازيها ، انها الكلام يكاد ينطق ، يكاد يثب ، يكاد يقوم في الجمع خطيباً ، يكاد يجي في عهد الخلاعة ، في عهد الفجور ، في عهد الانتداب ، في عهد الانكليز ، يزفن مع النساء الراقصات الزافنات ويغنى عندليبا . إنها الحسن لم يعتد في كل حين . وانه الجمال يبهر المجتلين . فينشدون دهشين قول شوقى وهو دون العشرين :

« صوني جمالك عنا إننا بشر   من التراب وهذا الحسن روحاني »
« أو فابتغى فلكا تأوينه ملكا   لم يتخذ شركا فى العالم الفاني »
« ينساب فى النور مشغوفاً بصورته   منعما في بديعات الحلى هاني »
« إذا تبسم أبدى الكون زينته   وان تنفس أهدى طيب ريحان »

وأما رصانة السبك . وأما حسن الديباجة . وأما اطراد الاسلوب . وأما صحة اللفظ . وأما اتضاح المعنى . وأما ضبط اللغة . ففضيلة صاحبهن كلا فضيلة . وهل يسمى الكلام كلاماًفقط. « لس » إلا بكل ذلك ؟

إنها العبقرية . إنها العبقرية لا يد لصاحبها فيها . ولا عمل ثمة لبيت . أو كُتَّاب . أو مدرسة . أو كلية . أو جامعة . أو بيئة . ولو كان في الجامعات خير كبير لخرج في الناس عباقر كثير . وقد يجلو الصيقل جوهراً فيشع وينير ، ولكن

« السيف مالم يلف فيه صيقل   من سنخه لم ينتفع بصقال »

إنها العبقرية إنما تجيء من فوق . إنها إنما تهبط من السماء « إن هو إلا وحي يوحى »

فهرس